

# احمد بن طولون

رواية تاريخية غرامية

وهي الحلقة الثالثة عشرة من روايات تاريخ الإسلام

تضمن وصف مصر وببلاد النوبة في اواسط القرن الثالث الهجرة  
على زمن احمد بن طولون ويشتمل ذلك وصف احوالها السياسية  
والاجتماعية والادبية . وعلاقة الاقباط باهيل الدولة  
وما كانوا يশمرونه في تفاصيل او يقول بخواطرهم .  
وما بين النوبة ومصر من العلاقات السياسية  
ووصف احوال البجة وغير ذلك

تأليف

بهرجي زيدان

منفي ، الملال

## المقدمة

هذه هي الحلقة الثالثة عشرة من روايات تاريخ الاسلام وهي حصة وصف مصر في ولاية احمد بن طولون (توفي سنة ٢٧١هـ) وهو أول أمير استقل بادارة حكومة مصر تحت رعاية الدولة العباسية وبين نفسه بذلك سباه المقطعم بين الفوضاط لايزال من آثاره الى اليوم جامع ابن طولون في الصالوة وبذلا الجهد في تمثيل مصر في القرن الثالث للهجرة من حيث علامتها السياسية مع بغداد واحواطها الاجتماعية وعلاقة الاهلين بعضهم بعض . ومثلما ما بين الاقطاع المسلمين من الاختلاف وبين اسبابه وأسباب اختلاف بين أهل الدولة الاتراك والعرب وما كان يجول في خواطر كل من الفريقين بالنظر الى الآخر وهذه هي الرواية الثانية من سلسلة روايات الاسلام اختصت بمصر . أما الاولى فهي رواية ارمانوس المصرية التي تناولت فتح مصر على يد عمرو بن العاص ويسراها ان اقبال القراء على مطالعة هذه السلسلة يزداد في كل يوم فقد أعيد طبع اكثراً حتى لا يغادر مرة ونقل معظمها الى اللغات الشرقية في الهند وفارس وتركستان كما فصلنا ذلك في مقدمة عروس فرغانة بالسنة الماضية ونخن في كل حال لاذخر وسماً في ما نظمه مفيداً لقراء العربية . وقد ظهر لنا ان سبك التاريخ في قالب الرواية جزيل القائدة في محبيب التاريخ الى الناس وترغيبهم في المطالعة على الاجمال . وهذا ما نرجو اليه في تأليف هذه الروايات . والله حباً ونم الوكيل

# الفصل الأول

دِمْيَانَة

خرجت ديميانة من منزل أبيها في قرية طه الفيل بكوره سحا (في مديرية الدقهلية) في أصيل يوم من أيام سنة ٢٦٤ الهجرة ومشت تسترق المعلق في البالئين تائمس كبيسة هناك بيت اصلة أهل تلك الناحية والقرى المجاورة . وكانت ديميانة تذهب للصلاة فيها كل صباح ولا سيما في أيام الاحد والاعياد لكنها أرادت الذهاب في ذلك الاصليل تحمل بقيسها وتسرّ اليه امرأ حاجٍ خميرها وافق راحتها وهي ترى في الاعتراف راحة او مشورة او مواساة . ولو كانت والدتها حية لاستغفت عن مكاشفة القيس بالشكوى اليها . واما والدها مرسى فلم تكن ترتاح الى مطارحته ما في خاطرها لانه كث عذالتها لما في الطياع والاطوار - كانت هي ثقية ورعة تصل كل صباح وهو لا يبعا بالدين ولا يدخل الكنيسة الا نادراً . وكانت تكره المكررات وهو يتغطى بها مع ميل الى الجلوس والتنبك لا يهمه الا الشع بملاذ الجسد من الطعام والشراب والتأنيث فيها توفيت امرأته وابنته ديميانة طفلة ولم يكن له منها سوا هافل يتزوج ليس مراعاتها واحتفاظها بكرامتها ولكن رأى الزواج فيد او مشقة نعمد الى التسرّي وافتاء الجواري اقتداء بسرة المسلمين في ذلك العهد - عهد البذخ والترف والقصف . فالمسلمون وجدوا في بعض قواعد الاسلام متسعًا للتسرّي وافتاء الجواري فافتدى بهم بعض الاقباط من اهل الثروة ومرقس من جلتهم

وكان مرسى (ابو ديميانة ) من اصحاب القرى واهل الثروة لا يشعله طلب الرزق عن شيء من ملاذ الحياة فيقضي نهاره بالأكل والشرب بين الاصدقاء والخلان الذين على شاكلته . وكان المقللاً ينتقدونه ويتباهون عمله ولا سيما الذين عاشروه من الصبا وعرفوا حداثة عهده بالثروة لانه رب في صباح متوسط الحال لا يزيد دخله على الكفاف ثم جاءته الثروة بخاء فصادفته منه قليلاً شرعاً ونفساً ضعيفة فاتجهت قواه الى التمنع بالمشتريات الماليوانية

أما ديميانة فقد ربت في حجر والدتها الى الثامنة من عمرها واحتذت عنها الفضائل والتقوى وتعودت الصراحة في القول وصدق اليمعة والاتكال على الله والخافضة على الصلاة اليومية . وماتت امها على غرة وهي غائبة ولو شهدت موتها لسمعت منها حدثياً بهما ويكون

له شأن في مستقبل حياتها . فاصبحت دميانته بعد وفاة والدتها وحيدة لا ائس لها في تلك القرية لأن سكانها أكثرهم من العلاجيين الذين يشتغلون في ارضاً فيها وهم تابعون للارض ينتقلون منها من مالك إلى مالك أو من متقبل إلى متقبل على نحو ما كانت عليه الحال يوم ثُنُث في أكثر البلاد ففي المملكة الرومانية ياوروبا كانت الارضون تنتقل من بارون إلى بارون وينتقل فلاحوها معها ويسخونهم سيرف ( serf ) وهو ما يعبرون عنه في القرية بالقُنْ ( الجم افان )

فلم تكن دميانته ترتاح إلى معاشرة بنات الفلاحين وإن كانت لاترى مدعاً من مخاطبتهن والإنفات اليهن بالاحسان والبشاشة والملائفة ومن يقترب إلىها بالمدايا والخدمة . غير أن ذلك لم يكن ليشبع نفسيها الكبيرة ولم تكن تجد بآياً للتغزية بالماكاشفة أو المطارحة على عادة بنات المدن بين يديهن من الصواحب أو الجارات أو ذوات التربى . فكانت إذا طرأ عليها أمر يقتضي مكاشفة ثغرات نفسها بالصلوة فيعزّيها ذلك ولو إلى حين اما في ذلك اليوم فاختارت بانقباض صدرها وضاقت ذرعاً عن كفاف ما في خاطرها وهي تخسبه مخالفاً لقواعد التقوى وشروط التدين فقضت معظم النهار في التفكير منفردة في غرفتها حتى اذا مالت الشمس إلى الاميل لاح لها ان تبوء بسرها إلى قبيس القرية الاب منقريوس وكانت تأنس به لطول عهده في خدمة الكنيسة ولكره منه . واهم من كل ذلك ان الاعتراف للقبيس قاعدة مألوفة عندم

خرجت في ذلك الاميل وحدها تشي في البساطتين كلها تبتعد بذراً خارط الطبيعة وتنتظر في الاغرام وصيانت الفلاحين وبناتها يقفنون احتراماً لها او يفرون منها خجلاً وبعضهم في شاغل عنها بشور يسوقه الى مربيطه او حمار يحمل عليه قضباناً او فاكهة الى بيت مولا . فشت دميانته تظاهر أنها مهشمة بذلك المناظر وهي بالحقيقة في شاغل عنها بما يتعدد في بركها من الامر الذي هم يكتشفه للاب منقريوس . فلم تكن تسمع غناه الفلان ونميمة الكبرى على ولا صياغ الاديالك ولا رفرفة الاطيال التي تلتقط الحب . ولادنت من الساقية الكبرى على خفة النيل لم تتجه لانيتها او طقطقة اختابها ولا خوار ثورها اذ يسخنه القلام على التوران وكانت دميانته في نحو العشرين من عمرها ربعة القامة سمراء اللون مع صفاء وفقارة كبيرة العينين سوداء الحدقتين مع ذكاء ووداعة صدفية الانف صغيرة الفم ممتلة الثغتين لها ميسن ينم عن صدق طويتها ورقه احساسها . في اذنيها فرطان من ذهب يثلاط ابا المول . وقد ضفت شعرها الاسود ضفيرة واحدة وارسلتها إلى ظهرها وغطت رأسها بيقاب

من الحرير نسج دمشق أهدته إليها أمها في طفولتها وقد طرحت لها على حواشيه بعض  
الدعوات والأيات بالقبطية وارتدى ثوباً من النباتي الرقيق واسع الاردان الثفت فوقه  
بطرفة من الخزماً كان يحمله تجارة فارس إلى النسطاط . واحتدى تماماً محوكة من الخوص  
وقد أبله مما . وفي عنقها قلادة من الذهب في وسطها صليب مخمر

---

## الفصل الثاني

### الكتيبة

وكانت المسافة بين المنزل والكتيبة نحو ميل قطعت معقمه على خفة النيل وعياتها  
تنقلان بين الماء والبيس على غير انتباه فترت بها عدة قوارب تحمل ثدياً أو جبوياً أو غير  
ذلك من الغلال وهي لم تنبه لها ولا لصراخ نوبيتها ولا لتفش الماء أو تقر الريح على اشتراكها  
ولكنها انتهت فجأة إلى سفينة مختلف عما تعودت مساعدته في ذلك النيل لكبرها واتفاق  
بناتها وزخرفها وكبر شراعها وما فيها من الغرف والتواهذ كلها بيت سابق فوق الماء يشبه  
ما يعرف اليوم بالدھيّات . فعلت أن مثل هذه السفينة لا تخلو من بعض السراة وربما كان  
فيها بعض أصدقاء إبها فلا تريد أن يرواها أحد منهم . وكانت قد اشرفت على الكتبة  
فاصرعت إليها مهولة ثوارى بين جنوح الشجر واغصانها حتى دلت من باب الكتبة  
فاستترت وراء خلة بين يدي الباب قديمة المهد جذعها هائل الكبير . والافتتحت نحو النيل  
لتبعد نظرها إلى تلك الدھيّة لعلها تعرف أصحابها . ففترست في الراية المنصوبة في مقدمها  
فرأى عليها كتابة بالعربيّة وهي لا تقرأها — وأهل القرى كانوا إلى ذلك المهد  
لا يعنون العربيّة لقلة احتلاطهم بالغرب لأن المسلمين كانوا لا يزالون من زمن الفتح  
يقيرون في معزل عن أهل البلاد . إما في النسطاط مقر رجالي الدولة ومن يلحق بهم من  
الخاشية والاعوان أو في أطراف البلاد بالمقارب والخيام . ولم ينزلوا القرى إلا بعد قدوم المؤمنين  
إلى مصر في أوائل القرن الثالث للهجرة أذ جاء لأخذ ثورة اقتحمت هناك فاذل القبط  
وامر المسلمين بنزول القرى فابتدا فيها القصور وحوّلوا بعض الكنائس إلى مساجد<sup>(١)</sup>

فلا رأى ديميانة تلك الراية على أنها بعض رجال الدولة أو بعض اقطاعية منهم أو الجهة من القبط قد خرجنوا لجمع الخراج والجبرية . ولو لا علماً يتقارب والدها من صاحب الخراج لحافت أن يكون عليه بأمس من أصحاب تلك التعبية . ولو كانت تقرأ المرية لقرأت على تلك الراية اسم أحد المدارسي متولي الخراج وهو صاحب النفوذ الا كثيرون ابن طولون صاحب مصر . وانتهت بذلك لما جاءت من أجله ثغورات نحو الكتبة ودخلت بها الفريبي

وكان تلك الكتبة في أول أمرها ببيان أدعى عربي والأخر شمالي . فلما نزل المسلون في القرى بعد قدومنا وأحتاجوا إلى إماكن الصلوة أتيق بعضهم المساجد وحوّل آخرون بعض الكنائس إلى مساجد . أما تلك القرية فنزل فيها رجل من الشيعة الملوية يقال له أبو الحسن البغدادي جاء من بغداد في جملة أصحاب الأمون واحد المقام يصر فاستأذنه في الإقامة هناك فأذن له وظل مدة يتفقى فروض الصلوة في منزله . وكان معتقداً منهاً فلم يرب أن يسب أهل تلك الأحياء كتبتهم فاتفاق مع صاحبة القرية وهي يومئذ مارية القبطية المشهورة أن يقطع من الكتبة حانياً يخذه مسجداً يصلى فيه كما فعل المسلون بالجامع الاموي لما ثغروا دمشق . فاذنت له قسم الكتبة شطرين بمحاطه واصبع الباب الشمالي خاصاً بدخول المسلمين وليس منهم هناك إلا أبو الحسن البغدادي وحاشيته وظل الباب العربي مدخلًا للماري

دخلت ديميانة من ذلك الباب ومشت في الدعلبة باحترام وخشوع حتى اقيمت على وجهها الميكل وعلىها الآيقونات الملونة والاسثار المصوره فرمحت علامه الصليب وعريبت إلى آيقونة مريم العذراء في جهة اليمين وهي تقتل العذراء تحمل طفلها في شكل جميل . وقد جلست هذه الصورة من القسطنطينية . فجئت ديميانة أمامها ودخلت تصلي بمحارة وخشوع . وتخلل لها الامر الذي جاءت من أجله تتحقق قلبها تمهيضاً من الموضوع فيه . فتجلىت وأحدثت تضرع إلى الله أن تقويها وتشددها ولست وجه الصورة بازاملها ثم سمعت بها وجهها تيرك بكرامتها

وهي ذلك سمعت تسمة القيس في الميكل للصلة التي اعتاد اقامتها هناك قبل الغروب كل يوم ويندر ان يحضرها احد . وتنسمت رائحة البخور ورأى ضوء الشعاع فازدادت خشوعاً وتهيئاً لاقرادرها في ذلك المكان المقدس . ولم تر القيس لأن باب الميكل كان مغلقاً بستارة من الديباج الزركش صنع دار الطراز في تيس . ولما ذكرت في ما قدمت

من اجله اكترنه وحدثها نفسها ان تعدل عن مكاشفة القيس سرها وعمت بالرجوع واذا بالقيس قد ازاح السار ووقف يباب الميكل ويده الصليب والانجيل وهو يتلو الصلاة فلم تخلّ عن التقدّم خوفه واحتاج رأسها تحت الكتاب فقرأ نصّلاً من الانجيل بالقططية على جاري العادة فتشدّدت ورجعت الى عزمها على الاعتراف

فلا فرغ القيس من الصلاة مد يده اليها قبليتها واسس القيس بارتعاش امامها . وكان الاب منقريوس شيئاً طاعناً في السن عرف ديماته منذ طفوليتها وهو الذي كلّ امهات وعدهما هي وكان عطوفاً عليها وهو طيب السريرة صادق الثديين مع سذاجة وصفاء طوية وقد اطلع على اسرار احترف له بها اصحابها زادته اشفافاً على ديماته ورعايتها لها — وقبس الشعب الذي يطلع على اسرار رعاياه اذا كان صادق الثديين طيب السريرة كان وجوده بركة وسعادة لانه يستخدم تلك المعرفة للتوفيق بين بناته وازل ما يذكر صنوم من سوء النغام . اما اذا كان طاغياً منهاها فإنه يكون شرّاً عظيماً عليهم لانه يستخدم تلك اسرار لسلب الاموال والتتنبّع بالسيادة وغيرها من مطالبات العالم

اما الاب منقريوس فكان شيئاً جليلأً قد ایض شعره واسترسلت حيته . لا مطبع له في شيء من حطام الدنيا ولما هم خدمة رعيته والتوفيق بينهم . ولما رأى ديماته على تلك الحالة في ساعة لم يتعدّ ان يرعاها فيها بالكتيبة ابدرها بالكلام ليجرؤها على بث شكوكها فقال «كيف انت يا ابني ؟»

فهمت بالكلام فسبّتها العبريات فاطرقت حياءً ووجلاً فقال «ما بالك تبكين ؟ .. ان من كان في مثل حالك من التشوّي والاعتقاد بالسيد المسيح لا يعني له ان يحزن او يخاف »

تشدّدت وقالت «نعم يا سيدى صدقت وانا قد جئت الان لا اعترف لك باسم ابيتي واقلق خميري فهل تسمّه ؟»

قال «كيف لا .. تقضي الى كرسى الاعتراف » قال ذلك وتحوّل الى كرمي بجانب الميكل يقعد عليه لساع احوال المترفين وامرها ان تبعد على كرمي بين يديه . وبعد ان تلا بعض الصلوات او الطقوس التي تدل في مثل هذا الوقت قال ما سمعي خبرك ياديماته ولا تخافي فانك تخطابين نفسك وبهذا يكن من خطارة سرك انه يبقى مكتوماً لا يعلم به احد . كذلك تواجهين الله في خميرك »

فاطرقت ديماته خجلاً وقد بدا الاصغرار في وجهها وسكتت فقال «قولي يا ابني قولي»

## الفصل الثالث

### الاعتراف

فرفعت بصرها اليه وتناولت يده وقبّلتها وبالت قفافها بدموعها فاجتذب يده منها وقال «قولي يا ديمات لا تخفى يا ابني ... ولا اخنك تقولين شيئاً اجهله لانا معاشر القيسين لا يخفى علينا شيء من اسرار الرعية يا وهبنا السيد المسبح من مر الاعتراف ... وانت تعلمين اني بمنزلة ابيك وقد عرفتك وانت حلة وعرفت والدتك من قبلك ولا تخفي علي خالية من احوالك »

فلا سمعت قوله صاحت « تعرف ما في نفسِي ؟ صحيح تعرف ؟ قل بجهاة قدسك ... قل ما نعلم » وخفف عنى مشقة القول « فتحجج القيس وسخ فه وخطبه يندبه وقال « لا يا ولدي لا يجوز ان ابدأ بالقول ولكنني قلت لك ذلك لا هون عليك التصرّح » فقالت « اتعرف جارقا ابا الحسن الغدادي تزيل هذه القرية ؟ قال « كيف لا اعرفه ؟ اليس هو صاحب هذا التصرّح بجانب قصر ابيك ؟ » قالت « نعم هو ... انه بالحقيقة من اهل اللطف والانس واراه يحب النبط ويلاطفهم ويخاسفهم خلافاً لسوء من اهل الدولة »

فلم ير القيس رابطة بين ما سمعه وما كان يتوقع ان يسمعه ولكنها تدرج في الحديث على سبيل الاسترال قال « اراك تحببين اضطهاد اهل الاسلام للباطل فاقعدة من قواعد حكمتهم ... الواقع ان ذلك يختلف باختلاف الرجال فقد كان المسلمين في اوائل دولتهم عصر اكثير الناس رعاية لنا ورقينا واعتبرنا اعاداتنا وطقوسنا وقد تخلل ذلك اضطهادات كان الحق في بعضها علينا لطبع كبارنا باموال الدولة والامساك عن دفع المرابح او الجزية ومنها السنة التي جاء بها المؤمن وقد عاقبنا اشد العقاب ما لا يحل لنخصيه الان ... اما ابا الحسن فهو رجل عاقل ومتبدل ... عرفت اعندالله على الخصوص من تأهله في معاشرتنا وانتناعه بغيره من هذه الكنيسة لصلاته وقد رأينا غيره يقولون الكنائس الى جوامع <sup>(١)</sup> ثم سهل وبلغ دينه وقال « وهناك سبب آخر لقتبه هنا

لا اظلك تعرفته .. وهو ان ابا الحسن هذا يتنبى الى طائفة من المسلمين يقال لها الشيعة  
الذوية يقطنها رجال الدولة لانها تخالف مذهب الخليفة وامراهه كما كان حالا قبل  
الاسلام اذ اقسمت الكنيسة الى ملوكية وبيووية وكانت دولة الروم تنصر الملكية لانهم  
على مذهبها وتقطنها عياله سق تقي هولاخ خروج هذه البلاد من حوزتها وقد حصل  
الا تذكرين يوم جاءت اوامر الموكيل خليفة بغداد الى قبط مصر منذ يضع عشرة سنة ..  
اظلك لا تذكرين ذلك لانك كنت طفلة - انه بعث الى عامليه بصرى بهدم الكنائس المحدثة  
بعد الاسلام وهي ان يستمان بهم في الاعمال او ان يظهرروا الصليبان في شعائرهم وامر ان  
يتم على ابوابهم صور شياطين من الخشب وان يلبسو الطيالية المصالية ويشدوا الزمار  
ويركعوا السروج بالرکب الخشب بكرفين في موخر السرج وان يرقصوا بالاس رجلهم برقمتين  
مخالفان لون الثوب قدر كل واحدة اربع اصابع ولون كل واحدة غير لون الاخرى ومن  
خرجت من نسائهم تليس آزاراً أعلى ومنهم عن ليس الشاطق وغير ذلك<sup>(١)</sup> وما زالت  
هذه الاوامر جارية حتى تولى ابن طولون فابتلاها

«والشيعة قد اصابتهم في ذلك الوقت من الاضطهاد خروما اصاباعان ابن الخليفة الذي  
غنم بصدده كتب الى عامله بصرى لا يقبل علىي ضئلا ولا يركب فرسا ولا يسافر من  
القططاط الى طرف من اطرافها وان يعنوا من اتخاذ العبيد الا العبد الواحد ومن كان ينهى  
ويبين احد من الملوين خصومة من سائر الناس قبل قول خصمه فيه ولبس طلاق بيضة»<sup>(٢)</sup>  
«وطبيعي يا ابني ان الذين يتسائلون الفيل مَا ينالون ويتحايدون ولو بعدت اصولهم  
وتباينت مذهبهم»

وكان القيس يتكلم وديميانة تظهر الاصناف وذكرها يشنغل في تعيينه عبارة تبدأ بها  
شكواها او تثبت بها غرامها فلما فرغ من كلامه ثالث «وسعيد المهندس خيف ابي الحسن او  
ابنه او مولاه هل تعرفه؟»

فنظر القيس اليها خلسة فوجد سمعتها تغيرت وامتنع لها وايرقت عيناه فادرك ان  
خلته لم يكن غلطنا فاراد ان يشبعها على التصرع فقال «وانا .. الا تعرفني ياديميانة؟»  
فلما سمعت سؤاله نزلت عن الكرسي وجشت بين يديه واخذت تبكي وتهن بالكلام  
فيمنعها البكاء، فصبر عليها حتى هذا روعها فقال «اظلك تخبيه ... انه شاب حميد  
الظمآن بارع ماهر»

(١) تاريخ العدن الاسلامي ١٤٢ ج ٤ (٢) المقرئي ٣٢٩ ج ٢

ـ تهافت ديانة وهي تسع دموعها وقالت «نعم يا ابني .. افي احبي .. وذهاب الامر الذي جئت لا اعترف به واستقر الله من اجله .. احييته رغم ارادتي يا سيدني وانا لم اخالطيه بعد . ولما كنت اشاهدته داخلاً الى منزله او خارجاً منه وربما حياني بكلمة او اشارة لا تتجاوز الكلمة وجوابها . ولكنني كنت اسمع بخصاله ومناقبه ومهاراته بالفندسة ولم يتحقق لي اني اجتمعت به في مكان لان الي لا يريد ان يرى ابو الحسن احداً من اهل النساء فجيئنا عنه كما يجيء ذلك ناسه عن رجالها . وقد فعل حسناً هان في ذلك دفع الشر وذيرياً ما حاولت البعد وغض النظر للي اسي فلم اقدر» قالت ذلك وعادت الى البكاء

ـ فقال القيس «تبكي لانك احييت معيدياً .. وعل المط محروم؟

ـ قالت «اما ابكي لاني احييت رجالاً لا سبيل لي اليهوان كنت ام احبي بارادتي . ولكنني احبني اخذأت سطيحة عظلني لاني احييته وهو مسلم»

ـ فهم القيس سر اخطر ايها فانهضها واجلسها على الكرسي بمحابيه وهو يتسم فلارأته بشرم خف اخطر ايها وليشت لنظر ما يقوله فقال «وما الذي جعلك تحيبيته مسلماً؟»

ـ قالت «لان اسمه سعيد ولم اعرف احداً سمي به غير المسلمين وقد سمعت انه يلقب بالفرغاني وهذا ايضاً من القاب المسلمين وزد على ذلك اني لم اره في هذه الكنيسه ورأيته مقيناً مع ابو الحسن كاحد اولاده ..

ـ قال «اما اسمه فابو الحسن سعيداً وليس ما يطبع تسويته به .. وكذلك اللقب فاته لقب به نسبة الى احد اساتذته المسلمين الذين اخذوه الهندسة والرياضيات عنهم في بغداد مدينة العمل لانه سافر اليها مع ابو الحسن وتلقى العلم فيها .. واما الصلاة في الكنيسه فلعله لم يتخلص عنها الا وهو غائب عن القرية في عمل او سفر ولم يكمله كافٍ باني متاخرها فلما ترتبته

ـ قالت والدهشة باريه في حياماها «ليس هو مسلماً؟

ـ قال «كلا يا ابني انه مسيحي مثلثك»

ـ فلما سمعت قوله وثبت من مجلسه ارادتها وحملت بالقيس وقالت «مسيحي .. نصراني مثلنا؟

ـ قال «نعم انه مسيحي يا ابني

ـ قالت «هل انت موّكِد ذلك؟

ـ قال «لا ريب عندي في نصرانيته وقد جلس على هذا الكرسي واعترف لي موارداً

قالت «جلس على كرسي الاعتراف؟ واعترف لك؟ .. واطلعك على مكمنات قلبه .. آآ، هل اعترف لك انه؟ ..» وهى ان سأله اذا كان اعترف بجهة ما ثم تراجعت خجلاً وعلت ان سؤالها يخالف قانون الاعتراف فاطرقت وسكت فقال «يُكفي اتف عرف بأنه مسيحي»

فتحت وقالت «نعم يُكفي» ثم رفعت رأسها نحو السماء وقالت «أشكر الله على ذلك» وغلب عليها الفرح حتى ضحكت والدموع يقطن من عينيها وهي تردد نوحاً « هو مسيحي .. سعيد مسيحي» ثم انتهت ان مسيحيته لا تكفي وحدها لامانة قلبه في الحصول عليه .. فسكتت وجعلت لتشاغل بمحض عينيها واصلاح ثقابها ثم قالت « وهل يُعد حبي له خطيبة يا اباانا؟»

فاجابها القيس « ان الحب الظاهر يا دميانة ليس خطيبة بل هو من الفضائل التي يطلب الناس عليها ونطرأ لما اعلمك من ثقواك وتمتلك لا اخاف تورطك وخروجك عن المحدود التي وضعتها الكنيسة»

قالت «معذ اله ان افعل ما يخالف تعاليم الكنيسة ولكن هل نظر والدي ..» قالت ذلك ومنها الجلاء عن الكلام

فادرك انها سأل اذا كان والدها يمانع في زواجهما به فقال « ان والدك صعب المراس ولا ادرى اذا كان يرضي به بعلاً لك ..»

قالت « اذا كنت قدسك في مكان والدي هل ترى سعيداً لانقا في؟» قال «اني اراه اهلاً لك لانه من خيرة الشبان تعلقاً وذكراً وبهارة ولا سينا الان فإنه قد احرز ثقة صاحب مصر احمد بن طولون نظراً لمهارته في فن المندسة قضله على مهندسي مصر كافية .. اظلك تعليمين سبب ذلك» قالت «كلا .. وما هو؟»

قال «لما افتتحت حكومة مصر الى ابن طولون هذا وهو تركي الاصل وجنده اتراك وسكان السلطاط (قصبة السطلين بصر) عرب لا يرضون الرخوخ له لأنهم هم اصحاب الدولة ومنهم ظهر النبي صاحب الشريعة الاسلامية وكانوا في اول الاسلام يصدون الاتراك والفرس وغيرهم من الامم الاخرى اقل منهم صرامة وكانت يسمونهم الموالى فلما تغلب المنصر التركى في بغداد على ایام المتصم الخطف شأن العرب وخرجت مقايد الدولة من ايديهم وتولاها الاتراك او الفرس او غيرهم فاصبح العرب ينظرون الى هولاء بعين التقد والحسد ..

وعلم ابن طولون ذلك فلم يمد يامن الليل بهم فلزم على ابن بني لشه بدلاً خاماً يحمله مقللاً له ولجنده فابنى بين الفساطط والمقطم قطاع ازلى فيها رجاله وبنى قصراً له فاموره الماء لأن القطائع بعيدة عن النيل ومرتفعة عنه لا يسهل الاستفادة بها أراد ان يحول الماء إليها فلم يجد من يستطيع ذلك الا سعيداً فانه تمهد له باستباهه وقد وضع له ديناً هندسياً لم يستطعه سواه ويأثر العمل واظهه فرغ منه الآفت وجري الماء في القطائع في جهة تعرف بالمخافر وعا قليل يختلف ابن طولون بمشاهدة هذا الماء يجري . فإذا رأى العمل متقناً كان سعيداً مكافأة يمسده عليها كثيرون

فسرت لأول وهلة سرور الحرب بما ينان الله حبيبه من الرقي ثم انقضت نفسها لخسافة ان يحول ذلك الرقي دون مرادها وهي الى تلك الساعة لم تعلم رابه فيها وان كان قد لليها بذلك تبادل الحبة بينها . فاصبحت كثيرة الشوق الى مقابلته لترى ما يدوه ولا تعرف وسيلة للاجتئاع به لانه كان يقفي معظم أيامه في الفساطط او القطائع  
والاعلم القبس انها قد فرغت من الاعتراف فوق ووقفت ورفع يده على رأسها وباركها وصل لها قبلت يده والصليب الذي يحمله وخررت . وانصرف هو الى غرفة يقطنها باسم الكنيسة ولم يعرض عليها من يوصلها الى بيت ايها وقد انسى الماء حله انها لا تخرج الا وخدمها العم زكريها معها . ولم يدر انها انت وحدها خلسة في ذلك اليوم

## الفصل الرابع

سعيد

ولما خرجت من الكنيسة كانت الشمس قد غربت واخذت الظلال تتكاثف ولكن القر كان في رابيه الاول . خللت بعض دقائق تتردد في هل تطلب من القبس من يوصلها الى بيت ايها او تسير وحدها وكانت وهي تفك في ذلك تخطو بغير اتجاه حتىتجاوزت تلك الخلة واطلعت على البياتين . واشرفت على النيل وقد اكدر لون مائه من خلل الشهاء لكن سطحه زاد اماماً لتكسر ضوء القر على وجهه المتجمد كان الزمان اثر فيه فذئب مثل تكمش وجوه الشيوخ . فضولت دميانة على المسير ووحدها وهي تستغيث باسم الله صاحبة تلك الكنيسة وحامية تلك الناحية ان لا يراها احد حتى تدخل غرفتها

وفي في ذلك سمعت وقع حواري جواد ثمودت ان تسمع مثله ماراً بجانب منزل ابيها وسمحت صبيل الفرس يخنق قليها لعلها انه فرس سميد ولا لها سلسلة به منفردة في ذلك الليل هناك وهي لم تعود هذه المطربة ولا سبق لها خاصية سعيد بنغير الغيبة بين يدي والدها وزد على ذلك اتها خارجة من ذلك الاعتراف ولقد تبرأت شعائرها فوسمت في حيرة بين ان ثوارى عن الطريق حتى لا يراها او تتف له وتفتن تلك الفرصة لمعرفة ما في نفسه منها وكلا الامرین شاق عليها

وفي تردد وتميل فكتبتها رأت الفارس اصبح امامها وحالاً وقوع بصره عليها عرفها قربجل ياصرخ من البرق وتقسم وهو سك طام الفرس يساره ووقف بين يدي ديمانة وفقة احترام وتخشع وعليه لباس السنر وعلى رأسه بدل النساء او الدامۃ الكوفية والمقال وقد التفت بياءة من المطرب فوق القباء والسرابيل . وكان اصغر الاولين يبغى الوجه على العينين مع دعاء وذکاء قصیر الحاجین صغير القم خفيف الشاربين واللحمة ناح الصحة في تعباه وينتفق الذکاء والجلدة من عينيه — وافق وقوفه مواجهاً للنحر فظهرت تلك الملائمة ظالمةً واضحًا وزادها شوہ القراء هيبة

اما في فكان الضوء والغا على جانب وأسماها فاكنت وجهاها من تكسر الاشعة واختلاف كثافتها على تقاطعه روقة . و كانت عيناها قد ذبلتا من البکاء بين يدي القيس فزادتا ذبولًا عند رویة سعيد لما جاش في خاطرها من لواعج الحب وما يقذعها من عوامل المبعث والرجاء والظروف فوسمت كالعنم لا تتحرك . لكنك لو جست يديها او سمعت حرکة قليها لظننتها بطارية كهربائية عليها مرجل ينطلي ماءه وينتفق بخاره لما يدوك من ادة ذلك في ارتعاش اقامها وخفوق قليها وامطركاك ركبتيها

اما هو فتقدم خروها بخشوع ووقار وکلها — وطالما تلقى ان تستحب له مثل هذه الفرصة اذ لا حرج عليه اذا خاطب الفتنة يعرض عليها خدمة لانفرادها هناك في ذلك المساء فقال « هل تاذن سيدتي ديمانة بخاطبها »

فلم تجب بلسانها واغا ايجابت يمينها ولم تحرک كما فقال « اراك وحدك هنا ولعل خادمك اياً عليك فهل تأمرین ان اكون في خدمتك الى المنزل او حق بأني الخادم فاتشرف بهذه الظدمة »

فاطرقت وهي تصلح طرف تقابها وقالت بصوت خامر « الشكرك باسيدي واضح ان يكون في ذلك تعب عليك »

قال «كلا .. و اذا اخفت التعب لان الطريق طويلاً فاركبي هذا الفرس وانا اقوده  
وارعاه ولا يأس عليك منه »

فقالت وقد استائنت بتلطيفه واستدلت منه على انه يضر لها مثل ضميرها له فقالت  
« لقد بالغت في التلطف يا سيدى بل يكفي حظاً ان امشي الى جانبك فاكون في ظلك  
لا اخشى بامساً ولا اخاف تعباً » قالت ذلك وهي تكاد تشرق بريتها من شدة الاضطراب  
وتشاغلت بالمسير وهي تتعثر بشوبيها وركبتها ترتدان

## الفصل الخامس

### المشاكلة

فتحبها سعيد وهو يقود جواده وقد رأى المقام ذا صعوة ليشكوا لها ما يكتبه ضميره فقال  
« اذا سرنا معاً فانا اكون في ظلك يا سيدتي لاتك صاحبة هذه الارض وماليكة رقاب اهلها  
وقلوبهم وما انا في شيء من مثل ذلك كذا تعنين له »  
فافتتحت اليه ونظرت نظرة عتاب وقالت « لا تقتل يا سيدتي »  
قال « وماذا القول اذا »  
قالت « قل ديميانة وهذا يكتفي »  
فلا يسمع قوله تهلل وجهه فرحاً وقال « هل تاذنين بذلك .. هل تاذنين ان امريك  
يا سمعك فقط ؟ »

قالت « بشرط ان تاذن لي ان ادعوك سعيداً »

قال « انت صاحبة الاذن الاول ويكفيك حظاً انك اذتر ان اكون في خدمتك  
هذا الماء في اثناء هذا الطريق .. على اني ارى مسافة هذه الخدمة قصيرة فهل يتألح لي  
يا زرى ان تطول مدتها ؟ »

فتراجعتم ونظرت اليه نظرة تفتن عن خطاب طويل وقالت « لا تقتل خدمة فانما  
هي رفقة »

قال « وعل تاذنين ان تطول هذه الرفقة يا ديميانة » قال ذلك وفي غنة صوته معنى لا  
يعبر عنه بالكتابية »

فادركت تلبيعه وفهمت مراده فأخذ الميام منها مأخذًا عظيمًا وسرها تصدية لهذا  
السؤال فنظرت الى وجهه على ضوء القراءة وعيناه شاحستان ببرقة وقالت وصوتها يرتجف  
« طول الحياة ... » وغلب عليها الحماس فنوردت وبقتها واطرق تتنظر جوابه . فلما بطا  
خافت ان تكون قد تسرعت بهذا التصریح فتابعته سعيد في المير طفاوتها سعيد في الباطرو  
ولحظ استغراها سکونه فقال « قد تستغربين سکونی يا دمیانة بعد أن سمعت كثلك الشينة  
التي قللت بها عنقي ... انا سكت من الدعنة والاکبار لاني شعرت بالانتقال فجأة من  
مساف الاشیاء الى مراتب اهل السعادة ... ان هذه الكلمة يا دمیانة كتاب کبير  
وجلد شخص .. بل هي وسي» محاوي نزل على قلبي فاناره وأراني مستقبلًا عيدها لم اكن  
اعلم به وفوق ما كنت اطمح بهله .. بل هي روح حلت في بيت امامي فبعثمن الغير .  
مررت بي احلام الصبا يا دمیانة وحدثني تفسی بضروب من السعادة تختطفني اذهان الاحداث  
وي Bender ان بنالوا عشر مشارها فلم يخطر ببالى معاذه كالسعادة التي اكتفتني عند سماعي هذه  
الكلمة الشينة ... انا ايلع ما نطق به الشعرا وامي ماخطر على بالبشر .. طول  
الحياة ... اطلاع الله حياته يا دمیانة حتى تطول اسباب سعادتي ... ثم زارع وقد  
انتبه لسرعه في تفسیر قوله والفت اليها وهي تنظر اليه وقد حدقت بصرها في وجهه كأنها  
تهم ان خطفته باحقنانها فاحس بهم اصحاب قلبها وانه غلب على رشده فقال « اخشى  
يا دمیانة التي تسرعت في تفسیر مرادك .. هل تعدين ما فهمته؟ .. ام غلب على الوم ففهمت  
ما افتنه؟ .. »

فنهدت تهدأ عميقاً وقالت « ابعد ما تراني فيه من鄧الائل !! ... تعالطي ونظلي  
مني زيادة الايقاح ... اشفع على عواطيي واكتف بما تراه من اخطاري ... وبعد  
ما ظهر لي من احتفالك بذلك الكلمة ومقوالاتك في فيتها . كيف لا اعني ما فهمته؟ ..  
نم انك قد فهمت مرادي كأنك تقرأ أفكاري .. ولا عجب فانك متيم في قلبي »  
فلم يحالك ان صاح من الفرح والدعنة « متيم في قلبك؟ جيداً المقام ان لم يكن فيه  
نتقبيل عليك .. ماذا اقول يا دمیانة وقد غلبتني على امري وضيقت علي ابواب الكلام ..  
فاعترف بعجزي عن المظروف في هذا البيان واكتفي بعبارة بسيطة فاقول اني احبك جئاً  
يكفي للتفريق بين الملكة واليعاقبة وزع ما ينتما من الفقائن . أو التاليف بين الاقباط  
والسلطين حتى يصيروا امة واحدة . ولا اطلب منك التصریح بما في قلبك فقد عرفته وأخشى  
ان اسمع كلة أخرى تأخذ بلاغتها بقتل ... »

وكانت بتلك كيان وشكاشفان الامصار وما يسيران والدرس يسير في الزهراء لا يسمع  
لحواليه وقع كأنه شعر بالقاد ذي تلك القلبين وادرك حاجه صاحبها الى الكينة فشارك  
الطبيعة بالمدوه ثنياً من سلطان المحب واكراماً لذئب المحبين في ذلك المساء المقرر .  
واما الطيبان فكان يقلدان اغططيه عدا الاعسان الى اين يسيران ولو مشيا على تلك الحالة اياماً  
حسبها حلقات قليلة فكانتا في شاغل عن حنيف الورق وشادي الفلاحين ونباح الكلاب  
وصوبيل الخيل كلهمما في عالم آخر

## الفصل السادس

العم زكريا

وهو في تلك الغفلة وأيا شبيهاً مقبلًا يعدو من جهة بيت مرقس . رأاه اولاً سعيد فقال  
« اوري شبيهاً مقبلًا اخذه وجلأاً هل تعرفينه »  
فأذقت وتركت فيه ثم قالت « انه خادمي العم زكريا .. وأنهن والدي استطاعاني  
فيث اتعجل بجهتي »  
فعلم سعيد انه لا يدله من مقارتها فقال « ان هذا العم سأخذك مني او بالحربي  
سيقتل بيتنا »

قطعت كلامه فاتله « موقداً ان شاء الله »  
فرد قوله « موقداً ان شاء الله » مراراً ثم اجذب الجام حتى القرب النرس منه وقال  
وهو يحكي جهية النرس « والا ان كنت ذاته لي بيت ابيك ومتلدين هي بالخدم والجواري  
ويمدادن السعادة واما انا علا اذيس في الا خيرك »  
قالت « لا يشغلي عنك شاغل بعد ما دار بيتنا » وكانت ارادت اقام الحديث فنعتها  
الماء فقاومها قاتلاً « لا تعلو مدة الفراق ان شاء الله »  
قالت « ذلك بتوقف على رأيك و .. »

قال « انا ذاتي في داري القسطاط لاري ما يأمر به اميرنا ابن طولون بعد  
فراغي من بناء العين وجور الماء ويسعى يوماً يختنق به بغيرها وسائل الكافية واجر ان  
تسرك . وعند ذلك اقدم الى الامر الذي جرأتني عليه من هضلك . فاستودعك الله

الآن » ونديده اليها فلدت يدها فصالحها وخفت على اثامها واحس ببرودها فاجابهه  
بتل ذلك وامات الى التحرر وهي تنظر في عينيه ولم تقل شيئاً ففهم مرادها وقال « ولانا  
استشهد هذا الكوكب السيار على عهدهنا » والفت فرأى العم زكريا يتباها في مثيه محمد  
كانه علم ما ينتهيما واراد مساعدتها . لما رأهما يتصالحان قدم اليهما وحياهما تأدب  
وسكينة

وكان زكريا كهلاً اجردواه أسله خصيّ اسود ربي في صباح عزد ملك التوبه ثم  
توقل بالمدية حق وحب دميانة ليلة ولايتها على ان يكون في خدمتها الى اخر حياته .  
وقد أخلص لها الخدمة — و هوؤلاء الحصان اذا صدقوا في حبهم كانوا اقرب مودة لاصددهم  
من الاخوة او الوالدين وكانت دميانة تائين زكرياؤتكر موتاديء « يا عماء » وكان يعرف سعيداً  
سرقة حيدة ولم يفته ما يكتبه دميانة ولا مافي قلب دميانة مع انهما لم تذكر له شيئاً من  
ذلك . وكان برلي بينهما تابياً ويشق ان يتم افترانها . فلما التقى سعيداً في تلك اللحظة بادرها  
فأيلاً « لقد شغلت بالطريق مولاني لنبايك ولو علمت انك التقي بولاي المهندس الماهر  
لما تحملت مشقة السفر اليك ولأنهن سيدى وأدراك قد امر بالبحث عنك لتجزيل محبيك »  
قالت « يتحقق لكم استبطاني ولكنني شعرت بعاجة الى الصلاة والاعتراف بذلت الى  
الكنيسة وطال وقوفي امام صورة سيدتنا والدة الاله ففاحت الشمس قبل خروجي وافتقدت  
صوري بجانبها الشهم فترجل عن فرسه ومشي معي »

فابتذرها زكريا فانلا « فوجب علينا شكره على هذه الارجحية » والفت الى سعيد  
وقال « اشكرك يا سيدى على تحملك هذه النفلة فاذاشئت اركب فرسك الى منزلك وانا  
امشي في خدمة مولاكي الى البيت فاقتنا على مقربة منه »

فنظرت دميانة فادا هي بجانب بيت ابيها ولم تكن تحسب نفسها فريدة بهذا المقدار  
فبشت وجعلت تصلح من شأنها وتهديه « روعها لثلا يدو حلاما لا يبيها . اما سعيد  
فودعها وركب فرسه وتحول الى منزل الى الحسن وما زال يلتفت نحوها ويشير مودعاً  
حتى توارت عنصره

اما دميانة فامشت خطوات قليلة حتى رأت الانوار في حديقة بيت ابيها ورقم نظرها  
على شفة البيل التي تلية فرأيت اتواراً عديدة لم تهدى منها هناك فقالت « ما هذه الاشواه  
التي ارواها في البيل ؟ »

قال « هذه سفينة المادر الى صاحب المراج واهلاها اضيف عندكم »

فتذكرت أنها شاهدتها تخترق عباب الماء في امسيل ذلك اليوم فقالت « مالها ولما دراني لا أذكر أنه يزورنا ولا أعرف وجهه فما الذي أتي به اليوم » قال « هي سفيحة المادراني ولكن المادراني لم يأت فيها » قالت « من أتي بها أذاً ؟ »

قال « استفانوس ابن المعلم يوحنا كاتب المادراني وهو صديق سيدي والدك ... قد جاء في هذه السفيحة الفخيمة وبالغة في الإبهة » قالا سمعت اسم استفانوس تغير لونها ووقفت وقد جد الدم في عروقها . ولم يجعل المذكر يا سبب تلك البتة ولكنه تخاطل وقال « هيا بنا يا سيدي . فقد طال انتظار والدك قدوتك »

قالت « طال انتظاره قدوكي » وهل يهمه أمري « وعنده من السراري والجواري ما يشغله عن هذه البشارة السكينة التي ذهبت سعادتها بموت والدتها . رحمة الله يا أمي » قالت ذلك وحرقت اسنانها ومشت وهي تقول « وما غرض هذا الشاب الجاهل من هذه الزيارة يا ترى ... اذنه جاء لمعافاة المطر مع والدي وتحمية الوقت بالبعون والخلال على جاري العادة »

فتأنثر كربلا بما شاهده من حوقتها فاراد تشجيعها فقال « وما الذي يهمك من ذلك يا مولاتي ؟ »

قالت « كيف لا يهمي أمر والدي يا عمه « ألا يعني أن يكون من معاشرى المطر وأهل المuron « هل رأيته ذاهباً إلى الكتبة أم هل سمعته يصلي » وما الذي أبقاء لآخرته وانت تراه يقفي اوقاته في الخلالعة والمuron ... وهو لذلك لا يصاحب إلا من كان على شاكلته ... ما قولك برجل يخذ استفانوس هذا صديقاً حبيباً له ينفق امواله عليه ؟ » فقطع كلامها قائلاً « ألا تعنين لماذا يصاحبه ويكرمه » . لا يعني عليك صحة املاك سيدي والدك وما يلحقها من المطر الكثير وهذا الشاب ابن كاتب المطر وله دالة على المادراني بواسطة ايه فيخدم اباك في تحنيف صالح المطر و قد مضت عدة اعوام لم يدفع ابوك من المطر شيئاً »

قالت « بش الاقتصاد ... أرأي ينفق عليه في الماء والعزم والمدايا فوق ما اقصده من المطر ... ثم ان المطر حق للحكومة لا يبني اساساً كعنها وألا تكون قد سرقناها ان اهل التنمية والفسر لا يقبلون بذلك »

## الفصل الرابع

### الآئية

وكان زكريا يشي بين يديها وها يسيران الموسى لاقام الحديث قبل الوصول الى المأذن واستغرب نقلها وصدق نظرها لانه «مع منها نولا لم يسمه الا من كبار الرجال المتفانيين في نصرة الحق والعدل . ثم تذكر نقولها وتدبرها فادرك ان نظارها مائة لا عن قول السبع اعطوا ما لغيره لغيره وما لله لله » — وذكر في امرها وما يهمها من امر ايها فاستوقفها وقال « ان الذي يهمك من هذه التكوى امران الاول المخافف ان يذر والدك امواله فيضيع حنك من الارث و . . . »

فقطعت كلامه فاتله « ان المال يبني كثيرا ولكن لدى امرا آخر اهم منه » فقال « لو صبرت لاقم حدبي لاستفدت عن هذا البيان . . . والامر الذي انك تكرعين اسطفالوس وتكرعون عشرته ومخالفين ان تاول مسافة والدك الى تكفين عرى القرابة معه فتعمد العائدة عليك وانا اعلم انك تبغضين هذا الشاب كما تبغضين جهنم . . . »

فسرها ان المم زكريا فهم مرادها وعرف ما يكتبه شعيرها واحسن التعبير عن مقدار بغضها اسطفالوس وبالحقيقة ان اياها في طامة انه يجب اقتراحها به فلم تخوب على اتها لا ترى كل ذلك شيئاً يتحقق الذكر بالذمة الى حرماتها ، من سعيد ولا يبأد الذي معه في تلك البلدة وعمت ان تبوج بذلك لزكريا فعنها الحياة . وكان زكريا يشي بيتها والمصباح يده فلما آتني منها الاطراق والسكوت والتفكير رفع المصباح الى وجهها وتغرس فيه وهو يبتسم وقال « وند قرأت في وجهك شيئاً آخر » وتتحمّل وسائل وصبر هذيه ثم قال « ان سعيد ارجل شهم وهو وحده اهل ذلك . . . »

فلا سمعت قوله بهذه الصراحة زادت غربات قلبها وتولاماً الحigel ولم تجتب فابتدرها هو قائلاً « وهذا الامر على خطأته لا يبني ان يهمك كثيراً . . . امل مقالين كل ماتريدين باذن الله ونهاية يوم الجمعة . ( وكان المم زكريا انصرانياً مثل سائر اهل الوباء في ذلك العهد ) — سرتانين سعيداً وسيذهب اسطفالوس هذا خندولاً وستكونين صاحبة هذه الثروة وحدك اي وقت شئت . . . انا يجب علياً ان تتوخي النوبة والحكمة والله

المستعماً» قال ذلك وامارات الجلد بادية في صوته ولو استطاعت دميانة الترس في وجهه رأت في عينيه معاقي لا يعبر عنها بالنطق على أنها فهمت قوة حزمه من حين صوته كانه يتكلّم عن ثقة وسلطان لكنها حلت قوله محمل التحمس لها تختفي عنها لاته يحبها ويريد راحتها فقالت «أني لا أفتر عن الصلاة والدعاة، مسأء صباح انوسل الى السيد المسيح ان يبعد عني هذه التجارب وارجو ان يصفي لطليبي» وقد سرّتها تصدي العم زكي يا للأخذ بناصرها فزادت استئناساً به واركاناً اليه وهي تعتقد صدق ولائه واخلاصه . . ومشيا سق اقرباً من باب الدار ففتح لها الباب فدخلها فاطلا على حديقة قد أثيرت بصاصيم ملوقة معلنة باعصار الخبر . . وندمدت المائدة تحت شجرة كبيرة تدلّت المصايم من اغصانها كأشنف وعل المائدة الاقداح والاباريق وفيها اصناف الخضر يخللها اطباق الناكبة والاطعمه وباقات الرياحين . . فجهولت دميانة فهو غرفتها وظلّ زكي يا في طريقه حتى اقبل على سيده وكان جالساً على وسادة عالية بجانب المائدة وبيحانه صديقه اسطفانوس وقد لبست الخمر في رأسه

## — م م —

## الفصل الثامن

مرقس واسطفانوس

وكان مرقس كهولاً متضايئاً يوشه التفكير في كثيوكه وإذا خطر له انه نارب الشرين من عمره غالط نفسه وزعم ان اياده اخطأ في تبيين عام ولادته . . فكيف اذا مثل عن منه . . على انه كان شديد النضب من يطرح عليه هذا السؤال وبعداته وفاته او اعانته مثل كثيرين من كهول هذا الزمان الذين يشق عليهم ان يعرف الناس مقادير اعمارهم . . وإذا ظهر من احدهم ظهوراً لا سييل الى الكاره يسره ان تظهر استغرايك لما سمعته وتقول له «يظهر انك اصغر سنّاً من ذلك كثيراً» فيبعد قوله تقريرياً له فيبني على حسن ذلك فيه كذلك اطربت مناقبه فذكرت ما تره في الجسم لانساني او توقه في اللم على اثره او ابلاءه في الدمام عن وطنه ١٠٠

كان صاحبنا مرقس من اهل هذه الطبقة وند زاده تمسكاً بظواهر الشباب الصرافة الى ارضه مراراً به واكتساب اعيانهن فكان لا يذخر وسماً في اخفاء علامات الکمرلة واصبح

منذ اصراف الثباب اذا ايضت شعرة في شاريه او لحيته او رأسه زرمها . فلما تکاثر الشيب  
عمد الى الخطاب يسود به « وجيه » وبدلًا من ان يكون الشمر تقليقاً كا خلقه الله يطليه  
بكلس اسود كا تعلی الجدران بالكالس الايپش او يصبه بالمعاقير كاصبغ الجلود او الانسجة  
 فهو يتندع الناس لانه نرمهم من حاله غير ماهر عليه وذلك من قبيل الرياء لكنه مستحسن  
 عند الاكثرین . واكثرهم لونهم فيك مداعجه او خداعاً لاحتدرك وتجنب عشرنک  
وفاته انه يداعجه الناس بخناقه فيه بغيرهم من احواله غير الواقع . - يرههم انه شاب وهو كهل  
وانه اصغر سنًا ما هو کانه مثل عن عمره تکذب مع انه يکره كل انواع الرياه والکذب الا  
الخطاب فانهم يدعونه من قبيل البالغة في اصلاح المندام واول شروع المندام النظافة . -  
وابعد الخابرين عن المندام من يخنف شاريه وينترك شمر رأسه ايپش

على ان بعض الكهول لا يريد بالخطاب اهتم الناس انه شاب وانما هو يکره الشمر  
الاشمط . اما مرقس فاما اراد بالخطاب الاحتفاظ بظاهر الشباب بين يدي عمه ولهذا كان  
اذا احس بالخطاط في قوله لسبعين الاسباب عمداً المتهيات نشرب انذر واکثر في طعامه  
من العوم الماءة والاناوية وتتنشق العطور ولازم الراحة والخلو وعا من بواعث السنن  
فانتفع وجهه وبعضا وجعلت عنقه وتمالى صدره وبطنه فاصبح ثنصر فاتمه  
اذا ليس السراويل والقباء يکاد عرضه يساوي طوله . واذا قرست في وجيه رأيته لا يبرح  
شاحكا مسروراً كان الطبيعة طوع ارادته لايهاق مستقبلًا ولا يرهب قدرًا ابداً . اما همه  
ان ينتفع بالحياة جهد حياته فلا يسره الا عيالة المتهكفين على شاكته وينفر من احاديث  
الجد . بل هو لا يقوى على اعمال المكرة ببراعة بغير ان يليل ويفيق صدره ولعل السبب في  
ذلك نعده الابعاد من الشعب بعد ان انته ذلك الترورة المذلة فاصبح لا يقترب الى العمل  
وكان من جملة ادلة رغبته في الحافظة على الشباب انه لا يصاحب الكهول لانهم يغلب  
فيهم الرزانة والبعد عن المليون والنهنک دكان يعاشر الشان وبالقدم في حرركاتهم وسكناتهم  
في جوالهم ويشار لهم ويؤاکفهم . وكان حديثه طليباً فکهنا يتعلمه کثير من النکت والغاړۍ  
اللطينة فاذا سمع نکته ضحك لها وفقة طويلاً

وكان اسطفانوس من جملة عشراته الشبان وهو في نحو الخامسة والعشرین من عمره  
وكان مرقس عشير ابيه بن قبله - واما والد اسطفانوس فكان رجلًا عاقلاً وحيلاً ذكيه  
المعلم حارزقي في مناصب الدولة حتى صار کابنی المادرافي صاحب المزارج وقال نعده کبيراً  
وجمع ثروة حسنة . وقد احسن كل عمل عمله الا ترية ابنه اسطفانوس لانه کن ضعيفاً

من جهته او لم يل الذئب له بل للنطرة لانك اذا تدبرت احوال الناس في نزية ابا شاه  
فلا رأيت للنزية تأثيراً في ذلك وما هي الا كالقتل للمدن بخلو ظاهرة ولا تغير جوهرو.  
ومهما يكن السبب فقد شب استطوانوس على الاتهام بالملذات والاخلاط الى الرخاء ولم  
يكن مقتراً الى العمل ولا فيه ميل اليه نشأ في عيش سهل لا ماء له الا ماذا باكل  
او يشرب وكان وحيداً لا يليه وله دالة عليه لا يطلب امراً الا ثالثه . وعرف مرقس ذلك  
فازداد رغبة في قرب استطوانوس منه فضلاً عن توافقهما في الطابع وقد استفاد من  
عشرته اغفاء جيارة اخراج عن تحصيل خراج اطيائه عدة اهوار  
وكان استطوانوس يتقارب مع مرقس لتروله وقد شاهد ديميانة من صغرها فاحبها . وكان  
جبيل المذقة مجيئاً بشابه وعند هذه ان الاسنان ناقص متراها بقدار جماله — وقد يصح  
هذا الرعم في المظلة الاولى وربما تدعها الى ما يمدها ما انك ترى اكثر الناس ياخذون  
الامور بظواهرها . وكمن غبي لولا جمال طلاته وشامة شكله ملاك جوعاً ولكنه يجد بين  
البساطه مرزقاً ويائني يائمه من يصفى الى قوله ويائري بامرها . هل زرى الجماعات من النساء  
والرجال والامثل يصفون ويائرون . — كم بين سكان القرى من كهنة اغياه اذا ذكر  
الرعية فـ انهم اسمونك الاطياب بذلك الناتمة الملويلة والوجه الجميل واللحية الكبيرة والكف  
البيضاء السميحة والصوت الرخم او الجھوري . وقد يقتصرون على هذه المسميات فلا يفهمون  
شيء من علم او ادارتهم او تدينيهم . فيبين هؤلاء داشائهم من زعماء العامة جماعات لولا  
خدمة مظاهرهم لما تروا جوعاً

تظهر له احساسها فاذا لم يجدها مجلسه دخلت غرفتها تهلي او تقرأ او تخالس بعض جواري  
القصر من زينتها من صغرها

## الفصل التاسع

### الدعوة

فلا اطل الم ذكر يا على مرقس واصطفاؤس وهو على المائدة قال مرقس « اين كانت  
ديانة .. واما الذي اعاقها ؟ »

قال « كانت في انكوبة تصلي وتتعزف وقد عادت »

قال « ادعاها الى هنا لتناول بعض الفاكهة »

فأشار مطيناً وذهب اليها فراغاً والفة امام المرأة الفضية وهي تبدل ثيابها وتأهّب للرقداد  
فقال لها ان « سيدى يطلب حضورك »

قالت « قل له اني ذهبت الى التراش »

قال « اذا قلت ذلك لا يصدقني لانه راك داخلة .. ولا بأي من جلوسك هنئه  
معه ثم تعتذر بين بالتعامس وتذهبين »

فاطاعتنه والنفت يطرفها وخرجت الى الحديقة فاستقبلها ابوها شاحكاً مازحاً وقال

« لقد حال غيابك في الكببة يا دييانة .. الا تشعرين من الصلاة ؟ »

قالت وهي تجلس على وسادة في طرف البساط المفروش هناك « ان الصلاة تنبذة يالي »

قالت ذلك وابتسمت نبذة اذ ذكر الصلاة

قال « فاذ استغرين كثيراً اذا عرفت انا ذاهبون غداً الى شبرا لحضور الاحتفال

بعد الشهيد » وضحك

فاطرت وفندت من غنة صوته انه يبعث بها ويعرض بحالاتها بالصلاحة ولا سمحت

شوكه قالت « ان عيد الشهيد عيد مبارك وفيه فضل وبركة لانه يبشر بseed القيسان

اذ يلقون فيه الناثر واصبع الشهيد وحالما يدخل في الليل يأخذ مأوه بالبيسان<sup>(١)</sup> لكنني

اعلم ان الاحتفال به اصبح بطيئة لا ترقفي الله اذ يخذه بعض الناس فرصة لاراقة المخدر

والغنم بالشهوات »

فقال وقد ناول نعامة جبريله ودنها اليها « مالك ولناس من نذهب سلفون الصلاة والاحتفال بالغراج الثابوت و ... »  
فتناولت النعامة من يده وقطعت كلـه نائمة « ولكن مثل هذا الاحتفال تزامن فيه الاقدام وتحريك المذاهب ويتسلط الحابل بالنابل فلا يهدى الرأة موطنـاً لتدبـه »



### ديمانة بلياس البت تقرأ في كتاب الصلاة

فنظر اليها وهو يستخف بها تقوله وقال « كانت تحببـنا ذاهـبين لتفـقـ مع الـاعـ والمـامـة ... اـنا ذاهـبونـ بـمـ حـديـقـتنا اـسـطـلـانـوسـ فـي سـيـنـيـةـ صـاحـبـ الغـرـاج ... اـفـظـكـ شـاعـدـها رـاسـيةـ عـلـىـ الشـاطـئـ فـرـكـهاـ وـنـيـهاـ الغـرـفـ وـالـمـاطـبـخـ الطـامـ وـالـنـومـ وـيـخـترـقـ بـهـ البـيلـ فـتـفـ حـيـثـ نـشـأـهـ وـتـفـرـقـ الـازـدـحـامـ وـخـنـنـ فـيـ وـسـعـةـ وـتـنـادـ الـاـنـتـفـالـ فـيـ رـاحـةـ ... ... فيـبـ طـيـناـ انـ شـكـرـ مـدـيـقـناـ اـسـطـلـانـوسـ عـلـىـ هـذـهـ الدـعـوـةـ »  
فـلـاـ مـهـمـتـ دـيمـانـةـ قـوـلـهـ وـعـلـمـتـ لـهـاـ ذـاهـيـةـ مـعـ اـسـطـلـانـوسـ اـسـتـمـاذـتـ بـالـلهـ وـزـارـجـتـ حقـ بـدـاـ التـرـددـ فـيـ عـيـنـيـهاـ ... اـمـاـ اـسـطـلـانـوسـ فـنـذـرـعـ بـشـكـرـ مـرـفـسـ الـكـلـامـ فـقـالـ «ـ الغـوـ يـاـ وـلـايـ اـفـاـ يـجـبـ عـلـيـ اـنـ اـقـدـمـ فـرـائـسـ الشـكـرـ اـذـاـ تـازـلـتـ الـبـيـدةـ دـيمـانـةـ وـرـضـيـتـ بـالـتـحـابـ مـعـنـاـ »  
فـلـمـ يـزـدـهـاـ هـذـاـ التـلـفـ الـاـقـورـاـ وـوقـتـ فـيـ حـيـرـةـ بـيـنـ اـنـ تـقـبـلـ الدـعـوـةـ فـتـقـفـ

بضعة أيام مع اسطفانوس وهو ثقيل على قلبه أو ان ترضاها ولا تأمن ان يلح علىها والدعا  
فتقعطر الذهاب مرغمة فطلت ساكنة فقال ابوها « ما بالك لا تكلمين يا ديميانة السيدة  
مسرورة بهذه السياحة او الزيارة؟ »

فسبقا اسطفانوس الى الكلام وقد نماول الاربعين يده وانخدع بحسب منه المحر في  
قبح من الزجاج المقوش وقال « لا حاجة الى سؤالها فقد قالت انها لا تزيد التهاب «  
وفرغ من الصعب فادفع القبح من فيه وقد ارسل رأسه الى الوراء فاسترق نظرها اليها بين  
القبح وكأنه فراها لا تزال مطرفة وهي تلاهي بالفاقة بين اثمامها وقد غلب الحس عليهما  
حق توردت وجهتها

فتصدى مرسى للجواب عنها ويده اليقى القبح يمدده عن فيه بعد ان شربه واخذ  
يسع باليسري شاريء وفه وقال « كيف فهمت انها لا تزيد التهاب وهي اربعين اسنان  
في الصلاة والاختلافات الدينية ... وكانت تخف الانزعاج فبعد ان علمت بذلك اباها على  
الدعيه كذا كرنا لا اظنهما ترى مانعا ... وفي كل حال فهي تذهب مع ابيها حينما سار  
فادركت ديميانة انه يعرض سلطته الابوبية وانه سيأخذها ورشبت ام له ترض فرأى  
المواقة اليق فاختفت الى اسطفانوس وقالت « خذنني ورفضت التهاب ... ولا رأي لي  
بوجود والدي فاذًا أمر اطعمت »

فبشي لها ابوها وقال « بورك فيك يا ولدي ولكنني لا احب ان اضغط على فكري ...  
فيتنه على ذلك خن ذاهبون غداً على الدعيه ... كوني على استعداد »

### الفصل العاشر

ابو الحسن البقدادي

اما اسطفانوس فاظهر الارتباط وابرقت عيناه واخذ يتصدر ويصالح مجلسه ليستلم  
ال忝امها الى جمال عينيه وعظم هيئته وهي لا تزداد بذلك الا تشوراً منه حتى شافت ذرعاً  
من تلك الجلة وهمت بالنهوض واذا بالمم ذكر باقبل مسرعاً وهو يقول « ان جارنا  
ابا الحسن بعث ويتاذر في السهر عندما »

فلا يسمع مرسى ذلك بفتح وقال « دعه يدخل الى انتزل من الباب الآخر ومحن  
قادمون لملائاته واوقد القاعة الكبيرة بالشمع جيداً »

قال ذلك وهم واخذ يسح شاربة وليته ويصالح هنديه ودما اسطفانوس  
للدخول معه وترك دميانة لذهب الى غرفها من طريق آخر للايراهما الفيف او الجار  
ولم يكن الحجاب يومثد شائعاً عند القبط او لم يك في اول شيوخه . وسيه على امثال  
ان المسلمين كانوا يعجبون لشاعهم عن النصارى كما يعجبون عن سواهم . فلما كانت  
اقامتهم لا تزال في المدن لم يكن ذلك تأثير على القبط . فلما تزلا القرى وجروا  
القطب اصبح القبطي اذا زار جاره المسلم رآه يعجب عنه امرأه وسأله نساء فاصبح  
هو يفعل مثل ذلك اذا زاره المسلم فيعجب اهله عنه . وتنوقل ذلك في الاعقب بتولي  
الاجيال حتى صار عادة شائعة

اما دميانة فلا تسل عن خفوق قليها عند سماعها اسم ابو الحسن وعزمه على الزيارة في  
ذلك الساعة وكانت زيارة نادرة فلما ياني الا انعرض — وتدكرت مقابله سعيداً في  
ذلك المساء خدمتها نفسها انه ربها اني لشيء يتعلق بها واصبحت شديدة الشوق لمعرفة  
ما اذا كان سعيداً معي ابو الحسن . وفدت هنبه تذكر في ذلك بعد ذهاب والدها  
واسطفانوس ثم تحولت من جهة اخرى تطلب غرفتها وهي تتوقع ان ي يأتي ذكرها يطمئن  
بها — فنشافت بتبديل تباليها حتى انى فسألته فقال « لم يات غير ابو الحسن يا سيدتي  
وهذه الزيارة لاسمعة نوس وليس لوالدك فقد سمعت ابو الحسن يقول انه لما علم بوجوده  
استطافانوس بن المعلم هنا في القرية اغتنم الفرصة للسلام عليه »

فاجابت دميانة عتاب شفتها السفل وهي تنظر الاعجب بهمَا واستخفافاً ولسان  
حالها يقول « ماشاء الله ۰ ۰ ۰ ابن المعلم هنا ۰ ۰ ۰ شيء عظيم ۰ ۰ ۰ وزيارة فخر كبير ! »  
فلاحظت ذكرها ذلك منها فقال « لا تستخفني به يا مولاني فان اباء يكاد يكون صاحب  
التفود الاول وليس اكتر ثفوذاً منه الا مادراني صاحب المراج »

فنشافت عن ساع كلامه وقطعت حدشه قائلة « هل جاء ابو الحسن وحده ؟ »

فأباهم وقال « نعم وحده »

فقالت « اراني محتاجة الى الرقاد »

قال « الا تناولين العنا ، ۰ ۰ ۰ هل انتده لك ؟ »

قالت « لا اشعر بالجلوع »

فتركها وخرج

اما ابو الحسن فقد كان كهلاً جليل القدر مع انس ولطف جاء في ذلك الماء

بلباس الـيت عليه جلـية من الحرير المـقطـل فوقها عباـة رقيقة وعلـ رأسه طاقـة حـوـطاـعـة سـفـرـة · وكان مـرقـس وـاسـطـانـاـوس قد سـيـقـاهـا إـلـى القـاعـة وـهـي غـرـفة وـاسـعة مـفـروـشـة بـالـبـسـطـ الـجـنـيـة وـالـسـجـادـ الـجـلـيـلـ وـعـلـ تـوـافـقـهـا سـتـائـرـ من الـدـيـاجـ الـمـطـرـزـ صـنـعـ تـبـيـنـ ماـيـتـدرـ اـقـتـاؤـهـ فيـ الـقـرـى · وـعـلـ جـدـرـانـ القـاعـة صـورـ دـهـنـيـة وـفـي الـوـسـطـ مـشـمـعـةـ كـبـيـرـةـ قـدـ اـنـيـرـ شـعـوـهـاـ وـحـوـلـ الـابـعـةـ وـسـائـدـ مـطـرـزـةـ بـقـرـبـ الـجـدـرـانـ

فـلـمـاـ اـقـبـلـ أـبـوـ الـحـسـنـ خـفـ مـرـقـسـ لـاستـيـلـهـ وـالـتـرـجـبـ بـهـ فـلـمـ أـبـوـ الـحـسـنـ عـلـيـهـ نـمـ سـلـ عـلـ اـسـطـانـاـوسـ وـقـالـ لـهـ «ـلـنـدـ آـنـتـ قـرـيـتـاـيـاـ مـلـمـ اـسـطـانـاـوسـ»

فـقـالـ «ـأـنـ الـأـنـ بـعـوـارـكـ يـاسـيـديـ»

وـدـعـاءـ مـرـقـسـ إـلـىـ الـجـلـوسـ عـلـ وـسـادـةـ قـدـمـاـ لـهـ قـدـمـاـ عـلـيـهـ · وـبـمـدـ اـنـيـادـلـواـ التـجـيـةـ وـالـسـلـامـ مـرـأـأـ قالـ أـبـوـ الـحـسـنـ «ـلـمـاـ لـاـ يـانـيـ الـعـلـمـ حـنـاـ وـالـدـمـ لـنـفـعـهـ بـضـمـةـ اـيـامـ يـسـرـعـ فـيـاـنـ عـنـاءـ الـأـعـمـالـ وـيـسـدـ عـنـ غـوـنـاءـ الـقـسـطـاطـ»

قـالـ وـهـوـ يـشـخـعـ بـأـنـهـ اـنـتـخـارـ أـبـوـالـدـهـ · أـنـ التـوـاـغـلـ عـنـهـ كـثـيـرـ يـاسـيـديـ اـذـ لـأـعـنـ عـلـيـكـ اـهـيـةـ مـرـكـزـهـ وـقـدـ الـفـ الشـفـلـ حـقـ غـدـاـ لـاـيـرـيـ رـاحـةـ اـلـاـ · وـكـثـيـرـاـ مـاـ تـوـسـلـ إـلـيـهـ أـنـ يـخـرـجـ لـلـنـزـءـ فـلـاـ يـرـضـيـ»

قـالـ أـبـوـ الـحـسـنـ «ـوـاـنـتـهـ الـآنـ مـشـفـلـاـ عـلـ الـمـصـوـصـ بـعـابـاتـ الـطـرـاجـ وـالـمـشـورـ

هـذـاـ النـصـلـ»

قـالـ «ـنـمـ · لـاـ اـدـرـيـ مـقـ يـرـغـ مـنـ السـلـ · فـإـنـ كـلـ اـيـامـ الـسـنـةـ شـفـلـ عـنـهـ حـقـ اـنـالـأـنـرـاءـ فـيـ مـنـزـلـهـ إـلـاـ كـادـرـأـ وـإـذـ جـاءـ الـنـزـلـ تـهـافـتـ عـلـيـهـ الـوـجـهـاـ بـيـنـ زـاثـرـ يـسـتـشـرـهـ اوـ صـاحـبـ حـاجـةـ يـتـوـسـلـ إـلـيـهـ اوـ مـتـخـاصـمـيـنـ يـحـكـمـونـهـ · · · قـالـ ذـكـ يـلـعـنـ اـنـتـخـارـ وـيـداـ الـأـعـيـابـ فـيـ وـجـهـ · فـهـوـ يـظـاـخـرـ النـاسـ بـعـكـةـ اـيـهـ وـوـجـاهـهـ وـلـيـ اـهـ غـرـ · خـالـلـ قـدـ يـكـونـ سـيـيـاـ فـيـ ذـهـابـ ذـكـ الـوـجـاهـهـ · ذـكـ دـأـبـ زـيـثـرـنـ مـنـ اـيـادـ الـوـجـهـاـ لـاـ يـضـعـ اـحـدـهـ فـرـسـةـ يـدـخـلـ بـهـ اـسـمـ وـالـدـهـ فـيـ الـحـدـيـثـ وـإـذـ سـنـتـ لـهـ ذـكـ الـفـرـسـةـ اـسـتـأـنـ بـالـجـلـةـ وـأـخـدـ يـمـدـ مـنـقـبـ اـوـالـدـ وـوـجـاهـهـ فـيـقـصـ عـلـ سـامـعـهـ مـنـ تـوـادـهـ وـمـعـجزـهـ مـاـيـشـلـ سـمـهـ وـبـسـرـ تـصـدـيقـهـ وـقـدـ يـتـلـمـقـ فـيـ الـاسـتـمـارـاـتـ إـلـىـ الـنـهـيـ دـيـثـ وـالـدـهـ عـلـ اـسـلـوبـ بـوـهـ بـهـ

الـسـاعـيـنـ اـنـ ذـكـ اـوـالـدـ جـاءـ عـرـضاـنـمـ يـعـدـ اـلـىـ الـقـصـ وـالـأـمـراـهـ · ذـكـ هوـشـانـ سـفارـ

الـاسـلامـ ضـافـ الرـأـيـ وـاسـطـانـاـوسـ وـاحـدـ هـمـ



## الفصل الحادى عشر

### الرب والقبط والترك

وكان ابو الحسن من كبار العقول واسعى الصدر يغوصي عن هذه المصنافات وينظر الى جوهر الحديث فقال « اظلكم تقيون في الفسطاط الان » قال « كنا نعمم هناك لكتنا انتقلنا الى بابلون بجانب الفسطاط لان الفسطاط كثيرة الازدحام ووالدي يحب الراحة في ساعة الرقاد »

قال « لا اظنه ركما من الازدحام فقط ولكنكم تحضرون الاقامة في بابلون لان سكانها من القبط فتكتونون على مقرية من اماكن البداية » قال ذلك وابقى  
فادرك استفانوس اشارته فقال « ان الانسان يقدر ان يميد ويه حينما كان والقبط الان كما لا يختفي عليك في راحة وطمأنينة في ايام اميرنا الحالي »  
فتنهى ابو الحسن واطرق فابتدره مرتق قاتلاً « احمد الله ان الاحوال تبدلت  
وادرك حكامنا المسلمين ان محاسنة القبط اولى »

قال « أصعب ما كان برتبته يمض الامراء المسلمين من تلهم القبط ونكاياتهم كانوا  
باتونه باس الخلفاء او انه من قواعد الدين الاسلامي ؟ كلاماً ان الاسلام لا يأمر الا  
بالحسنى بذلك على ذلك ما كان من رفق المسلمين في سدر الاسلام على ايام الخلفاء  
الراشدين ورحمهم الله وان النبي عليه المصلحة والسلام قد اوصى بالقبط خيراً « واتنا هي  
مطابع بعض الولاة لا يريدون بها التمعص على دين بل هم يتذمرون من ورائهم اهتزاز  
الاجوال » ولو ارادوا بها غير ذلك لما اصحابنا تغصن الشيبة ماتعلمهونه من الاضطرار  
حتى منعونوا وكوب الافراس والظروف من الفسطاط ومحظروا علينا اتخاذ المسيد لا العبد  
او احد واذا كان ينتا وبين احد الناس خصومة قبل قول خصمنا فيما بلا بينة » وسكت  
ابو الحسن وربما بلع ريقه ثم استأنف الكلام قاتلاً « حتى هذا الوالي احد بن طولون فاته  
انه يريد بالمحاسنة مطاماً ل نفسه »

فاعتبرته استفانوس قاتلاً « وكيف ذلك يا سيد ؟ وقد احسن جوار القبط  
ورفع عنهم كثيراً من المظالم فلو كان طائعاً لزواجه او اباها على الاقل »  
قال « ان ابن طولون داعية كبير الغش ومحظمه عن تعلم ودهاء » الاترى انه

لم ينزل في الفسطاط ؟ فلذا . . . بالذات رك قصر الامارة والمسجد فيها ابتي لفسه وجلنته قطاع خارج الفسطاط بجوار المقطم فافق فيها الاموال الطائلة ؟ « فاطرق اسطنانوس ولم يجر جواباً . فاجابه ابو الحسن فائلاً « اعلم يا بني ان ابن طولون هذا تركي الاصل وهذا المصعر عصر الاتزاك . . . وبعد ان كانت الدولة للعرب وكان امراها وقادها من العرب اخذت السيادة تتحول عنهم الى الاتزاك حتى اصبحوا اهل النفوذ والسلطة في بغداد وسامرا و منهم اكبر الولاية والامراء في الاطراف . . . واظنك لاحظتم الخطايا شأن العرب في مصالح الدولة في الفسطاط نفسها . ولذلك اصبح الولاية الاتزاك يمدون العرب منافسيهم ويختلفون انتقامهم فلا يأمنون القيام بهم فاغزدوا يبنون المنازل الحصينة لانتقامهم خارج المدن التي يقيم فيها العرب . . . بدأ بذلك الخليفة المتعمد فخرج بازراره من بغداد وابتي لم مدينته سارساً . . . والسلطان كما تملعون بلد عربية فلا استبد الحكم لابن طولون وعزم على الاقامة هنا ابتي القطاع بين الفسطاط والمقطم مع بعد الماء عنها فاشطر لاتفاق الاموال الطائلة في جر المياه . . . واظنك تعلمون ان حبيبنا سعيداً قد اخذ على نفسه جر الماء الى القطاع وانهيرني ان الامير اتفق في ذلك مالاً كثيراً »

قال مرسى « صدق يا جارنا العزيز . . . والذي لاحظته انا ابضاً ان اميرنا المشار اليه يطبع يا لم يطبع به سواء من الامراء السابقين يطبع بان يستقل بحكم مصر لفسه » فقطع ابو الحسن كلامه فائلاً « فد استقل بها وفهي الامر وغلب على ابن اللدبر صاحب الخراج الذي كان يوم الناس الخسف والشلل وبأخذ الاموال بغیر حساب سجان من انقذكم منه . . . »

قال مرسى « شكر الله على ذلك وينبئي ان شكره على شيء آخر ايضاً كان له دخل وفي تخمين احوالنا وتحقيق الفرائض عنا »

قال « اظلتك تعنى الكنز الذي عثر عليه ابن طولون في الجبل . . . ان عشره على الكنز صد كثيراً من حاجاته فخفف المظالم عن الناس »

قال ابو الحسن « ان المال المذكور خالف الفرائض . . . اما عهانته القبط وتقربهم اليه فسبها رغبته في اكتساب الاحزان لما قدمته من سوء ظله بالعرب فاختذ القبط حرباً له كذلك قل من الشيعة فانه يرى في تعاستهم سياسة ودهاء »

قال مرسى « فهو يعني القطاع اذَا خوفاً من مساكة العرب بالسلطان . . . ماشاء الله . . . شيء هجيل »

فضلك ابو الحسن وقال « والقطط يسكنون بابلون خوفاً من العرب ايضاً . حتى أصبحت قضية هذه الديار الآن ثالث مدن الفسطاط العرب المسلمين والقطط انما اترواك المسلمين وبابلون للقطط .. »

## الفصل المثالي عشر

### الخطبة

ثم سكتوا جميعاً لحظة فاراد مرقس من باب المسيرة والجامعة ان يفتح الحديث فقال « لابي الحسن اظن سعيداً في القطاعات يشتغل بغير الماء ولو كان هنا لزرتنا معك » فاستبشر ابو الحسن لفتح ذلك الحديث فقال « بل هو هنا وقد جاء بالامس واخبرني انه فرغ من بناء العين وصيغة قريباً للارتفاع بغير الماء وهو يتوقع من نجاحه في ذلك تقدماً كبيراً » فقال « وبالذات لم يزورنا معك »

فجعل ابو الحسن ومسح عليه يكده استعداداً الحديث وقال « لم يأت لانه وصل السابة وهو نعم ... وهناك سبب اخر لافتكم، جود حبيبنا اسطفانوس واعرضه لديك ... » فتناول الرجل نحو لسياع ما يتلوه فقال ووجه خطابه لمرقس « لا تخفي عليك مثلك سعيد عندي فهو مع كونه نصرانيًّا قد اخذه صنيع لي واجبه اكثر مما يجب الوالد وهذه وهو كما تعلم ماهر في الهندسة ولم يوجد في مصر كلاماً من استطاع الاقدام على بناء تلك العين سواء .. »

فصادق مرقس واستفانوس على قوله بمحركات الرأس والعينين فقال ابو الحسن يخاطب مرقس « واظنك تعرف سعيداً ... كيف تراه؟ »

قال « اراه شاباً جيئلاً وهو ماهر في الهندسة ويجهه كل من عرفه »

قال « هل تجهه انت؟ »

قال « كيف لا اجهه »

قال « بناء على ذلك وقد قلت لك اني بيتزلاه والده فقد جئت بالزيارة عنه لاتنسى مك

امر ارجو من الطيب استفانوس ان يساعدني في الحصول عليه »

فخنق قلب أسطفانوس لانه ادرك الفرض لصالوب ولكن نظره بلا جابة وقال « ان طوع امرك ياسيدى »  
قال أبو الحسن « جئت اخطب اليك ابنتك ديميانة الى حبيبي سعيد فهل تختلي  
وتركني طلي ٤٠٠ »

فوق ذلك الطالب وقوع للاء الحرار على بذنوبها واجفلوا سكت أسطفانوس اما مرقس  
فاجاب جواباً مبتداً وهو يظهر الجاذبية قادرك ابو الحسن اشطرابه وتردده ولم يفهمه  
مسمعه من الجاذبية لانه قرأ الانكار في عينيه واكتفى بالحفظة - واعمل الاحسان يقرأون  
الفكر في خلال الانكار وبعدهم يدرك مرادك قبل ان تتكلم « وكان ابو الحسن من هؤلاء  
فأقبل بخشل مهمته لكنه تجاهل وقال « أنا اعلم ان الجواب على سؤالي يقتضي تروي  
ونظرأ قاموا لك وبئنا نتضرر فيه »

فأحس مرقس عند هذا الاعذار كأنه كان في السجن وافرج عنه ولو كان فيه  
شجاعة أدبية لقال له « إنها خطيبة » اذ قد سبق ووعد أسطفانوس بها ولكن استغل  
التصريح وصبه خشونة فلم يسمع كلام أبي الحسن ابتسم وقال « طبعاً سانظر في الامر  
وأذني بقدره الله يكون »

واسرع ابو الحسن حالاً الى تغير الحديث فات�回 الى مواشيه مختلفة ثم وجه خطابه  
الى مرقس قائلاً « ارجو من فضلك يا جاراً المزّر ان تساعدني على الحبيب اسطفانوس  
فالي احب ان يزورني بزيارة وان تفضل انت معه »  
فتصدى أسطفانوس للجواب قائلاً « اشتراكك ياسيدى » كثت اود ذلك من سيم  
فابي نولا اني عاذ غداً باكرأ »

قال « الى اين ؟ لقد تمجلت الرجوع وانت لم تأتني الا الاغاثة »

قال « نعم جئت لا آخرن المعلم مرقس معي واعود »

قال « تأخذه ؟ الى اين ؟ »

فضحك مرقس وقال « لا تخيف .. ليس الى الجن ولا الى الصلوة »

قطع اسطفانوس كلامه قائلاً « يعنى الى الصلوة .. الست ذاهباً لحضور عيد الشهداء »

قال « انا ذاهبون لحضور الاحتفال ولا يأس من حضور الصلوة »

قال أبو الحسن « اظنك فاهين في هذه النهاية .. مشاهدة الاحتفال الآتي في  
ليل اليل »

## الفصل الثالث عشر

عيد الشهيد

فرأى استفانوس من الأياقة أن يدعوه لمرافقهم فقال «أن منظر الاحتفال في الليل يوح جداً فهل تفضل وترافقنا في هذا السفر؟ وهذا الاحتفال مع كونه نصراً فان للمرسيين على اختلاف أديانهم يشتكون فيه لا، بالحقيقة احتفال وطني ٠٠٠» فاستغرب ابو الحسن قوله وقال «هل هو عيد شم النسيم او التبروز او فتح المطلاع حتى يكون وطنياً ١٠٠»

قال «كلا ولكنك يحدّد وطنياً باعتبار ان الاحتفال به خلف احتفالاً وطنياً كان شائع في مصر قبل دخول العرب هذه البلاد ٠٠٠ اذنك تتسم بضجة الليل الفتنة الجوية التي كان اسلاماً يزفونها الى الليل ويماقونها فيه كل سنة استدراراً ملائكة ٠٠٠» ففاجأه ابو الحسن قائلاً «نعم سمعت حدتها ولكن المسلمين ابطلوا هذه العادة على ما اعلم»<sup>(١)</sup>

قال «نعم ابطلوها ولكن القبط ما زالوا يختلفون غضب الليل اذا لم يرثوا اليه شيئاً فابدوا الضجيج المشار اليها باجمع من امام شهدائنا الاولين تلقى في الليل كل سنة قبيل فيضانه فيختلفون بذلك في الامان من بشس ويشعرون الاصبح في تابوت يلتونه في الليل فيأخذ بالزيادة من ذلك اليوم ٠٠٠»<sup>(٢)</sup>

وكان ابو الحسن مطرقاً يسمع فلما فرغ استفانوس من وصفه اظهر السرور بما استفاده واجبه انه كان يود ان يجيب دعوه ويرافقه في تلك المشاهد الجميلة ولكنه يجب البقاء في المنزل اكراماً لسعيد لانه قادم من سفرو رحباً سلق بهم بعد حين الى ان قال «واذا لحقتنا بكم تعرف دهبيتكم من رايتهما اليست هي رواية المادراني»

لخاف استفانوس اذا الح في الدعوة ان يرافقه في الذهبية وربما جاء سعيد منه وقد اصبح لا يطبق روایته غيره منه على ديماتة فاكتفى بقوله «نعم هي المادراني وارجو ان تلحقونا بنا فيكون حظنا كبيراً» وسكت واتبه ابو الحسن بعده انه اطال الملاوس قبل المشاء فاعذر واتصرف . ولما خلا استفانوس برقس نظر اليه نظرة استعطاف واستغفار فضمك

(١) اقرأ رواية ارمانتونة المصرية (٢) المتربي

رسوس وانتحل هذه الرصمة وسيلة لاظهار تفضله على اسطفانوس وقال « لا تحف باعزبizi  
ان ديميانة لو طلبها ابن طلوبن وكان نصرانياً لما سمعت بها لساواك »

فاثنى اسطفانوس على تفضله وحسن رايته فيه ووضع يده على كتفه وضع تحبب كانه  
يحاول ضمه وقال « بارك الله فيك يا أخا الرجال ... ان والدي طالما اثنى على المتنك فضلًا  
عن العلائق الوردية الفدية بين عاليتي »

ذاعتش مركس ذكر والد اسطفانوس فقال « ولكن والدك العلم حنا ينسى القديم ولا  
يذكر الا الجديد ... قد سررتنا كثيراً بقدمه في ديوان اخراج حتى أصبح كابياً للأدارافى  
ولكن سرورنا قل افاده ولا هو افادتنا ... »

فعلم اسطفانوس انه يمرض يأمر برؤسه من ايه فقال « لا تظن والدي ينسى اصحابه  
ولا اظنك نسيت تخليه عن البقايا التي كانت متأخرة عن فريتك من ايام الظلم »  
فقطع كلامه وقال « انه فعل ذلك يامر ابن طلوبن كما تعلم ... على اني لا اشك بان  
والدك لا يذرخ وسيلة في الخفيف عنا ... ولي عنده ملئس لا يكتنه تباً ما فيه  
وافت آخر »

وكانت مكانة وهو خارجان من القاعة بعد ان ودعا ابو الحسن عند بايتها الآخر وكان  
الخدم قد اعدوا الطعام قوضعوه على المائدة حملها على واپنر ورج ابي الحسن من القاعة فقدم  
المديقان ساعة اخرى في الطعام والشراب وذهبوا الى الفراش

## الفصل الرابع عشر

### الصعود في النيل

ونهض اظدم في صباح اليوم التالي يهبون الفاكهة واللحوم والخضار والفسور  
لتتحمل الى المعبية تنفق في انتهاء السياسة في النيل ... وصعود النيل في ذلك النصل (الربع)  
جيئ جداً لأن السفينة تجري فيه هادنة لا يزعجها ثورة ولا يذكر ركابها رائحة البر الملح  
فلا يخافون خطراً ولا دواراً يقضون نهارهم ينتظرون ظاهرة الطبيعة ... فإذا توسموا النيل تعمروا  
بنظر الفترين وما وراءها من السهول الملونة بين خضراء وحراء وصنفوا باختلاف حال  
الزرع من درجات التلو او الفرج ... وإذاجاوروا احدى الفترين استأنسوأثاره بائن السواني

وخوار ثورتها وطوراً يعاه الماعز يسرح في بساتينها ولونة بقناة القنان الذين يغفرون الماء  
بالشادوف يقع كل منبم الماء على حركات شادوفه . وترى هنا غلاماً راكباً حماراً يسوق  
امانه يقرأ ومتلك رجل يسوق بميدرا ويترض منظر السهول الخضراء كبار الشجر وأكثرها من  
النخل الباسق كأنه مظللات متروسة في الأرض او هي كما وصفها الشاعر بقوله:

والليل منظر مبيبٌ ترتع من جماله التلذبُ  
فوق الشفاف ظلها رهيبٌ صنعاً يصف زيتها الترتيبُ  
من كل جبار عظام القدرِ  
تحسها مردة طوالاً تحت مظللات زعت جالاً  
في الليل جاءت تبني انتسالاً سحرها البيل فلن تزالاً  
واقفة هنا يفضل السحر<sup>(٤)</sup>

ويزيد منظر الثنائيين جلالاً ونفخة في الليل ولا سيما اذا كانت الليلة مقررة وقد  
هدأت الطبيعة وسكتت الرياح وادت الطيور الى اوكارها وتذكرت اشعة النمر على  
سطح الماء كما وصفها ذلك الشاعر بقوله :

والليل يجري تحتها غربيراً تهزنا موجاته مسروراً  
كما تهزه خلاة سريراً قد نام فيه حلتها فرييراً  
في مامن من عاديات اللعر  
والبلدر يأتي وجهه في الماء سبائكاً من فضة يضاء  
تلمع اذ تزوج بالمواء كأنها الريوف في الميجاء  
ما بين كرنـ داثـ وطرـ

وقد يشكّل الليل في بعض الاماكن حقائق تألف منه غابات غمة تختفي فوقها  
الطيور وتختلطها اكون الفلاحين

ناهيك بما يقع عليه بصرك من الاية الثانية من قيام القراءة واكتئابها في الصعيد .  
أما الصاعد في السقيمة الى النقطة الثالثة بل يقع بعد من ذلك لآثار الا دلي الاهرام  
الكبيري . تسير الذئبة نهاراً وترسو ليلاً ولا سيما في الربع الذي يكون الليل في معظم  
الاختفاء وفي قاعده محظوظ يعرف الريان ، واصناعها في النهار ويعيش ان يخدعه بصره لوز  
نحوه ذاكرته في الليل الا يزورون في الليل الاتهار

(٤) من قصيدة في وصف من لبابي مصر لاباس فياض

قفى وكاتب دهية المادرانى أياماً في طرقهم من قرية طاء الغل إلى شبرا وقد باطأوا عمداً حتى يصلوا إلى الاختفال في أيامه . وكانت يغتسلون بمناظر الصفتين على نحو ما ذكرنا الا ديميانة فقد كانت تفاصي معظم نهارها متفردة تصل اوتندس وزكرياتوس إليها ويزورها وقد نذرت على عجيتها وفضلت أن يقضب والدها يوماً أو يومين ولا تحمل نفسها ملا طاقة لها به من تكفل بالاعطف والمسايرة على العلام أو في غرفة الكلام . وكانت قد نسبوا في الدهية مظلة جيبة فرشوا أرضها بالطاقس وزينوا جوانبها بالغراس الرياحين والأزهار يجلسون فيها بالمحدث أو الشرب أو التفكه او غير ذلك . فديمانة لم يجلس هناك أبداً ولم يظهر ذلك غريباً لدى أيها لامه تعود ان يراها متفردة في البيت تقصي اوقاتها بالصلوة او القراءة او تشغل نفسها بامور بيته لا تهمه . أما استطوانوس فكان لا ينخر وساً في اجتماعات قليماً يتقطط ما يجيئ في خاطرها تارة بتقديم الفاكهة او الزهور واتنة باستهانات اتبعها الى منظر جميل او موقف غريب لمه يسمع منها تحبيباً او تعلقاً او كلاماً تدل على وقوعها في شرك جاهله او الافتتان بمحدثه او ذكائه او الالعجاب بتصرفاته او وغزوته . وكان يحب ركوبه في دهية المادرانى يكنى وحده لرفع مركبه في عيون الناس . ولو كان من اهل الشعور والاحسان لأدرك من اول مقابلة أنها لا تشقيق رؤيته

طاء الغل والقرغانى : نبهنا رصينا جرجس اخندي فلانوس صاحب الجلة القبطية في مقالة انتقادية نشرها في الجزء الثامن من السنة الثانية لمجلته . الى انت طاء الغل الوارد ذكرها في هذه الرواية بالصفحة الاولى السطر الاول هي حشام الواقعة في مديرية الدقهلية وقد قلنا انها في القرية سهواً فشكروه على ذلك — أما ملاحظته عن تسمية الابساط غير الملائكة باليعاقبة فقد جاريها بها موسيى العرب وغيرهم من الكتاب القدماء . وكذلك ملاحظته على اعتراض ديميانة فقد ذكر ان الاعتراف منه بعض البطاركة وأنه كان نادراً في ذلك العصر فندره لايتنى وقوته لمعبأة بين يدي قيسس قرية ابيها وخصوصاً في رواية غرامية لا يطلب فيها التحقيق . وقد ذكر ان ابن الكاتب القرغانى سمي بذلك نسبة الى فرغانة احدى قرى مصر وليس نسبة الى احد اساتذة المسلمين الذين اخذ المندسة عنهم كما ظلنا فاذا كان قوله مبنياً على نص تاريجي صريح عوئلاً عليه والا فلا تزال المسألة محتملة ووجهين . وفي كل حال اذا نشكر لفلانوس اخندي عدائه في الانتقاد خدمة العلم والادب وزرعي اليه ان يزيدنا انتقاداً فتزیده شكرأً وامنهاناً اذ ينأى من عبارته واسلوبيه انه اتفاقيس خدمة الحقيقة بلا زل ولا وجز جزاء الله خيراً . والانتقاد لا يخلو من فائدته في كل حال

ولازم يزيد عشرة ولو اطعمت الناطف أحياناً عملاً بابد العشرة او احتراماً رأي ايها  
فقد كان عليه أن يشعر بنورها ولكن احساسه كان قليلاً

## الفصل الخامس عشر

شبرا

أطل ركب النعية على شبرا في ظهر يوم سنا جوه فلم تقع ابصارهم الا على خدام  
مضروبة واعلام منصوبة وبين ذلك شجر الخيل ينطح السحاب على ضيق اليل وفي  
الجزر يشمها • فاغتنم استطوانوس تلك الفرصة وتقدما إلى ديميانة وكانت مشتعلة بذاتها  
واقفة قرب السارية تتلامي بما يقع عليه بصرها في المنقتيين معاذراً ان تاتني به او يقابل  
وجوهاً وجه فراراً من ساع حديثه فلما ورأته يمشي إليها استعادت بالله وقد علا وجهها  
الاحرار فنلاحت بصلب معلق في عنقها كانت شديدة الحرس عليه لامه هدية من بعض  
راهبات دير العلاقة كانت قد زارت طاء الغل لجمع التدور وأهدتها إليها وهي متقدمة  
القدامة والكرامة • فلم يبال استطوانوس بارتباً كها او لمه حسبها استحق من مقاباته  
كما يستحق الحبيب من عبيه • واغتنم انفرادها عن سائر اهل السفينة ليطارحها الغرام  
وأنحب ان يتدرج الى ذلك باسلوب لطيف فقال « لا ادرى أهنت بهذه الصليب ياديميانة  
او اهته ياك »

فهمت مراده واغتنمت خطأه لوبخه فقالت « ابتل هذا الكلام يخدتون عن صليب  
السيد المسيح »

قطنها تداعبه وتطلب زيادة التصريح فقال « لا اعني صليب المسيح وانما اعني هذا  
الصلب فإنه تال مقاماً يخسر عليه كثيرون » قال ذلك وتهده وقد ابرقت عيناه ووقف  
يتوقع جوابها

اما هي فنوردت وجناتها وشق عليها ما يجعل في حاضرها فارادت ان تغير الموضوع  
فقالت « بالحقيقة التي لم اشاهد احتفالاً مثل هذا » ووجهت نظرها الى تلك المضارب  
فلم يشعر يا ينطوي عليه هذا التغيير من الاحتقار وسر لانها فتحت باباً الكلام فقال  
« انه احتفال باهر ولذلك احببت ان تختبريه بفتحت في خدمتك بذهبية صاحب المراج

ومنزل بعد قليل في فساطط نصبوه لخاصتنا ... الا ترينِهُ بين يدي تلك الجريمة الكبيرة؟ « وأشار يده إلى شجرة كبيرة أمامها صيوان ثمين نسب يباصر عالم يشهي العلم المخصوص على السفينة

فعلم ديميان أنه صيوان المادراني وشق عليها التزول فيه مع اسطفانوس وفي تكره رفقته وتلم فرق ذلك أنها ستقلاق هناك ماتكرهه من موائد المدام وإباريق الراح فقالت وقد بدا في وجهها الاشتئاز « لا ... لا ... اسمح لي ان لا اذهب ... » فابدرها قائلاً وفي صورته غنة العتاب « لا تخافي ياديميانة لست ذاهبة اليه وحدكِ فان بذلك ذاهب معنا »

فرفعت كثنيها وعزمت رأسها إشارة الرفض ولم تكلم

فلم يكتفى الشاب بذلك فقال « وان كنت لا تصدين فالساعة يأتي صدقي والذك ويقول لك ذلك »

فتراجع عن والتقت الثنات من سمع صوتاً استلهلت انتبه له فرأى العم زكييا فادماً فجراها وهو بهم ان يكلها فتوجهت إليه بكليتها فإذا هو يقول لها « الا تزالين عازمة على زيارة هذه الكنيسة يا مولاتي؟ « وأشار إلى كنيسة في شبرا نفسها يختلفون بالخارج السابوت منها كل عام

ففهمت انه ينتحل وسيلة لتخليصها من اسطفانوس فقالت « كثيراً ما اشتهرت زياراتها والبشك بها ولا سيما في مثل هذا الاحتفال »

قال « ان السفينة لا تثبت ان ترسو عند الشاطئ وقد استأندت مولاي والذك في الاخر »

قالت « لقد احسنت يا عمه » ومشت في أرجاء البديل ثابتها وترك اسطفانوس على ميل البحر وقد احسن « أنها تعمد انتشاره فكظم ما في نفسه وذهب إلى مرقس فقص» عليه ما قاله ديميانة فقال « وهل سألك ذلك؟ ان بعدها في مثل هذا اليوم نعمة لافت وجودها معنا في النساطط لا يوانق هواناً ... العلا جتنا حضور الصلاة؟ وهي لا يلد لها ان تغسر موائد الشراب - دعها تذهب لصالتها وغضن نذهب إلى مجلس انسا وجماع النساء والقرب على العود والنفح بالزمار ... انه يوم نادر المثال فلا ينبغي اشاعته »

فلم يخبر اسطفانوس جواباً ولكن قلبها ما زال يتقد غيظاً ... أما مرقس فظاهر انه كان يود ان تراقه ديميانة فتحول إليها فرأآها قد تزملت بطرفها ولقت رأسها بخمارها ووقفت

تنتظر وقوف السيدة فلما رأته توجّهت نحوه احتراماً له فابتدرها فائلاً «يلهني انك ذاعية الى الكنيسة مع ان صاحبنا استطافلوس قد اعد لانا فساطاً خاصاً جلوستنا»  
قالت «اني افضل التهاب الى الصلاة الان وربما وافيتكم في المكان الذي تبينه»  
قال «لا احب ان الجلوك الى امر لا تخفيه» .. افعلي ما بدا لك .. ولكن متي نوغرين من الزيارة؟»

قالت «لا ادري الان ولعلني آتكم غصون الغروب»  
 فقال «حسناً .. وانا مطمئن عليك لوجود العم زكر يا معك .. سيري بسلام»  
 قال ذلك وتحول الى صديقه

## الفصل السادس عشر

فرحت دميانة بالنجاة ووقفت تنظر الى ما هناك من القوارب والحرافات الساجدة في النيل على عرضه وفيها الناس زرارات ووحدات وقد مدّت فيها الموانئ للطعام والشراب .. وما من حرفة الا وفيها اوعية الخمر واطباق الفاكهة .. وقد تزاحم الناس رجالاً ونساء من اصحاب الملاوي وارباب الملاعب والمخشين والظفاه وعلت خوفاهم وفيهم المتردّون والمنجنيات والراقصون والراقصات وقد خلّع بعضهم العذار وعنهوا برفع الملابس .. كانوا يرتكبون في ذلك الاختفال انواع القصف ويجهرون بما لا يتحمل من المكرات حتى ثور القلن وتفقد النساء ويعان من الخمر خاصة في ذلك اليوم يا يهيف على مائة الف درهم او خمسة الاف دينار .. وقد ذكروا ان واحداً باع في يوم واحد باثني عشر الف درهم فضة من الخمر .. وكان اعتقاد فلاسي شبرا دائياً في وفادة الخراج على ما يبيعونه من الخمر في عيد الشبييد<sup>(١)</sup>  
فيجتمع في ذلك الاختفال عالم عظيم برًّا وبحراً لا يحصّهم الا خالقهم بعضهم في القوارب والحرافات والبعض الآخر في القيام  
وما زال ربان الدهيبة يزاحم القوارب والحرافات والناس يوسعون لها لانها حرقة

صاحب اخراج حق دلت من الشاطئ، وقد مالت الشمس نحو الاصيل فتسارع البحارة الى  
النزال الركاب

وتأهبت دميةنة للنزوول واذا هي تسمع بعض الناس يقول «هذه سفينة الوالي  
انظروا نظروا ... انها سفينة ابن طولون؟»

فلا مممت ذلك اجهاث والفتت فرأيت بقرب الشفة الاخرى من البيل سفينة  
غريبة عرفتها هي التي يعنوها لكنهما لم تشاهد عليهما الراية . وندكرت علاقة حبيبيا  
سعید بابن طولون فقالت في نفسها الله على ظاهر هذه السفينة و اطالت النظر اليها ترجو  
ان ترى ما يدورها على ذلك ظلم تستطع تمييز شيء ولكنها مممت الناس ينظرون استغراهم عجيء  
هذه السفينة وهم بين مستحصوب ومحظى و لم تتبه دميةنة الا والعم ذكرها بناديها ان تنزل  
قنزات وتوجهت وهو مما لم يخالك عن الالتفات الى تلك السفينة فرأيتها الغرب غواصا ملائى .  
فوقفت تنظر اليها فرأيت دميةنة المادوانى تهقر الى الوراء تحلي مكاناً لشلك ترسو فيه فترجع  
لما انها سفينة الوالي وان لم تشاهد العلمل عليها . واستطاعت ولوها فاسفريت ومشت خفر الكنيسة  
فتشى ذكرها بأمامها وهو يوسع لها الطريق بين الباعة وأهل الشمودة والفووغاء فقطعت  
مسافة طوبية بين الحيلان وقد تصاعد الفبار وعلا الصنجج وهي معلقة لا تانقت يومياً  
ولا شباباً حتى وصلت الى الكنيسة وقد تراحم الناس في حمّه وقل يدتهم من جاء  
لزيارة او الصلاة . اما هي فازالت سازة حتى دخلت الكنيسة وما بثت ان تنسى  
رائحة البخار الممزوج بدخان الشووع حتى انتشت وتحممت فاستفدت عن الصلاة من  
تكون قبيل لها ائم يبدأون بها غلو التروب وسيتولى رئاسة القدس استق  
السلطان وكان من كبار الاصناف وقد عهد اليه ان يترأس القدس هناك لقبه من  
شيرا ففرحت دميةنة بذلك لأن القدس سيكون فيها

واجت ان تفتن ماعة الانتظار لشاهدة الدايمون الذي فيه اصبح الشديد  
قتيل لها انه موضوع في حجرة مقلوبة بجانب الكنيسة لا يتجزأه الا في حينه فاكتفت  
بالصلاة تشغل بها نفسها حتى يبدأ الاستفادة بقداسه فخولت الى ايقونة ولادة السيد المسيح  
واخذت تصلى بحرارة وتطالب ما تشعرها في حاجة اليه وفي لا تحتاج الى شيء اشد من  
 حاجتها الى التخلص من الشرك التي نسبت لها فتوسلت الى الله ان ينذرها من اسطفانوس  
لانها ترى من تفوه قلبها انه ليس النصيب الذي اعد له

## الفصل السابع عشر

### الدهشة

كانت تعلي وتنصرع ولا يأبه أحد إليها لاشتغال كل واحد بشؤون نفسه والغمز كربلا  
قاعد في بعض جوانب الكنيسة بجحث يرى دميانة و يشار كبا ياحساسها وان لم يسمع  
فوطا فإنه كان مطلماً على مكتنونات قلبها كارايت - وهي مستقرة في نصراعتها سمعت  
سعالاً ابتلها لانه وقع في اذناها وقوعاً نبه عواطفها واستلقت قلبها فحوت وجهها إلى جهة  
السماء رغم ارادتها فرات سعيداً مقبلاً شعورها خارجها دقات قلبها وتوتها الدّهشة  
واعصّلّكت ركبتيها وتوهمت أنها ترى ذلك في الحلم لأنها لم تكن تتوقع قدوم سعيد في تلك  
الساعة . فلما وقع نظرها عليه ابصّرت وقت لا تدرّي ماذا تفعل

اما هو شئ شعورها وهو يرسم ويقول «اظنني ازعجتك يا دميانة .. ساحبوني »

قالت « لم تزعجي يا سعيد ولكنك ادهشتني بهذه الالقاء على غير انتظار .. العنك ابـتـ  
حضور قداس الاسقف ؟ »

قال « واي استـقـ ؟ .. كلا وانا جئت لا راك »

قالت « جئت لترافق ؟ .. من اباك افي هنا ؟ »

فنهض وقال « علت من وقوف سفينة المادراني بجانب قريئكم ومن دعوة ذلك الشاب  
حضور الاختفاف بعد الشهيد »

فادركت ان ابا الحسن اخره بذلك بعد قدومه الى بيت والدّها في تلك الليلة . وعلت  
ان سعيداً لم يوافها الى هناك الا غيرة منه عليها فانبسطت نفسها واحتست بزيادة ميلها إليه  
 فقالت « وكيف ابـتـ ؟ .. هل تنوـي البقاء هنا الى صبح الغـدـ ؟ .. وابـنـ اـنتـ مـقيمـ ..  
وكيف .. » وتلطم لسانها من شدة الفـرـحـ

فقال « ابـتـ في سفينة الـوالـيـ اـحمدـ بـنـ طـولـونـ »

قالت « ان قـلـبيـ عـلـىـ ذـاكـ مـنـذـ رـايـتـ تـلـكـ السـفـيـنةـ .. .. .. وهـلـ ابنـ طـولـونـ فـيهـ ؟ »

فاطرقـ سـعـيدـ وـسـكـتـ لـحظـةـ ثمـ قالـ هـمـسـاـ « هوـ فـيهـ لـكتـهـ لاـ يـنـويـ الـظـهـورـ لـلنـاسـ وـقـدـ  
اوـصـانـيـ انـ اـكـتمـ جـهـيـهـ لـانـهـ جـاءـ بـنـاءـ عـلـىـ تـرـغـيـبـيـ فـقـدـ دـعـانـيـ فـيـ هـذـاـ الصـبـاحـ لـيـكـلـمـيـ بـشـانـ  
الـعـيـنـ وـالـاحـفـالـ بـعـرـرـ المـاءـ إـلـيـهـ ذـكـرـتـ لـهـ الـاحـفـالـ بـعـدـ الشـهـيدـ وـمـاـ يـجـرـيـ فـيـهـ مـنـ

الغائب ورفيقه في مساهدته ليلةً فرضي واركبي معه على ان يتبعه ذلك مرأةً فلما رست  
بها السفينة امتازت به في زيارة الكنيسة وربما يخفي الليل ويبدأ الاحتلال فجئت ومررت  
بالقططاط الذي كنت احبك فيه فرأيت والدك وصاحب في زمرة من الشاربين والذين  
فلم يعلمك اتيت الكنيسة فجئت كما ترين .. .

قالت «انها منة لا استحقها .. فاذًا انت باق هنا الى الصباح؟»

قال «سابقي في السفينة عن بعد .. كيف انت الان؟»

فياج سؤاله اصحابها فاطرق وتهدت وارسلت دعمنين رآها سعيد تندحرجان على  
خدمها فاحس كأنهما جذوتان وفتحت على قلبها فقال «ماذا ارى؟ .. ما بالك .. ما الذي  
يكتنفك يا ديميانة؟ .. » وادرك سبب يكتنفك فاستألف الكلام قائلاً «الختافي .. اذا  
كنت كما اهدتك لا خافي .. ان ذلك الغلام يرجع القهقرى كما رجعت سفينته امام  
سفيني الليلة .. ان المكان الذي اضع قدمي فيه لا يستطيع هو ان يائمه .. .» قال ذلك  
وابات في حميات امارات الارجعة والاقفة

قلب عليها الاعجاب به ولكنها ما زالت تخاف اباها فاقبضت نفسها .. على انها  
اظهرت الاطمئنان وقالت «انت ذاuber الآن .. راجع الى السفينة؟»

قال «لا بد من ذهابي قبل الغروب .. الا اذا امرتني بالبقاء لامر خافتني فابقى  
ولا يهمي رضي الولي او غضب»

قالت «اما يفاؤك معي فهو غایة مرادي كما تعلم .. » وتوردت وجنتها وانت  
الحديث قاتلة «ولكنني لا أريد ان تتعجب ابن طولون وهو الذي قدمك ورفع منزلتك  
ولكنني ... .. وسكتت

قال «انفسين بعدي عنك يطول .. انا لا نلت ان نختنق احتفالا بغير مياه  
العين هذين اليومين حتى نختنق ويكون اجيئانا دائمًا ان شاء الله .. هذا اذا كانت  
زوجين ذلك من صميم فؤادك»

فتهدت وقالت وهي تتفقد سوتها للا يسمها احد من الفوغاء «تسألني اذا  
كنت اريد ذلك؟ هذا امر لا اجاوب عنه .. سل قلبك بذلك عليه ولكن ماذا افعل .. »  
وشرقت بدموعها

فادرك غرضاها فقال «قد علمت مرادي .. اما هذا المقرر الذي يطالعاليك  
فاذاكنت ثابتة على المهد ورجع بمحني حنين ومهما توهم من طول باعه بواسطة صاحب

الظراج فان صاحب مصر أطّول باعاً وأبعد قوداً ٠٠٠ وهذا يكفي  
وهما في ذلك رأيا الناس في هرج فالتفت دميانة فرأى الم ذكر يا مصر عاً نحوها وهو  
يقول « ان الرجل آت »  
قالت « ايي رجل »  
قال همساً « اسطفانوس »

فلما سمعت اسمه تراجعت وامتنع لونها ونظرت فرأى اسطفانوس داخلاً وهو  
يتايل ويزع الناس يده يعني مثيبة الخلاة بفقت حتى كاد الدم يجمد في عروقه آخرقاً من  
عافية ذلك اللقاء وسعيد حاضر

## الفصل الثاني عشر

### عواقب الذل

اما سعيد فلما نظر لها واخترابها فهرب في الجية وعم على التفاني في الدفاع  
عنها فتقدما حتى وقف حيث يترى اسطفانوس اذا تحول نحو دميانة وقد نارت الاربعية  
في حق كاد الشرار يتغطى من عينيه وبعد هنمية وصل اسطفانوس وهو يترنح من الكسر  
ولما وقع نظرة على سعيد في تلك الحال طار سكره وتارت الغيرة فيه وأخذته المحبة  
ويتصبب ايده بعد ان رأى الناس يوسعون له ويعززونه فشارى الى سعيد ان يتحول من  
طريقه فلم يجيئه فداء يده وهم ان يزيمه من الطريق وهو يقول مخاطباً الم ذكر يا بانهار  
« ما هذا الوقوف هنا الى الساعة ٠٠٠ ان مولاك ينتظركا وقد غربت الشمس »

اما سعيد فلامرأى يد اسطفانوس تمدودة اليه دفعها عنه بعنف فتفقير اسطفانوس  
حتى كاد يقع على الارض وعظم ذلك عليه في مشهد من الناس فعاد اليه وقد اشرع يده  
كانه يهدده وقال « ما هذه الواقعة ٠٠٠ اي لا اخاطبك ؟ امش في سيفك »  
دفع سعيد يد اسطفانوس عنده وقال « امش انت ٠ عد الي مكانك حتى تفرغ من  
سکرک »

فاكب اسطفانوس هذه الاهانة و مد يده الى جاته كا انه يحاول ان يتسلل خجراً فأقيمت دره  
سعيد بالطمة على خده فدار دورة وقلب على قياء وسمع لوقوعه صوت استلفت انظار

الجبار فارتبت ديميانة ب نفسها و خافت و قرع الفتة و امسكت سعيداً بيده و توسلت اليه ان يتركه و يعني لسيله خوفاً من الفضيحة فقال « لا خوف عليك ان المسألة لا دخل لها سك » و قدم الى اسطفانوس وهو يتسلم للقيام و اراد ان يدوسه بقدمه فهات الناس و منهم من يريد الدفاع عن اسطفانوس لوجاهته ولا يمرغون سعيداً فاراد بضمهم ان يردد فصاح سعيد « ارجعوا واقفة لولا حرمة هذا المعبد لارقت دماءكم على بلاطه »

فلما رأوا منه الشدة تراجعوا و عدوا الى الين و كان اسطفانوس قد نهى ورجع الى رشده و ادرك عزيزه عن مساواة سعيد فلما جاء الى الحيلة فحول عنيبه الى عناب و وج خطابه الى سيد قاللا « اي لم اكلك فلماذا ترمي على » ٠٠ ان والد هذه الفتنة استبطأ غيايا فلما فكر في ان استدعها فكانك ظنتني اريد بها سوءاً فاخفيت الفبرة عليها لانك جاز ايهاع على ما اذكر تكررت لي ؟ ٠٠

فلما سمع سعيد تحيله ورأى حيث ازداد احتقاراً له فقال « مما يكن السبب فان مثلك لا يليق ان يأتني بهذه الهمة وهو متمنع من السكر » فلما كان والد الفتاة يطلبها فلما هن لاستدعها وانا واقف هنا في خدمتها حتى يصل »

فضحك اسطفانوس جيناً و رواه وقال « كانك لم تصدق قوله . اسأل الله ذكر يا فاتح يمرغى ٠٠ ثم اتي بهما اخاطب السيدة نفسها و انا خاطب خادمهما »

تقديم المم ذكر بالنفس المشك بالأسلوب لطيف و خاطب سعيداً قاللا « اشتراك يا مولاي ٠٠ والعمل اسطفانوس يشكك ايضاً على غيرك و تغضبك وعلتك لا تعرف علاقه يسidi فانتا جيماً في ضيافته اليوم » ثم وجه خطابه الى اسطفانوس قاللا « واخلك يا مولاي تعلم ان المهندس سعيداً من ابناء طائفتنا وهو جارنا في التزل وعزيز على سيدى و لم يتصدق لك الا لامر انت ترغب فيه ٠٠٠

قطع اسطفانوس كلامه و عد الى المداجنة وللليلة قاللا « قد علمت انه من طائفتنا وان كان مقيناً مع ابي الحسن ٠٠ ولكنك لم يهلك ربنا افهمه من ادي فصحن اذا اسدقاً »

وضحك

قام السر زكي كلامه قاللا « واما سيدتي ديميانة فاتها سبقى هنا حضور قداس الاستئناف القيمة واما معها ولا خوف عليها »

قال « اذا كان الامر كذلك فقد اخفت مهمتي وها انا راجع لاخبر صديقي المعلم مرسق بذلك » واثنت على سعيد وقال « انا ذاهب يا صاحب قبل انت باق هنا ؟ »

فاستغرب سعيد مارآه من جبن الراجل وذله وسفر نفسه وأجراه بلا أكتراث «لم آبا ياق»

فتح حول استطوانوس وخرج وهو يقول «استودعك الله»  
فظل سعيد واقفاً حتى خرج استطوانوس ثم هز رأسه واقت إلى ديميانة وقال «أه  
خلق غريب .. هنا هو منافي فيك؟ .. وكنت أود البقاء في خدمتك إلى آخر الدليل  
ولولا اشتراكي للرجوع إلى السفينة وقد غابت الشمس وأخاف أن يغضب الوالي وانت  
لا ترضين أن يغضب»

فوقت ديميانة في حيرة وقد زاد احتقارها لاستطوانوس واحتزامها سعيداً وقالت «لا  
اريد ان يغضب الوالي .. سر برغارة الله»

قالت ذلك والبيه يلحوظ من لحن صوتها أنها لم تم قولها فادرك سعيد ذلك فنظر إليها  
وعيناه تكلمان وهي غيبة بينها ولامها يخاف أن يلاحظ الناس حاله .. ولو لا اشتغال الجماعة  
بشروعهم لم تتع لها فرصة للكلام .. فلما رأته ديميانة ينظر في عينيها ادركت انه يستفهمها  
عن مرادها فقالت ثانية «سر برغارة الوالي ورعاية السيد المسيح»

قال «فيمت ذلك من قبل ولكنني احبك ان تضمرين شيئاً آخر»  
قالت «لا اشمر شيئاً سوى اني ..» ففهم مرادها وقال «لاتالي بشيء» فـ  
هي الا بضعة أيام حتى يخلو لنا الجو فإذا فرغت من جر الماء وفرغت برباع الوالي ان  
صاحتنا هذا لا تبقى له جسارة للكلام بشألك .. وبظاهر أنه لم يعد يجر على ذلك منذ الآن  
الم ترى جبته وحقوه؟ .. كوني معلمهة لا تخافي .. استودعك الله»

فقد بدء وودعها وخرج

اما استطوانوس فعاد وهو يشعر باذى الله واخذ بيديه الاعتذار لما بدا من خدلانه  
ويشعر الاذى لسعيدية وسيلة كانت

اما ديميانة فوافت بعد خروج سعيد جامدة وقد ندمت على عيبيها الى الكنيسة عملها  
بأخلاق استطوانوس .. وادرك العم زكي يا قلها فأخذ يتفقد عنها ويتحقق امر استطوانوس في  
عيبيها ويهون عليها غصبه .. وانه لا يستطيع امرأ .. ثم علت الفوضاء في الكنيسة وتصاعدت  
رائحة البخور وتمالت اصوات الترتيل وصلصلة المساخر فتوجهت الانظار نحو الباب فرأوا  
الاسقف داخلاً باتوابعه الكهنووية ثللاً .. وبين يديه الشامة والماياز بالشمع فاشغلت  
بساع القدس عن هواجيها لأنها كانت تجد في مسامعه لذة عقلية

قضت في الصلاة وساع القداس بوجة وهي قيم كل ما يقال لأن الصلاة كانت لا تزال  
نابها في القبلية وهي تهمها حيداً أو كان الظلام قد سدل تقابه فازدادت أنوار الشموع ظهوراً  
وكثر الازدحام حتى تضاقت ديمانة في موقفها وخلط العم ذكرها بضايقها فاستهلاها ربيانا  
ذهب إلى شهاد بعرفه واستاذه في كرسى تراث عليه السيدة ديمانة بحيث تسع الصلاة  
ب Sidney عن الضوضاء • فاجاب الشهاد طلبه ودعاهما إلى كرسى بجانب الميكل بعيد عن  
الناس بلست عليه ووقف العم ذكرها بين الحضور وهو يرائهم ويتنظر اشارتها

فلما جلس هناك اشرفت على الجماهير وأكثراهم من أهل القرى والعمال بين  
معص ل القدس ومشتغل بالحديث وفيهم النساء والأطفال والضوضاء غالبة لشدة الازدحام  
ويع تذذعاً بما تسمعه من التراويل الروحية فإن صورة سعيد ما زالت تتعرض تصوريها  
فأنا تذكرت مدار ينها احتاج قلبها وقد ذكرت استطوانوس فتبين قسمها • وهي في  
ذلك وات الجماهير يتفرقون وقد قتحوا في وسطهم طريراً دخنة جماعة يحملون تابوتاً  
عله رسوم كنائية حق اذا توسلوا الكنيسة وضوء على منضدة قافية هناك وتخشع  
الناس لرؤيتها وتقدم الاسقف بالباخر بين يديه واحد يتل الصلوات والأدعية ويتضرع  
إلى الله ان يقبل احتفاظهم وبارك الليل اذا القوا التائب في الناس يؤمرون على دعائه

## الفصل التاسع عشر

### الرجوع

ولما فرغ الاسقف من الصلاة واحد الناس ينفضون ويخرون نظرت ديمانة إلى  
العم ذكريها في المكان الذي عمده فيه فلم تجده فارتبت في امرها واجالت نظرها في الجم  
لعلها تجده بينهم فلم يقع بصرها عليه فازداد فلقها وخافت ان يخرج الناس كلام ولا زراء  
لكتها ما عانت ان راته داخلأ بسرعة فسرّي عنها وما دنا منها ساله عن سبب غيابه  
 فقال « فكرت في ما نعمله » بعد انتفاء القدس وانا اعلم انك لا تخرين الذهاب الى فساط  
استطوانوس فذهبت الى والدك واستاذته برجوعنا للبيت في الدهيبة «  
ففرحت بهذه الفكرة وقالت « وهل اذن بذلك ؟ »

قال «نعم . هيأ بما إذا شئتِ»

فنهضت ومشت في اثره حتى خرجا من الكنيسة فرأى ما ادهشها من الانوار الكثيرة في الظلام على الشفتين وفي المزير وفيها امساقيح والمشاعل وقد تزامن الناس وعملت ضوحاً لهم بين غناه ونداء وعربدة وقبحه واستلقت نظرها على الخصوص ما شاهدته من الانوار الساحجة في البيل على الطرقات فلما كانت كبيرة وفي كل حرارة جماعة بشر بون وپعي دون ويسريحون وقد اختلط حبابهم بنابهم رجالاً ونساء

فاض العم زكرى يا مصباحه ومشى بين يدي ديميانة في طريق قليل الزحام بعيد عن الشاطئ حتى اذا قابل الدهيبة تحول نحورها وهي تشقى اثره وعيناها شائنة في عرض البيل تنفرس بالسفن نعلها تزيز دهيبة ابن طولون فلم تجدها . وما زال العم زكريا حتى صعد بها الى دهيبتهم وما حدثت انها دخلت غرفتها وبدل ثيابها وجلست للاستراحة فاناثها زكريا بطعام لساوات بعضه وهي لا تنشر بالتعاس فتصعدت الى محلها في أعلى السفينة واعادت نظرها في الطرقات والسفن وهي تبحث عن سفينة ابن طولون وتظهر انها تنفرج بمنظر الطرقات فتحققت غياب السفينة ولكن اذها كانت تنفر ما تسمعه من العريدة في السفن حولها ففضلت الذهاب الى سريرها

وانافت في اليوم التالي عند التجرب على صراح الناس عند خروج الناس والكتبة بالتابوت . حملوه على قارب وحوله الا زهار والرياحين وقد اخذ الكتبة بالترانيل والادعية والقارب يخترق البيل حتى اذا وقف في مكان يعرفونه انزلوا التابوت في الماء ثم اعادوه واخذت جامعات الناس تنفرق يرحاً وبهرما

ولما شرق الشمس حتى رأت والدها عائداً مع اسطفانوس في حالة تشمئز منها النفس من الكفر وها يخوالان أخفاء حالمها حياءً من ديميانة وهي تتجاهل ما تراه وتنشغل بشؤونها اما اسطفانوس فذهب توياً الى غرفته وبدل ثيابه وليس ثواباً نظيفاً وبالغ في التطيب والتطهير ولكن رائحة الملح المتصاعدة من فيه ما زالت متغلبة على كل طيب وانتقمت اشتغال صرفس عنه واتى الى ديميانة وكانت وحدتها جالة على وسادتها فلما رأته قادماً استعادت بالله ولكنها عزمت على التججل . اما هو فلما اقبل عليها القوى التوحيد وهي يتضاهر وتألم يادر في وجهه وقال «بالحقيقة ان جاركم رجل شريف غبيور»

فلما تجبيه ولكنها شاغلت باصلاح خمارها لعلها انه يتذرع بما قاله الى الایقاع بسعید وهي لا نطيق ذلك فلما رأها ساكتة قال «لماذا لا تجيئني يا ديميانة ؟ العله اوصاك

ان لا تكتفي » ٠٠

نظرت اليه شدراً وقد انكرت هذا التعریض و با ان الانكار في مينها و عمدت الى  
نفي الحديث فقالت « هل جاء والدك ؟ این هو ؟ »

قال « نعم انه جاء وهل تريدين ان اقص عليه ما جرى بالامس في الكنيسة ؟ »  
قالت وقد غلت عليها الاقة « كاشا .. افضل ما يدالك »

ففحشك وقال « لا .. لا اقول له شيئاً لاني لا احتاج الى نصرته في هذا الامر .. ان

اسطفانوس ابن المعلم يوحنا كاتب المادراني لا يصبر على ما سمعه من ذلك الجار العزيز » ٠٠

فلم تستطع صبراً على كذبه وریائه فقالت « ولماذا صرت على ذلك بالامس ؟ »

قال « اتریدين ان ابارزه في الكنيسة .. » وكأنه ادرك انه لا يبني له ان يروح بما

عزم عليه بين يديها فقال « ذلك حديث مفى .. وقد اعجبيتني غيرته على جارته .. ولكنك  
انظر مثيناً وحققاً في طريقة دفاعه عنها .. لا بأس .. ساخته الله .. » ثم تظاهر بالاطلف

بها والتودد اليها وقال وهو يجلس على المنسنة يحيطها « انا الان على ابهة الرجل .. وقد

قابلت الاسقف في هذه الكنيسة قبل مجيئي الى هنا » قال ذلك وايضاً  
فلم تفهم مراده ولا همها ان تستوضحة فكانت فقال وهو يصحف خوفها « الازالين

مشلحة الى المياه متى المقهى حقيقة امري » ٠٠

فلا كلها عن قرب فاحت رائحة المطر من فيه فبعادت عنه واقامت التندور فحبها ان داعيه  
قال « ما بالك تهربين مني وانا لم ازد على الكلام معك فكيف اذا قلت غير ذلك »

قالت « انا هربت من رائحة المطر فاني لا احتلها .. »

قال « بالطبع .. المذا المقدار تنزرين من رائحتها .. بيبغي لك ان تصوديها والا  
فيكون عيشنا منفصماً »

فلم تزد على هز كتفها وهي تنظر الى البحرية وهم يستغلون برفع المرساة وحل الشراع  
وتدوير الدھيبة للافلاع .. وسم اسطفانوس خطوات مرسى فنضم لاستقباله وهو يقول

« احس بالدهيبة تدور بنا هل افلح الرابان ؟ »

قال « نعم انتا ذاهبون الى القسطنطط » ثم حول خطابه الى ديميانة فقال « ارجو ان  
تكون قد سرت بهذا الاختناق والفضل بذلك لمدعي اسطفانوس فانه والحق يقال لم

ينذر وسماً في سبيل راحتنا .. قدرنا الله على مكافأته »

فسكت هنية ثم قالت « الى اين نحن مقلعون يا ابناء .. »

قال « ان اذا ذهبنا الى مدينة الفسطاط نتفق فيها اياماً . اغلبك لا تعرفنها »

قالت « كنت احبك ترسم بنا الى يتنا »

قال « أراك شديدة الحرص على غرفتك وكثيرك واقعوئاتك . وانت الى هذا اليوم لم تخوجي من طاء العمل ولا شاهدت شيئاً من مدنان مصر . ان الفسطاط مقى الوالي واجناده المسلمين وفيها من الابية والزخارف ما لا يجدهم مثله في القرى »

قالت « مالي وللاية والزخارف . ان هذا لا يهمني كثيراً »

قال « انا اعلم انه لا يهمك ولكنني احيطت ان اريك شيئاً جديداً »

قالت « افضل الرجوع الى البيت »

قال « سترجعين قريباً ولكن صدقي اسطفانوس دعانا لقضاء بضعة ايام في منزل والده بحلة بايلون قرب الفسطاط فاذا كنت لا تخفين المرور بالفسطاط سرنا توكل الى بايلون »

فلا سمعت قوله استعذت بالله وقالت « اين عنن من دير المعلقة الان؟ »

قال « هو في طريقنا بين الفسطاط وبابلون »

قالت اذا لم يكن بد من النهاب الى غير يتنا فاني احب زيارة هذا الدير لاني تدررت ان ازوره متى سمعت لي الفرصة وفي عنقي صليب من ملبانه »

فسر من قص رغبتها في تلك الزيارة فقال « تنزل في الدير اذا شئت »

## الفصل العشرون

وكانت السفينة قد اقلمت ونشرت اشراعها واخذت تخترق عباب الماء ولم تمض بضع ساعات حتى اطلوا على قصر الشمع ودير المعلقة جزء منه . فرأت السفينة بين الروضة وقصر الشمع حتى رست بباب القصر وهو يومئذ قريب من النيل فاشتعلت بالنظر اليه لانه اشبه بالمحصون منه بالقصور ووقفت السفينة بجانب باب القرى وهو باب عظيم الارتفاع قائم بين برجين عظيمين مستديري الشكل وفوق الباب نقش عليه صورة التسر الرومانى فاراد اسطفانوس مخالبها فقال « ان دير المعلقة ياديميانة في احد هذين البرجين »

فسكت ولم تجده فلما رأت السفينة هناك اشتغل البحارة بوضع السلم للنزول فنزل مرفق وزرت دميانة في اثره ودخل بها الباب ثم صعد الى الدبر وفيه بعض الراهبات فلما علن يقدوم الضيوف خرجن للقائم وتقدم اسطفانوس الى الرئيس انت ترحب بدميانة فخرجت لاستقبالها ورحب بها وسارت معها الى الكتبة وارتها ماقبها من الاعمدة الخامية على اشكالها والابنوات الثانية فتشتمت دميانة من تلك المشاهد وظهر السرور في وجهها وبمسك ذلك والدعا ولكنها اراد مساميرتها ليهون عليه استيقاؤها ريثما يتنقلها الى بابلون  
ولما استقر المقام بدميانة هناك قال لها والدعا « اني ذاهب لقضاء بعض الحاج في السلطاط وربما بت الليل هناك ثم اعود اليك في الصباح »  
فرجعها ذلك وقالت « انصل ما بدارك اني هنا في خير وطائنة ولو مكثت في هذا الدبر اشهر لا ابابي »

فودعها وخرج ومعه اسطفانوس وظلت دميانة وذكرها في الدبر  
بانت تلك الليلة هناك على الرعب والسمعة وفقت ردهما من الليل وهي تسمع ما يقصه عليها الراهبات من احاديث القديسين وعجائبهن واستأنست على الخصوص بالراهبة التي كانت اهدتها الصليب  
ولما أصبحت في اليوم التالي اسرعت الى الكتبة للصلاة وبعد الفراغ منها اختفت رئية الدبر الى غرفتها وقد احتجتها وتعلقت بها . وما جالستان هناك جاءت راهبة وعلق وبجهها امارات الدهشة والسرور مما فاجدرتها الرئيس بالسؤال فقلة « ما وراءك ؟ خيراً ان شاء الله ؟ »

قالت « الاسقف ... الاسقف آت لزيارتك »

قالت « واي اسف نعنين ؟ »

قالت « اسقف السلطاط »

وبان البشر في وجه الرئيس ونهضت للحال وارت ان يذهب الراهبات لاستقبال الاسقف وقامت دميانة معهن وسألت راهبة كانت ماشية بجانبها « يظهر ان الاسقف لا يزور هذا الدبر كثيراً »

قالت « يقدر ان يزورنا الا لامر هام فعلى ان يكون قد جاءنا بشارحة خير على قدموك »

وما عتم ان رأت الاسقف داخلاً والراهبات يرحبين به للدخول اولاً الكتبة مل

فيها صلاة مختصرة على جاري العادة ثم تحوّل الى غرفة الرئيس ولم يدخل منه اليها الا الرئيس وديمانة وكتب ديمانة على يده فقبلتها والتقت برّكته ودعاه فباركا وجلس على وسادة وأشار الى ديمانة ان تجلس وهو يقول للرئيس «الىست خيتك ديمانة بنت للعلم مرقس؟»

قال الرئيس «نعم يا ميدى يظهر انك تعرفها»

ولما سمعت ديمانة ابها تعجبت واطرقت حياءً واجلاً فقال الاسقف «قد عرفتها بالامس منذ كانت في كنيسة شيرا بدعة ولدنا اسطفانوس بن المعلم يوحنا كاتب صاحب اخراج وقد احسن الوصاية بها وبالغ في الشأن على ابيها»

ولما سمعت ذكر اسطفانوس تحوّل مسرورها الى كدر ولم تجد ملاحة فقال لها الاسقف «ألم تكوني امس في كنيسة شيرا يا ابني؟»

قالت وقد صبغت الجبهة وجهها «نعم يا ابي كنت هناك وحضرت الفساد وتبشرت بدعائكم»

قال «يدعاء القديسين والابرار يا ابني .. افي لفظ ما سمعته من الشأن على تمقلك وتقرؤك اصبحت مسروراً بروبيتك .. وعل انت عازمة على طول الاقامة هنا؟»

قالت «لا ادري ولو خيرت لنفسي عمرى هنا

ف kepسم الاسقف نسباً ينطوي على معنى وقال «ان الدبور افضل المازل للبيهقيين اذا يتفرغ فيها الانسان لمبادرة الحلق والقيام بفرض الدين ولكن لا ادري اذا كانوا ياذنون بقائك هنا طويلاً»

فأشكل عليها مراده واستغرقت تصديقه لهذا البحث عند اول مقابلة ولكنها نجحت وقالت «اذا كان اهل هذا الدبر يخرجوني منه فلا حيلة لي»

قال «لا اعني ذلك فان رئيسة هذا الدبر وراعياته يرجون بك كثيراً .. ولكنني اعني والدك المعلم مرقس .. مالا ولذا الان دعينا من هذا الحديث حتى باقى والدك»

فادركت انه يشير الى الامر الذي تردد فرانسها من ذكره ولكنها تحملت وسكتت فتحول الاسقف كلامه الى الرئيس وقال «كيف الدبر وراعياته ارجو ان يكن في راحة»

قالت «هن» في خير برّكة السيد المسيح ودعائكم

قال «يظهر ان هذا الولي التركي ارتفق بالاقياط من اسلامه العرب»

قالت سُم بِاسِيدِي أَنْ مَنْذُ تُولِي مُصْرَمْشَتْقَلْبَشْزُونْ دُوكَهْ فَلَانْدَرِيْ هَلْ كَانْ سَكُونَةْ  
كَانْجَا عَنْ اشْتَحَاهْ هَنَا أَوْ حُوْرِيدْ بِنَا خِيرَاً »

قال « أَنْتَهْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَنْ رَفْقَ وَحْسَنْ وَأَيْ إِدَامْ أَفَهْ هَذِهِ النَّعْمَةِ عَلَيْنَا »  
فَقَالَتِ الرَّئِيسَةِ « أَمِينَ »

وَهُمْ فِي ذَلِكَ أَنْتَ أَحَدِ الْإِرَاهِبَاتِ وَقَالَتْ « أَنَّ الْمُلْمَ مِرْقَنْ يَلْتَسِ الدَّخْوَلْ »  
فَقَالَتِ الرَّئِيسَةِ « بِدَخْلِ »

وَلَمْ يَعْضُ هَنْيَةَ حَقْ قَبْلَ الْمُلْمَ مِرْقَنْ فَأَكَبَ أَوْلَأَ عَلَيْهِ يَدِ الْإِسْقَفِ فَقَبَلَهَا وَسَلَمَ عَلَى  
الرَّئِيسَةِ وَأَقْبَلَ إِلَى دِيمَانَةِ يَأْمَلَهَا عَنْ حَالِهِ فَقَالَتْ « أَنِي فِي غَايَةِ السُّرُورِ فِي هَذَا الدَّبِيرِ وَقَدْ  
غَمَرْتِي الرَّئِيسَةِ بِفَضْلِهَا وَلِمَقْبِلِهَا »

فَجَلَسَ مِرْقَنْ وَهُوَ يَكْرَرُ التَّحْجِيَةَ عَلَى الْإِسْقَفِ وَيَطْلَبُ دُعَاءَهُ وَدَارَتِ الْأَحَادِيدُ  
وَيَنْهَمُ بِالْأَحْوَالِ الْجَلَاجِيلِ وَذَكَرُوا الْأَسْتَغْفَلَ بِيَمِدِ الشَّهِيدِ بِالْأَمْسِ وَأَطْرَى مِرْقَنْ فَخَاتَهُ  
وَمَا يَرْجُونَهُ مِنَ الْبَرَكَةِ فِي مَا تَبَلَّ عَلَى أَنْرِ الْفَاءِ أَسْبَعَ الشَّهِيدِ فِيهِ

## الفصل الحادى والعشرون

### الخلوة

ثُمَّ نَهَضَ الْإِسْقَفُ وَغَوَّلَ إِلَى مِرْقَنْ وَطَلَبَ إِلَيْهِ الْخَلْوَةَ بِهِ فَاطَّاعَهُ وَدَخَلَ غَرْفَةَ  
مُنْقَرَّدَةَ وَاقْلَالَ الْبَابَ عَلَيْهَا فَوَجَدَتِ دِيمَانَةَ مِنْ تِلْكَ الْخَلْوَةِ وَحْدَتِهَا قَلِيلًا بَشِّيَّعَ خَافَهُ  
أَمَا الْإِسْقَفُ فَلَمَّا خَلَالَ بِهِ مِرْقَنْ خَالِمِهِ بِشَأْنَ دِيمَانَةِ وَخَطَبَهَا إِلَى اسْطَفَانُوسَ وَأَتَى عَلَى  
الْخَطِيبِ وَأَيْهِ لِوْجَاهِهِمَا فَأَجَابَهُ مِرْقَنْ أَنَّهُ يَلْمُ مِنْزَةَ الْمُلْمَ حَنَا كَاتِبَ الْمَادَوَانِيِّ وَقَدْ سَادَقَ  
أَبِهِ اسْطَفَانُوسَ وَعَلَيْهِ وَهُوَ يَسْتَطِعُهُ وَلَذِكَرَ فَانَّهُ لَا يَرِي مَا تَعَانَّ مِنْ اجْيَاهِ الْمُلْمِ الْمُلْمِ  
فَقَالَ « وَفِي كُلِّ حَالٍ أَنْ أَمْرَأَ دَخْلَ فِيهِ سِيَادَةَ الْإِسْقَفِ تَأْفِدَ لَا عَالَةَ وَمَا دِيمَانَةَ إِلَّا  
أَبْكِمُ الْمَطِيعَةَ »

فَأَتَى الْإِسْقَفُ عَلَى تَلْعِقِهِ وَقَالَ « شَكَ الْيَى وَلَدَنَا اسْطَفَانُوسَ مِنْ جِنَاهِ الْفَتَاهِ وَتَبَعَدُهَا  
فَذَا كَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهَا تَكِرُهُ الْزَوْجَ قُلْ لِي تَغَادِيَّاً مِنَ الشَّاكِلَ بِدَ الزَّوْجِ »  
فَقَالَ مِرْقَنْ « تَكِرُهُ ؟ كَيْفَ تَكِرُهُ مِثْلَ هَذَا الصَّبِيبِ ؟ وَلَكِنْيَ أَحْبَبَهَا تَفْعَلُ ذَلِكَ

حياة على مادة البناء في مثل هذه الحالة . . . وهب أنها ترددت في أول الأمر فلا بد من قبولها

قال «الانظن سبب تبعدها اختيارها شاباً آخر وقع في نفسها موقفاً جيلاً؟» فهزَّ مرقس رأسه استخفافاً بذلك الرأي ودفعاً لذلك الهمة وقال «اختيارها شاباً آخر؟ ما أنت من يخربون بناتهم وليس عندها بنات تخمار؟ . . . إن الفت الماكرة هي التي تجعل رأي ابها لكم بالحري اذا اشيف اليه رأي سيدنا الاسقف ونحن كنا طوع ارادته» قبسم الاسقف وانتي على لطف مرقس وتهض وهو يقول «أي متى تزد اذ تضع عروون الخليفة»

قال «في الوقت الذي جئته سعادتكم فشكراً له ومني فخف مرقس الى الباب توجه له وكان أحد الشهامة يتنظر خروجه لتقديم اليه بالصوصجان قتاله وتلفت كاميخت عن الرئيسة ليودعها فتقدمت وقبلت يده فيبار كيا وقال لها «اوسيك خيراً بدمباه سبة التديسة الشهارة . . . اين هي؟ اني لا اراها» قالت «هي في الصلاة . . . فلتبا لا تفتر عن العبادة . . . بالحقيقة اتها من اهل القوى»

قال «حقيقة . . . ولكن لا اطليها تموي الزهب» وضحك وقال «لا اذا اختارها السيد المسيح خدمته» ولما رأت الاسقف يضحك ادرك اهيا زحها ويشير الى قرب خطيبها فسكت قاعداً الوداع وودع مرقس ومضى اما دعيماته فلم تستزل في الفرقاة الصلاة فقط ولكنها اوجست من خلوة الاسقف باپها فخافت ان يستقدمها للامر الذي تخافه وتفر منه فتشاغلت بالصلاحة وهي لا تفهم ما تغير امام لقلتها واشتغال خاطرها وكانت من الجهة الاخرى تراعي حركات اهل الدبر لتعلم ساعة خروج الاسقف فلما علمت بخروجه وذعابه شكرت الله على مرور الخطر ولكنها تعودت في مثل هذا الحال ان تجد ذكرها بين يديها فتسع منه طمأنة او تهونها فلم تخجده

ويمد قليل ماد ذكرها فقرحت بقدومه ولا سبباً لأنها توسمت في وجهه خبراً مفرعاً رغم ما في حاله من ادة العجلة واليقنة فسألته عن سبب غيابه فقال «ذعبت في امر ستر ثغرته الآآن»

فلم تفهم مراده فقالت «واي امر تعنى؟ . . . لم تشاهد الاسقف ألم تعلم بخلوته؟»

قال «كيف لا ؟ ولولا علمي بذلك ما ذهبت بهذه المهمة »  
فازدادت فلتاؤ بيان ذلك في عينها فابتدرها ذكرها قائلاً « لا تقلقي يا سيدني اسمى  
قرع الباب .. الا تسميه ؟ »

قالت « على اسمه .. وماذاك »

قال « ان الناقد هو والد ساحبنا استفانوس »

قالت « والده ؟ .. المعلم حنا ؟ »

قال « نعم »

قالت « ما الذي جاء به ؟ »

قال « أنا استقدمته »

قالت « أنت ذهبت إليه واستقدمته وكيف ذلك ؟ .. قل »

قال ماعلمت بمقابلة الاسقف سيدني والذك ابنته أنه سيخاطبه بالامر الذي يريدته  
استفانوس وأنا اعلم أن والده رجل عاقل يعرف حقيقة ابنته وأنه ليس كفواً لما  
يطلبه فذهبت وأسررت إليه الامر فرأيته كما كنت اظن ووعدي انه قادم ليخاطبه  
والذك »

قالت والاستغراب ياد في اسرتها « آت لماذا »

قال « ليرجع اباك عن هذا الامر ويرد ابنته خاتماً »

فبسم الله ثم ناجج ابتساماً « يرجعه ؟ انتظره يستطيع ذلك »

## الفصل الثاني والعشرون

المعلم حنا

وقطع كلامهما خلق نعال المعلم حنا في صحن الدير فشت ديماته حق تشرف عليه من  
نافذة أو تراه منها ولا يراها هو فرأته رجلاً جليل الطامة وفورة يظهر التعلق في نظراته  
وخطوهاته ورأت رئيس الدير كثيرة الاحتفاء به وهو يقول لها « بلنتي ان المعلم من من صاحب  
طاء الخل هنا »

قالت الرئيسة « نعم يا سيدني .. ولذلك كان الآثر في خلوة مع اسقف الفسطاط

وخرج الاسقف واثلن العلم مرسى لا يزال في الترفة التي كانا فيها » قالت ذلك وهي تمشي بين يديه حتى دخلت تلك الترفة فرأى مرسى فيها فتركهما ورجعت اما دمياة فلا تسل عن اضطرابها في اللترة التي كان ابوها والعلم حنا مخليبيت واستطالت الخلوة وقلبا يختلط وبداها ترتعشان وقد اصبعها باردين كالثلج وهي في اثناء ذلك تلاعى بالتراءة وتلتجأ عناة ان يظهر ذلك لاحد . وكان اهل التير في شاغل عنها بشوفهم . أما زكريا فتركها وخرج لعله يستطلع خيراً يحمله « اليها طالت اطلاولة ودمياة تتساءل في ماذا هي ان تكون عاقبها ثارة تظن سوا اوثارة خيراً وكما صحت حركة خطواه فتح باب يتحقق قلبيها .. اذا هي تسمع صوت المسلم حنا نفسه يودع والدها بلعن لم يسمحها فالتفت فرأى وجه الرجل متغيراً ووالدها يتواضع لديه ويقترب منه « عند الوداع بصوت خافت كانه يبتذر عن خطأ ارتكبه . فكشت هنيةة كالاصائمة « اذا يذكر يا قد جاهها ووجهه ينذر بها وقمع فابتدرنه قاتلة « لم يفلح الرجل على ما اثنى »

قال « عذراً يظهر وعلت من سمع حدثها ان العلم حنا نصع لا ينك ان لا يزوج ابنته بك وانه ليس اهلاً بذلك فطاوله في انكلام ثم اعتذر بأنه وعد الاسقف واصبح الزوج صعباً .. والله سيدل جده »

فلا صحت دمياة قوله وكانت في مكان لا يرعاها فيه احد لم ينالك عن انت لطمت خديها لطمة خفية وقالت « ويلاما هذه التجربة .. ابوه نفسه يقول انه ليس اهلاً لي .. » واختلت تبكي ثم تحولت نحو ايقونة السيد المسيح معلنة هناك وقرعت صدروها وتهدت من اخلاق قلبها وقالت « المي تبني من هذه التجربة واذا كنت تعلماني في خطئتي في تغوري من هذا الشاب حبيه المي واجعلني اوري خطأي .. » واطلقت لنفسها عنان البكاء فقال لها زكريا « كفلكني دمحك يا مولاي .. سأقي والدك .. كفني عن البكاء واصبرني .. ولا يابالي بشيء فقد قلت لك ان ذلك الفر لايكون ان يحال قلامة من ظفرك .. سأبرئ والدك ولا تبدي له جفاً واتنكلي على المسج وعلي »

فاطلأت خاطرها وتراحت ومسحت هنيةها ثم مشت الى غرفتها فلقيها ابوها ولعله رأى ان الدمع في عينيها وتباھل فقال لها « افي ذائب وربما ایت الیلة خارجاً .. اظن هذا يسر لك يادمياة اذ تخرفين للمبادرة » وضحك . فسايرته في الابتسام فخرج وعادت الى هومها وزكر ايا يوم كذا ال الجمعة وستهلها ربنا يسوع مركوز عيد عند ابن طولون بعد

جري الماء في العين وهو قريب

اما مرقس بعد مقابلة المعلم هنا وما عرفه من انكاره على ابته الزواج بدميانته فاصبح وقد ذهب شيء من آماله في تلك المصاهرة لانه كان يرجو ان يستفيد من قنوز كاتب المراج فضلاً عن صداقته مع اسطفانوس ولكنه ما زال يرجو رجوعه الى الرشى لعله انه يحب ابته كثيراً . وكان مرقس يعتقد من الجهة الثانية ان اسطفانوس متزوج يظهر لدى والده مظاهر الكمال ويسمو في عينيه فيقربه . ثم هو من الجهة الثانية تمسك بقوله ثنيداً لكتمه وعملاً بسلطه المطلقة على اهل منزله

وفي اليوم التالي رأت دميانته اهل الدير في حركة يرتبون وينظرون كلهم يذهبون لاستقبال زائر كبير ورأت بعض الراهبات يتظاهرن اليها نظرة خصوصية ولا سيما الرئيسة فقد كانت ترعايهما وتبتسم لها فجأة هلت وسألت الرئيسة عن سبب هذا الاستعداد فقالت « ان يهدنا الاسقف فادم لزيارتنا في اصول هذا اليوم وبا ادائنا استقباله بالامس على غرة فرآنا ان نستعد لاستقباله اليوم استقبلاً يليق بقائمه لانه اسقف مدينة الفسطاط وله وجاهة وكله نافذة فضلاً عن مركزه الديني »

فلم يجيئها هذا الخبر وارادت ان تعيد الاستفهام عن سبب مجيئه فخافت ان تصفع جواباً ينفر منه قليلاً فشككت الرئيسة وقالت « لم تأتليني عن سبب قدومه »

قالت « رأيت ذلك ليس من شأفي »

قالت « بل انت صاحبة الشأن الوحيد فيه »

فهمت مرادها وتحولت من بين يديها ثلاثة تسمع تصربيها ذكرها وقد علم ان الاسقف آت لبعض عربون الخطبة مع ابيها فأخذ يشجبها ويبروك ما مساعدته وان قنعتها لا يجد فيها قمعاً في تلك الحال الى ان قال لها « ان المطلبة عقدة يمكن حل هذه العقدة لا ... لا تخافي يا سيدتي ... انت تعرفين خادمك ذكرها وانه لا يقول جزاها ... ونعم ذلك ما ادرانا انت يكون والدك قد اتفع من كلام المعلم هنا فيوجل الخطبة الى وقت آخر »

قطعت كلامه قائلة « لاندع نفك خادماً فانك اعن من الا ب فإذا شئت ادعني ابنته ... واما ما تقوله فلا يدعون الى العلائية ولو كان والدي غير عزمه لما كان ثمة داع الى قドوم الاسقف »

قال « وعد الاسقف قبل مقابلة المعلم هنا فربما غير عزمه ومع ذلك فائزكي الامر الى

ربنا القول كثي وسكت كانه ندم على هذا الوعد  
 فقالت « ومتى تقول كثلك ؟ .. وهل تقل لها نفع »  
 قال « اقولها عند الآيس وإذا لم تفع فغيرها يدفع » قال ذلك ومشى خوفاً من انت  
 تستزيده ایقاساً وهو سرير من الكتان  
 فادركت في غرشه فسكت

---

## الفصل الثالث والعشرون

### المخطبة

وفي اميل ذلك اليوم أتى مرسى وهو يعيش لديانة بشاشة خصوصية وقدليس احسن  
 ثابه استعداداً للاستفادة . ثم امسك يد ديناته واخذها الى غرفتها ورمى يده  
 الى سببه واستخرج عقداً من الجواهر يدللاً على الشخص وقدمه اليها وهو يقول « ما المجل هذا  
 العقد ياديمياقة » وتوقع ان تم يدها لتناوله فلما تعلم انها استفزاه وقال « لماذا لا تقدرين  
 بذلك .. خذيه انه قلك » وتقدم خبرها وعلقه في عنقها وهي لا تُنكر وحدثتها نفسها ان  
 تقطعه وترميه الى الارض ولكنها تذكرت عملاً باشارة زكريا . فظلت ابواها رضيت فاكح على  
 رأسها قبليها وقال « اعني يا حبيبي ان هذا العقد هدية من اسطفانوس وهو آت الان مع  
 سعادة الاستفادة ولو تعطيني كم يحبه سعادته وبعثره لانه كالا يخفي عليك ابن المعلم حا  
 وهو لطيف المشرفة ... انتملين لماذا هو آت مع الاستفادة  
 فلما سمعت ذكر اسطفانوس لم تهد ذلك ارادتها فقالت « لا حاجة لي الى معرفة  
 سبب ذلك »

قال وهو يازحها « كيف لا وانت صاحبة الثأر ولد النبي والاس اليوم »  
 قالت وهي تتعجب بالكلام « لا امر لي ولا نهي ولو كان لي رأي لما البيتي هذا العقد  
 ولا ابيت بي الى هذه الديار » .. وشرقت بدموعها  
 فقال وهو يظهر الاستخفاف بقولها « الا تزالين تفضلين الاقامة في طاه المثل على  
 النسطاط قبة الديار المصرية ومقر الاعيان ورجال الدولة »  
 فنهدت وسكتت عفافة ان يبدو منها شيء « ندم عليه

اما هو يحمل يقالطها وينسر نورها بغير الواقع فتبه الى الحياة او اطوف على عادة  
البنات في مثل هذا الحال

ثم جاء الاستف واعتم بخيته اهل الدير فاستقبلوه بالترانيل والصلوة والتعور والببور قد دخل  
الكنيسة او لا وصل صلاة حضرتها ديميانة في جملة الحضور وخفت كهادتها في اثناء الصلاة  
فجئت توصل الى الله ان يلهمها ما فيه اظير لها وانه اذا كان قد جعل اسطفانوس نصيبياً فليجيئ  
اليها وبكت وتضرعت كثيراً وهي تجاذر ان يرعاها احد . وهي في ذلك انتهت بفتحة فرأت  
اسطفانوس داخلاً الكنيسة وقد ليس احسن ما عنده واصلح هدامه ووقف بجانب ابيها  
فاجعلت عند رؤيتها وكاد القم يحيى في عروقها وجعلت تناجي نفسها وتسأل قلبيها فلا تراه  
يزداد الا نفوراً وكلا تصورت اسطفانوس وسيد ابيها احسنت باجتنابها فهو سيد  
ونورها من اسطفانوس . قائم في خاطرها ان الله لا يريد لها لكنها عادت فذكرت ان  
الله يوصيها بطاعة الوالدين واكرامهما فوقت في حيرة

ففت في ذلك اكثراً مدة الصلاة والاستف ببابه الجليل وبالببور يصاعد في لفأه  
الكنيسة مع اصرات التزيل وادا هي تسع الاستف يقول « يامل مرقس »

فالتفتت فرأت اباها يشي خرو الاستف عند الميكل فامر « اليه قولاً فناد مرقس  
الى ديميانة وطلب اليها ان تراقه الى ما بين يدي الاستف فشت معه منقادة كي يقاد الحبل  
الى السبع ونادي الاستف « اسطفانوس » خاه ووقف هناك فرع الاستف يده وبارك  
وعلم ثم مدعا الى اسطفانوس وتناول منه خاشعاً مل عليه والبه لديمانة وهو يتلو  
ما جرت به العادة وصرح الحضور انه قد عقدت خطبة ديميانة على اسطفانوس  
كل ذلك وديمانة ساكتة والدمع ينساقط على خديها وخفت ان تختونها فواها تسقط  
على الارض فجابت وركبتها ترتعشان فلما وضع الاستف اطام يدها ثم تمد بذلك قواها  
فوقت على الورض فتراكمت الرعبات اليها وفسحتها بالمال المقدس وتبين ذلك الى تسبها او  
حياتها او غير ذلك وأتيتها بزرت من مصباح امام صورة مريم العذراء محروا به جبينها  
وحلتها الى غرفتها للاستراحة ولما تم الاستف الصلاة ذهب مع والدها الى متودها وأخذ  
يختلف عنها نارة ويمازحها اخري . واستطافانوس يعلم انها امساكها ذلك من فرط نثرها وقد  
غلبت على امرها لانها تحب سعيداً . وانخرسروا الاشتغال بالخطبة بسبب الازعاج الذي  
اسلب ديميانة وقرقوها

## الفصل الرابع والعشرون

### الطبع

واما زكريا فقد كان اشد المفخور تاماً بما حدث وكان قد عزم ان يخاطب مرسى بالاسر قبل عقد المخطبة ولكن الاسقف لم يترك له فرصة اذ بادر حالاً الى وضعها فثاررأي ما اصحاب ديميانة صبر حتى ذهب القوم وطلب مقابلة مرسى وكان هذا قدم بالظهور مع اسطفانوس فودعه على ان يلتقيا بعدئذ ورجع الى زكريا وقال له «ما الذي تريده» قال «اذا اذن مولاي يتخلوة قلت له ما اريد» فاظهر تمللاً من هذا الطلب ولكنه مشي امامه الى غرفة دخلها وجلس على وسادة وقال «ماذا تريده» فقال زكريا وهو واقف بتأدب «لا بد ان ما اصحاب ميدني ديميانة قد اثر في نفسك كثيراً ..»

فضحوك بهم وقال «لام يوثر في بل اثر فيك انت فقط» فشق هذه الشهم على زكريا ولكنه تجلى وقال «لم اكن انتظر هذا الجواب يا سيدى فان سوالى هذا ليس كل ما اريد ان اقوله» قال «قل ما تريده .. ان ديميانة لم تأت ما انتهى من العتاد الا بسيك ولو لاك نكانت مطيبة راضية»

فاطرق زكريا وهو يصل فكرته ويسثير نفسه في هل يجيب مرسى بما يستحقه ام يبقى على السكوت . واستبطأ مرسى جوابه فقال «هل هندك شي؟ آخر تقوله؟» فقال «عندى اشياء كثيرة ولكنني لا أقولها واتخاطبني بهذه اللهجة ولا انا ارى سوغاً لهذا اللحن كأن ميدي نسي حقيقة مركزي في منزله فانكر اختصاصي بشئنة ديميانة واعلامي لها»

فند ذكر مرسى ان زكريا ليس من خدمته وانما هو أوقف خدمة ديميانة على الخصوص فقال «لم انس ذلك ولكنك بالنت في اغوارها على ايهما حق كادت تعصى كالمته» قال «بازا اغربتها يا سيدى؟ .. اخذتك تبني قبورها من خطيب اليوم .. اقسم لك

باليد المسيح اني لم اوثر على رأيها ولا غيرت شيئاً من عزيمها ولكنني رأيتها نافذة منه ولو استعانتي في التخلص منه فان ضميري وذمي لا يساعدانني على ردهما . . . . .

فقط مرسى كلامه قائلاً « تقول بكل جسارة اناك لم تخرب عزيمها الم تكن راضية به يوم كننا في طاه النسل فما الذي جرى الا ان . . . . ولكنها ان تتزوج الا به وضفت ام لم ترض » قال ذلك والغضب باد في عينيه

فاجابه زكريا بصوت منخفض لكنه يرتجف من الغضب « اذا اصررت على ذلك ماتت كذا »

قال « لا . . . لا تموت كذا الا اذا ظلت على اغرائها فانك تقتلها . . . دعها وشانها . . . دعها لا يبيها فانه ملي امرها »

فادرك زكرييا تلحظه فقال « انت تعلم يا سيدى اني لا اقدر ان اخلي عنها عملاً بالويمية التي اوصيت بها يوم ولادتها وقد مضت هذه المدة وانت لا ترى مني خالفة اما الان فانا على يقين انها تكره هذا الشاب ولو دفقت لها واطلق في وعده واحداً امزيجاً وانا انا اريد انغير لها ذلك . لانك اذا اصررت على اكرامها اما تقتلها او تكرهها على امور لا ترضيك . . .

فقال « لا تخسر على شيٌ وعل في الا ابني ولا تقدر على مغافلة ارادتي . . . لم يجر العادة ان يترك البنات لا رادتهن في الزواج بقليل هذا ويرفضن ذلك . . . ام هي اعلم مني بما ينفعها او يضرها . . .

فقال زكريا بهدوء ورزقة « ولكنك تعلم ايفاً ان للمعيانة مع ابيها شأنها يختلف عن شروط معاشر البنات مع والديهن »

فوقع هذا القول في قلب مرسى كالصاعقة رغم ما اخفى زكرييا من صوره ويع نظره في اسلوب التعبير فقال مرسى « لا اعرف لما شائنا اخره »

قال « اذا كنت لا تعرفه انت فلانا اعرفه »

فوقف عند ذلك مرسى كأنه يهم بالغrog وقال « لا يهمني ما تعرفه ولكنني اunsch لك ان عتني يبني وبين ابني ولا تترجمها على مغافلتي »

قال « لو كانت غلطيها في طلاقتي غلطيها ولكنني مومن على امر ثقفي علي» النساء ان احافظ عليه الى آخر نسمة من حياتي »

قال مرسى « طيب . . . افضل ماشاء » وخرج وقد زاد عناداً وتفاه

## الفصل الخامس والعشرون

### الموامرة

وسار مرقس نزولاً إلى صديقه اسطفانوس فرأه جالساً إلى المائدة وبين يديه آنية الشراب وقد تناول شيئاً منها . وتوم في وجهه عبوساً كانه يشرب لذنب غبته فلم يفته سبب ذلك النسب لكنه " غالطه " فبعد أن حيأه وجلس إليه سأله عن سبب غبته فأنكر النسب في بادئه الرأي فقال مرقس « لا تذكر على ذلك لأنني أعرف السبب » فقال « إذا كنت تعرفه فلماذا تسألي ؟ .. . »

قال « أساك .. لأنني أعرف أن اصحابه هل أصابوني .. . »

قال اسطفانوس « أنت مصيبة إذا كنت تظنني غبياً من تصرف دميانة معي ولكن هل تعرف سبب هذا الصرف ؟ »

قال « أنا غبي .. إن سبب هذا العداء هو إغراه ذلك التوبي خادها ولولاه لكانت اطروح لي من بياني .. . وقد وبحكمه اليوم وأحكمته ما لا يرضيه » فابتسم اسطفانوس رغم ما كان فيه من النسب وقال « إنك ثقلاً زكي يا بهذه الحكم . ليس هو سبب العداء .. أنا أعرف السبب .. . »

قال « وما هو »

قال « إن ذكر ليلاً جاءنا أبو الحسن مـا ، وطلب ديميانة لذلك الشاب المهندس . »

قال « أذكر ذلك ولكننا رددناه وليس له عندنا أرب »

قال « هذا ماتقوله أنت ولكن سيدآ ما زال يطأول إلى تلك الامينة » وهز رأسه سخداً عليه

قال مرقس « لماذا يرجون ينالما ؟ لا .. لا تصدق ذلك »

قال « لا أصدق ؟ وقد شاهدته بخطيبها ويدافع عنها وهي تلجمه اليـه وتشكل عليه .. شاهدت ذلك بعيتي »

قال « متى ؟ .. . »

قال « يوم الاحتفال بعيد الشيد .. . » وقص عليه بعض الواقعه وغير فيها وبذل اختفاء جلسه وسألته

قال « ليتك قبضت عليه في تلك الساعة »

قال «لم أثأ ان أولت يدي بدمه ولكنني سادير له تدبيراً يكفيها شره ولا يحتملها وزره .. لست أنا من يرون مصادرة الأعداء بقوة البنـن فـإن هذه المصادرة وبجهـاً لوجهـ لا نـقـلـونـ خـطـرـ عـلـيـ المـهاـجـمـ .ـ وـالـقـائـلـ الحـكـيمـ مـنـ يـأـخـذـ عـدـوـ بـالـحـلـيلـ وـالـسـيـاسـةـ فـيـدـيـهـ وـيـنـتـفـعـ مـنـ هـنـهـ يـدـوـنـ اـنـ يـسـأـلـ هـنـشـيـهـ مـنـ ذـلـكـ — وـاـمـاـ الخـاصـيـةـ بـالـاـيـدـيـ اوـالـاـرـجـلـ فـيـهـ مـنـ طـبـاعـ الـهـيـاهـ وـاـنـاـ يـقـارـبـ الـرـجـالـ بـالـمـقـولـ .. وـمـوـسـوـ يـرـىـ هـذـاـ الرـجـلـ الـيـ لاـ يـعـرـفـ اـيـاهـ اـنـ اـسـطـفـانـوـسـ لـاـ يـسـتـهـانـ بـهـ » قال ذلك وهو يـشـخـصـ بـأـنـهـ وـيـنـتـدرـ تـصـدرـ الفـاتـرـ .. وـيـمـدـ أـفـرـالـهـ جـجـجاـ دـامـيـةـ .ـ وـلـعـلـ صـدـيقـهـ مـرـقـسـ بـوـافـقـهـ عـلـيـهـ .ـ وـقـدـ يـوـاقـفـهـ عـلـيـهـ آخـرـونـ لـاـنـ خـلـعـرـ الـزـادـ مـنـهـ » انـ يـقـارـبـ النـاسـ بـالـمـقـولـ » ولكنـهـ يـقـنـعـ تـحـتـ هـذـاـ التـبـيـرـ هـزـمـهـ الـابـيـاعـ بـعـيدـ غـدـرـاـ وـهـوـ يـعـدـ ذـلـكـ مـنـ قـبـيلـ الـخـارـيـةـ الـعـقـلـيـةـ وـمـاـ فـيـ الـأـخـيـانـ وـدـنـاءـةـ فـلـمـ مـعـ مـرـقـسـ قـوـلـ اـسـطـفـانـوـسـ اـقـلـرـ الـاستـقـنـافـ باـصـرـ سـعـيدـ وـقـالـ «ـ مـاـنـاـ وـلـهـ دـعـهـ وـشـأـنـهـ فـانـهـ اـعـبـرـ مـنـ اـنـ يـصـلـ اـلـىـ دـمـيـانـةـ طـلـماـكـتـ حـيـاـ .. وـلـاـ اـظـنـهـ مـنـ سـلـيـتـ صـلـةـ الاـكـلـيلـ وـصـارـتـ دـمـيـانـةـ زـوـجـةـ لـكـ الاـقـانـطاـ فـيـرـجـعـ عـلـيـ عـقـيـبـهـ خـائـباـ » فـلـكـ اـسـطـفـانـوـسـ سـاعـةـ فـرـأـيـ اـنـ زـوـاجـهـ الـنـهـاـيـيـ قدـ يـسـكـنـ دـمـيـانـةـ لـكـنـهـ ماـزـالـ يـخـافـ عـلـيـقـسـهـ مـنـ غـضـبـ سـعـيدـ وـقـدـ نـالـ مـثـالـاـ مـنـ شـدـهـ بـوـمـ الـاحتـفـالـ غـزـمـ فـيـ باـطـنـ مـرـهـ عـلـيـقـلـعـنـهـ اـوـلـاـ وـكـمـ ذـلـكـ عـنـ مـرـقـسـ لـكـنـهـ » قـالـ «ـ لـاـ رـبـ هـنـدـيـ اـنـ الـبـادـرـةـ اـلـىـ الاـكـلـيلـ اـحـسـنـ وـسـيـلـ لـقـطـعـ اـلـثـنـةـ الـخـاسـدـيـنـ وـكـبـ اـنـقـاسـ الـمـغـفـيـنـ وـلـكـنـيـ اـحـبـ اـنـ يـكـونـ ذـلـكـ بـرـشـيـقـيـ .ـ وـيـاـنـ سـبـبـ جـفـانـهـ اـنـاـهـوـ اـغـتـارـهـاـ بـهـذـاـ النـابـ لـقـرـبـهـ الـآنـ مـنـ صـاحـبـ مـصـرـ لـانـهـ اـسـقـمـهـ لـاـسـتـبـاطـ الـيـاهـ فـاحـسـبـ اـنـ تـرـفـ خـطـاـهـاـ قـبـلـ القـامـ الـاـقـرـانـ .. اـنـ مـاـ يـرـجـوـهـ هـذـاـ النـابـ مـنـ وـرـاهـ عـلـهـ الـذـيـ عـلـمـهـ لـاـبـنـ طـولـونـ اـنـاـهـوـ اـنـفـاثـ اـحـلـامـ سـتـظـهـرـ بـدـ الـاحتـفـالـ يـنـتـعـ تـلـكـ العـيـنـ وـتـرـىـ ذـلـكـ عـيـانـاـ »

قال «ـ مـقـ يـكـونـ هـذـاـ الـاحتـفـالـ ؟ـ »

قال «ـ يـعـدـ بـضـعـةـ اـيـامـ وـسـادـعـوكـ لـشـاهـدـةـ الـمـوـكـ وـالـاحتـفـالـ وـتـأـنـيـ دـمـيـانـةـ اـيـضاـ فـاـبـلـكـ فـيـ مـكـانـ مـرـقـسـ تـشـاهـدـونـ مـنـهـ الـاحتـفـالـ عـنـ بـعـدـ وـكـأـهـ بـيـنـ اـيـدـيـكـ .ـ وـسـتـكـونـ دـمـيـانـةـ سـمـكـ طـبـاـ وـتـرـىـ مـصـيـرـ ذـلـكـ الـمـفـرـرـ وـهـيـ هـنـدـ ذـلـكـ تـرـجـعـ اـلـىـ صـواـبـهاـ وـنـذـهـنـ مـاـغـرـةـ وـيـرـقـاجـ بـالـماـ »

فـاـلـطـاـنـ بـالـمـرـقـسـ طـنـاـ التـدـبـيرـ وـلـكـنـهـ لـمـ يـقـمـ نـيـةـ اـسـطـفـانـوـسـ وـتـوـاعـداـ عـلـىـ الـتـهـابـ مـشـاهـدـةـ موـكـ اـبـنـ طـولـونـ بـوـمـ الـاحتـفـالـ فـقـالـ مـرـقـسـ «ـ اـبـنـ عـيـنـنـاـ »

قال «أسأذن مديقاً لي في الدبور ان يدخل قبة الماء القائمة على منع المقطع  
ويختصاً بيكان منها يشرف على كل ما هناك من السبوز وتشاهد الاحتلال كانه  
بين ايدينا بلا مشقة ولا نعـب»  
فواقهه مرقس على ذلك وودعه واقرقا

---

## الفصل الثاني والعشرون

### قبة الماء والقططان

قبة الماء بناها اقامه اسراء مصر على سفح المقطم في خروج محل القلعة اليوم . اول من ابناها  
حاتم بن هرثة في اواخر القرن الثاني للهجرة <sup>(١)</sup> وجعل الامراء بعد ذلك يقذونه معيقاً او متزهاً  
ولاجاء الامؤمن الى مصر سنة ٢١٧ هـ جلس فيها حق اذا اضفت اماره مصر الى ابن طولون  
ابنى قصره تخفها وبين القططان وراء ذلك بينها وبين الفسطاط . وكان كثيراً ما يقيم في  
القبة المذكورة لانها كانت تشرف على قصره . وكانت القبة عبارة عن عدة غرف مفروشة  
باحسن الرياش عليها السور الجليلة وما فرش لكل فصل . ولما ذهبت دولة ابن طولون  
وغررت قصورهم كانت قبة الماء في جملة ما خرب  
اما في يوم الاحتلال ابن طولون يجري الماء في العين فكانت تلك القبة في ايان عمرها .  
وفي صباح يوم الاحتلال ذهب اسطقانوس بنفسه الى دير المعلقة ودعا مرقس ودميانت  
لشاهدة موكب ابن طولون من القبة فلم تجد ديميانة معارضة لان ذلك يفيتها . فسارط  
رايا على حجار من حجر الدبر ومشى ذكريها في ركابها . واخذ ذكريها يهدئها باسم الاحتلال  
ويبيها بقرب الفرج حق نسب متأهلاً وهواجها وامتلا صدرها رجاها واوشكت ان تقبض  
على السعادة يدها

التحق الكل عند سفح المقطم خروج الشخص فاسرع اسطقانوس بين ايديهم صاعداً حتى  
اتى قبة الماء وكان قيهما واقفاً بانتظاره ففتح له بايدها دخل فيه هو ورفاقه الى شرفة عليها  
اممدة بينها السور المزركشة او النطرزة تشرف على ما تحت المقطم من المبادين او  
الاينية او غيرها . واخذ اسطقانوس يساعد التراس في تهيئه القاعة اللازمة لمرقس

وابته وله . على ان حديثه كان هذه المرة مختصرًا ولم يتقارب من ديمانة او يتحرش بها كيادنه فلطفته تأدّب بالغيرية . وما ما هي فلم تخفه او تفتر من روبيته كالمادة ليس لأنها نعودته او اخذت تميل اليه وإنما نظرًا للترب نجاتها منه . بعد فوز سعيد فلم تعد تخافه . تأبهك يا كان يحول في خاطرها من الآمال الكبيرة بعد حصولها على حبيبها . على ان لفتها الشاهدة سعيد في ذلك الموكب يهاب ابن طولون صاحب مصر شفلا عن الاهتمام بشيء آخر اما استطفالوس فيبعد ان استقر المقام بضيوفه اشتذر بشغل يدعوه الى انصرافه على ان يعود بعد قليل فقال له سرقوس « وانا ايضاً احب النهاب في مهمة الى مكان قريب ثم اعود فهل تبقى ديمانة وحدها؟ »

قالت « اذعب يا اي وعذا زكر يا عكش معي ولا خوف علي » . لا تجملني عشرة في طريق راحتك «

فاظهر سرقوس انه ليس في خاطره شيء . على ذكرها وقال « حسناً . . . ها في ذاهب » والتفت الى زكريبا وكان واقفاً بقرب الباب وقال له « لا حاجة لي ان اوصلك بديمانة » فشارر زكريبا مطمئناً وخل واقفاً حتى خرج سرقوس ثم مشى غور ديمانة فرأها مشرفة الوجه على غير ما نعده فيها في المدة الاخيرة فانها كانت لا تبرح مقبضة الصدر لا يخلو لها طعام ولا كلام . فوقف بين يديها وهي جالسة على مقعدتين يطلُّ الحال عليه على القنطاع والقططاط فالشارت اليه ان يجلس وألحت يجلس على البساط بين يديها وهو يقول « فدآن الوقت الذي تخلص فيه من هذا الكلام . »

قالت « انتلن هذا اليوم آخر ايام الانتظار ؟ ولكن كيف نجتمع بعد ومتى . . . آه . . . »

قال « اني غير غافل عن شيء فقد لقيت سيدتي سعيداً بالامس وتواءدنا على امور مأقصها عليك . . . »

قالت « مم يبدأ الاختناق ؟ اني لا أرى احداً »

قال « لا يليث ان يبدأ . . . وستشاهدرين عظمة ابن طولون ونخامة ملكه . . . ستره في موكيه . . . انتظري الى هذا البناء الذي هو اقرب سائز الانانية البناء في سفح هذا الجبل . . . تأمليه جيداً انه قصر ابن طولون . . . انه قصر شفيف لم يسم به في هذه الديار الاماكنه الفرعونية من المياكل . انتظري الى هذا الميدان أعلم القصر وتأمل الجماجم الزاحفة فيه بين راكب ومامش رجالاً ونساء انه الميدان يلب فيه هو وزجاله على خيولهم ويضربون فيه

بالصوالبة (الكرتوالصلبان) وترى العيدان والتصرسوراً شيئاً له عدة أبواب من جلتها بباب الجيش الذي ترى الجندي يابه عليهم الأسلحة . وباب آخر يقال له باب الجيل وآخر باب الحامة وأخر باب الحرم لدخول نساء القصر أو الخدم . وهذا الباب الذي شاهدنا عليه تنازع بين هوباب السابع ومنه يخرج ابن طولون ويدخله<sup>(١)</sup> واظن الوكك سيخرونه الآن . لأن هذا الباب كما ترى مؤلف من ثلاثة أبواب يخرج الوالي من الباب الأوسط ويخرج رجاله من البياعين الجانبيين . إن امر هذا الوالي عجيب لمولاه . النظري فوق هذا الباب ترى عجلة يشرف على سائر القطائع وهي الأنبية التي تربينا ورآه هنا القصر فهو القسطاط . فيجلس ابن طولون في هذا المجلس في يوم عرض أو احتفال برافق حركات رجاله وما يحتاجون إليه »

فقالت ديماء « وابن يقيم للهندسون »

فضحكت زر كياوقال « لا اعرف مكاناً خاصاً بهم » ولتكن اعرف واحداً منهم فقط واعرف ابن يقيم . هل أقول ؟ »

قالت « لا » وبيان الشجاع في وجهها وغيرت الحديث قالت « سمعتك تذكر القطائع فما هو المراد بها ؟ »

قال « هي يا سيدتي أنبية بناتها ابن طولون لسكنى جده ورجال خاصة ومقسمة لولائي سيد ما يريد واصبح من خاسته اعملاه قصرأ في القليلة اللاقعة ينتقامه — وقد سمي هذا البلد القطائع لأنه مؤلف من أحياط يعرف كل منها باسم قطيعة . ويسكن كل منها طائفة من الجندي أو الرجال فالبلدة أنساباً يلدي قطيعة مفردة تعرف بهم والبروم قطيعة وله فراشين قطيعة تعرف بهم وكل صنف من الفلاحن قطيعة . أما رجال الدولة كالقواد والخاصة فقد يبن لهم مواضع متفرقة ارجو ان يكون لسيدي قصر منها . وترى بين هذه القطائع الأسواق والازقة والطرق يبنيت فيها المساجد والطواحين والخدمات والأقران وسيت الأسواق بها فيقال سوق الجزايرين والبقالين . ولا اطيل الكلام عليك . . . . . »

قطعت ديماء كلامه وقالت « ان بناء هذه القطائع يستغرق اموالاً طائلة مع ان في القسطاط قصوراً واسواناً تخبيئة فلماذا لم يتم فيها . . . . . »

قال لم يتم فيها لانه يختلف على تسعه من اهلها بعد ان غلبهم هل مدینتهم وفيها احزاب خضت له كرهاً فابتغي هذا البلد وهو اتبه بالخصوص منه بالقصور . . . . . أما الاموال

(١) التبرزي ج ١

وأقامتها فلأتسلى عنه .. الآرين لهذا البناء الشاهق القائم في أطراف هذه القطائع ؟ تأمليه ٤٠٠

قال « أني ارى قسراً نفياً هل هو من بناء ابن طولون ايضاً ؟ »

قال « نعم ولكن ليس قسراً وإنما هو مارستان انترفيه ما منع هذه المحفظة ٤٠٠ »

قال « كلاً أني لم اسمها قبل الآن »

قال « سدقت لأن هذا البناء لم يسبق له مثيل في هذه الديار .. هو يا مولاني يرت  
الرمح يستحقون فيه من ادواتهم ٤٠٠ »

قال « ربناه هذه للغاية ؟ »

قال « نعم وهو من حسناته في إعالة الفقراء »

فاستغربت ديميانة قوله وقالت « إن تشييد هذا البناء يستغرق اموالاً طائلة وما  
يرحازى حكاماً يشكون الفقر ويخملون الرعايا الصرائب لسد هروزم »

فقال « إن هذا المارستان يزيدني لم بين من مال الرعية ولكن ابن طولون خلر بكتز  
في هذه الصحراء فيه ألف ألف دينار بني منها هذا المارستان شكرأ الله ٤٠٠ على أن فضله  
ليس بالبناء وإنما هو تعهداته إياه بالاصلاح والتزييف والدققة في العاملة .. فاقام فيه الاعباء  
وشرط أنه اذا جي بالليل تنزع ثيابه وتحفظ عند امين المارستان ثم يلبس ثياباً ويغرس له  
ويقذى عليه ويراح بالادوية والاغذية والاطباء حق يبرأ .. وكان ابن طولون يذهب  
بنفسه في كل جمعة ويتفقد خزانة المارستان وما فيها من الاعباء وينظر الى الرمح وسائر  
الاعباء والمحبوسين من المجانين ويعرض نفسه خطر جنونهم وكثيراً ما انعرضوا له  
بالاذى حتى عدل عن التهاب (١) »

## الفصل الثالث والعشرون

### الموكب

وكانت ديميانة تسمع ما يقوله زكرياً وعيتها شاشستان الى ميدان التصرع لها ترى الموكب  
يتذهب للخروج أو عشاها روى سعيداً وأفتقاً أو ماثباً فلم تره .. ولكنها وات الاعلام

(١) للتقرير ج ١

خنق والرجال يختمرون وفيهم القرسان والشاة على اختلاف الأجناس «وها في ذلك سمعاً قرع الطبول فصاح ذكرياً «هذا الموكب يغزو» وأشار إليها أن تنظر إلى باب السابعة «فرات الناس يزاحون عنده والحرس يطردهم لتنفتح الأبواب لتروج ابن طولون وهو يكبر ونظرت ديماء إلى ما حوطها فرأى الناس في الطريق وعلى اسطحة المنازل يزاحون لشاهد ذلك الموكب، أما هي فلم يكن بهم ما من ذلك كله إلا أن ترى حبيباً وأياًًّا مجاهداً ابن طولون ليفرح قلبه فابتلى نظرها بباب وببر برهة سمعت أصوات الطبول والأياوان تقترب حتى خرج أصحابها من باب السابعة متسلة والناس يسعون لهم الطريق، ثم اطلت أعلام ابن طولون وخرجت من البابين الجانبيين يحملها رجال بابسة خاصة، وتلألأ في تحدق بعمرها في الباب الأوسط الذي تنتظر أن يخرج ابن طولون منه

ثم رأت طائفة من الغللن ينفرجون من البابين الجانبيين متوفراً وعليهم لثروا ما يكون من البابس والعدة وفيهم جمال باهر وقامات طويلة وأباً شديد وعليهم أقبية ومناطق ثقال عراض وباديرهم مقابع غلاظ على طرف كل مقرعة مقصومة من فضة ولم هيبة عظيمة، وكان ذكرها يراقب ما يدرو من ديماء عند مشاهدة هؤلاء، فلما رأى دعتها قال لها «أتعرفين هؤلاء؟»

قال «كنت مازمة على إن أسألك، ولكنني خفت أن ألموسياع جوابك عن عرالي» قال «لا يتجافي لم يكن خروجه بعد، وإذا خرج فإنه بين أيدينا، إن هؤلاء العلنان كانوا لابن المدير صاحب خراج مصر قبل عيسيٰ، ابن طولون وهم حكاية لطيفة تدل على علومنه هذا الرجل، وذلك أن ابن طولون لما تولى ولاية مصر وجاء لاستلامها كان ابن المدير صاحب الخراج عليها كأهـو المادراني الآن... ولكن ابن المدير كان شديداً على الناس وفيه دهاء فاحب أن يكتسب ثقة ابن طولون أو ينبع سكوته عن إعلاله فلما علم بقدومه خرج للقاءه، ثم بعث إليه هدايا قيمتها عشرة آلاف دينار فودعاها وكان قد شاهد هؤلاء العلنان في خدمة ابن المدير فطلب إليه أن يوضعه من الدنائير بـهؤلاء العلنان فلم يسمع إلا الطاعة فسلم لهم إليه، وأصبح من ذلك اليوم يخافنه»

وكانت ديماء تسمع حدث ذكريها وعيتها شاختان نحو الباب الأوسط وإذا بالعلنان ينذرون منه، ثم أطلق ابن طولون على فرسه وعليه باسم الإمارة وقد تحملت المية في عباءه، وبأن التعلق في حركاته وهو من ذلك يلتفت إلى الناس ويترسم وهم يتراكمون للبركة بظلمه ولا سيما العامة وأهل الأسواق الذين يتدرون إن يشاهدوه

خرج ابن طولون من الباب وحده فاختل قلب دميانة تطلعًا إلى من يكون بعده وإذا بفارس صغير السن عليه لباس فاخر وفي وجهه جمال باهر تجلى عليه دلائل الصحة والقوية تحنه فرس من جياد الخيل وفي ركابه غلامات عليهما ألبسة حمرا، مزركشة قد شمرا سراويلهما عن سوقيها وكانت دميانة تتحقق أن ترى سعيداً وراء ابن طولون فرأته هذا الفارس ولم تعرفه فسألت زكريا عنه فقال «هذا خمارويه بن احمد وهو احسن ابناءه واعزم اليه ولا ينزعك صغره فإنه شديد البأس ولوع بالصيد ولا سيما صيد السباع . ولا يسع بسبع الاخرج اليه ومهما رجال عليهم ليود فيدخلون الى الامد ويتناولونه بآيديهم من غابه عنوة وهو سليم فيضمونه في اتفاق من خشب محكمة الصنع يسع الواحد منها السبع وهو قائم . فإذا قدم خمارويه من الصيد سار الى القفص وفيه السبع بين يديه . وقد جمع في قصره عدة من السباع »<sup>(١)</sup>

ولما بلغ زكريا الى هنا لحظ ان دميانة لاتعيده التفاتها لان عينيها شائعتان خغو الباب . ولا تسل عن لفتها لما رأت سعيداً مقبلًا على فرس تعودت ان تراه مقبلًا عليه في طاء التل وقد جاء بعد خمارويه بنحو متى ذراع فلم تتأذك ان قالت « سعيد ! هذا هو سعيد .. ثم التباهت لنفسها والتفت الى حورها فلم تجد احداً غير زكريا فاطلعت خاطرها فقال لها زكريا « هذا هو سيدى البطل ..

فقالت وعيناها تلمعان والفرح يطعن من قلبها « زكريا .. هل تجد بين هؤلاء الفرسان اجمل من سعيد او اقرب منه الى القلب ؟ » ثم ندمت على هذه الخفة وتشاغلت بالشاهد وتبعمت مسير الموكب خغو المغار حيث بنيت العين . وملئت بعد خروج الموكب من الميدان ومسيره في الصحراء ان ابن طولون أشار الى سعيد فامر بالسباع حتى حاذاه واخذنا يخادثان فن ked قلبها يطير من الفرح واحست كاتها قبضت على السعادة يدها

وكان زكريا يراقب ما يبذلو منها ويفرح لفرحها وقلبه ينبعض إليها وينتفي لها السعادة ولو بذل نفسه في سبيل ذلك . فلما رأى فرحاها شاركتها فيه لكنه لم يكن من يستسلمون لظواهر الامور وقد علته الايام ان لا يفرح بالآمال الا بعد تحققها ولكنها ساير دميانة ووجه التفاتها الى مسير الموكب خغو العين

ولم تكن دميانة ترى من ذلك الجمجم غير سعيد تراعي حر كاته وسكناته وغضب الذين حوله اشباحاً لا اجسام لها . ولا تباعد الموكب عنها وقت ووقف زكريا واخذنا يتطاولان

(١) القرني ج ١

لشاهد مسير القوم فقالت دميانة « الى اين م ساترون ؟ اني ارام بعدوا كثيراً »

قال « الى العين يا سيدتي »

قالت « اين هي ؟ اني لا اراها ولا اعرف محلها »

قال « الا ترين المغافر هناك ؟ »

قالت « اراها لكنني لا اثبتتها ليهربة اشعة الشمس على صخورها »

فطاول بعنهه وفرس في المكان وقال « ألا ترين تلك البقعة المرصدة بشكل مربع

ان الاشعة تتلاعب عليها وتتعكس عنها »

قالت « نعم ارى البقعة وحوطها الجماهير من الناس وقوف »

قال « هؤلاء جماهير العامة ينتظرون وصول الموكب ليروا الماء يجري ويفرحوا به او

الفرح بمشاهدة الموكب وما معه من الاعلام او مساع الطبلول والابواق »

### مختصر

## الفصل الثامن والعشرون

### الانقلاب

وكان الموكب في اثناء ذلك قد اقترب من المغارف حتى اذا دنا من المصطبة حول المين  
تراجع الناس وتقدم ابن طولون وحده وترجل عند ذلك سعيد ومشى يزور يديه يريه  
هندسة البناء وكيف يجري فيه الماء . فشارعت عينا دميانة لرويه وتعجب بصرها من التحديق  
في اشعة الشمس . ولكنها كانت ترى ابن طولون يجول بفرسه على المصطبة وسعيد ينظر  
لها او يختفي وراء فرس ابن طولون

ومعه في ذلك رأت ابن طولون هو يحياده وسقط الى الارض فسقط قليلاً معه  
وصاحت باعلى صوتها بغير انتباه « باسم المسيح . باسم العذراء » وخافت ان يقع الجماد على  
سعيد فيؤديه على اتها ما لبست انت رأت ابن طولون نهض وقد وقعت فلسنته وتنفرت  
اثوابه . واذا هو اومأ الى الجند فتسارعوا الى سعيد وقبعوا عليه وشقوا ثيابه . وتناول  
احدم سوطاً واخذ يضربه ضرباً متواياً . فاحسنت دميانة كأن الفرب واقع على رأسها  
فلم ينتالك ان وقفت فجأة ولظمت وجهها بكفيها وهي تقول « ويلاه ماذا يفعلون . يضربون  
سعيداً .. آه ويلاه » واخذت فرانصها ترتمد ونبت موقعها وتحقق ذكرها انهم يضربون

سبداً ولافائدة من التكذيب فأخذ يخفف عنها ويغافلها وهي تقول «أني اراماً! سربونه» واثغر كان ذلك الضرب واقع على قلبي .. ويل لهم لما ذا يضربونه .. أوه .. أ .. جزاء المهرة ..

فامسك زكري يا يدها واجلها وقال «تهليلي يا ميسدي ربيتا نرى الحقيقة ولا بد» لذلك من سبب كوفي عائلة صبورة مثل عهدي بك .. اصبري ..  
ولما فرغوا من ضربه رأتهم يشدون وثاقه ثم ساقوه إلى المطبق وهي تنظر وقد جدد الدم في عروقها .. على أنها لمارانه حياً يتشي هذا روعها وكانت تخاف أن يموت من الضرب وتقدم زكري إليها ان تصبر ربيتا يبحث عن سبب هذه العاملة .. وأكيد لها انه طالما كان حياً فالامل بالقاده وظيفه ثم استاذتها في النهاي للبحث عن السبب فقالت «اذهب ..

نعم اذهب»

ثم تراجعت وقالت «لا .. لا ابقى هنا وحدى فيأتي ذلك نذل .. للا .. خذني معي .. ارجعني الى الدبر .. انه ابقى لي من ساعي الماكر ..» قالت ذلك وشرفت بدموعها

فامس زكري يا كان ممهماً احترق احشاءه ولكن نفاه بالاطهار وقال لها  
«لا ينبعي ان يغلب عليك اليأس الى هذا الحد ..»

وهو يقول ذلك ويهيم بفتح الباب الخروج بدمياءه سمع وآ خطوات تقترب نحو ذلك الباب فاضطربت دمياءه عند مجامعتها لعلها انها خطوات اسطوانوس واجلت وغولت وهي تود ان تلقى نفسها من نافذة تلك الغرفة ولا تواجه اسطوانوس لكنها تحبلت ووقفت حامدة كالصنم وهي تظاهر انها تنظر الى السماء .. وكان زكري يأخذ فتح اباب فدخل اسطوانوس وعل وجهه دلائل المسرعة والبغنة لكن البشر كان يجعل فوق ما رغم ما حاول اظهاره من الامس او الاستغراب .. واحست دمياءه عند رؤيتها كانت اعانتها في صدرها وقرأت الشفاعة والانتقام في عينيه وحول شفتيه ثغور ووجهها نحو النافذة واستندت راسها على احدى الاماطير وجعلت تلقي دموعها يتدليها وتكم البكاء

# الفصل التاسع والعشرون

## الشأنة

اما زكرياء فاستقبل اسطفانوس بالتعية يريد ان يطلع منه على شيء جديد لعله يعلم اسباب ما شاهده من الفرائض . فتقدم اسطفانوس الى ديميانة وهو يظهر التلطف ودار حفي يقابلها وجهها لوجه ثم رأها تبكي اظهر استغرابه وقال « ما بال ديميانة تبكي ؟ خيراً ان شاء الله .. هل تشعرين بالملائكة ؟ هل تشکین من شيء ؟ » . قولي فاني طوع امرك وبهذا اردت من علاج او ملطف فانه يحمل اليك .. »

فلم تزدد بهذا التلطف الا بكاء وحرقة لأنها عذته نكبة وتشفيها فظلت ساكتة فتحول اسطفانوس نحو زكرياء وقال « ما بالها .. قل لي يا زكرياء لأن امرها يهمني كاتعلم .. اين المعلم مرقس .. ما هو سبب بكائها ؟ »

قال زكرياء « لا اعلم السبب .. وانا اعلم اننا ونحن نشاهد الموكب وجاهير الناس رايها اطلقت دموعها وسألتها عن السبب فلم تعيسي .. وكنا عازمين على النهاب الى الدبر لترتاح لها تعبت من طول الجلوس .. »

فالتفت اليها وهو يحيط عثونه وقال « اخشى ان تكوني شاهدت ما اصاب جارك المسكين فنقدرت عملاً بحق الجوار .. »

فلا سمعت ديميانة عبارته المملوءة بالشأنة واللوم همت بانتهاره وتوبخه ولكن رغبتها في الاطلاع على السبب حلتها على السكت فتضاهرت بأنها لم تسمع شيئاً فقال زكرياء « اي مسكين نعمي يا ميدى ؟ »

قال « اعني جاركم سعيداً المهندس .. لم تشاهدوا ما فعلوه به ؟ »

قال « .. ماذا فعلوا ؟ »

فضحكت وهو يختلس النظر الى ديميانة يراعي ما يدوم منها وهي تشاغل بمحض دموعها واصلاح ثيابها فقال « بعد ان كان الوالي عازماً على مكافأته بالجوائز والمباث امر مجلده خمسمائة سوط وساقوه الى المطبق مقيداً بالاغلال »

فاظهر زكرياء انه لم يرى شيئاً من ذلك وقال « ولماذا ؟ ما هو سبب هذا الغضب ؟ »

قال « السبب انهم اكتشفوا على مكيدة دبرها لقتل ابن طولون .. »

قال زكر يا «مكيدة» ! واي مكيدة ؟

قال « بينما كان ابن طولون راكباً لشاهدته ببناء العين وصل جواهه إلى مكان يوم الاظفر انه مرفض فاقبل عليه ووقف عليه فإذا هو قصريه جير فلارطوبة الجير غاصت يد الفرس فيه ف kepها وسقط راكبه في الجير فلما انهم عمد ذلك ليقتل ابن طولون فامر به فشقوا ثيابه وضربوه خمساً ثم ساقوه مقلولاً إلى المطبق ولا ندرى ما يكون من امره في الغد »

فلا سمعت قوله بما فيه من حزن الشفاعة لم تناولك عن ان نظرت الى استطوانوس وقالت « ان سعيد لا يرتكب مثل هذه الخيانة ولا بد في الامر من خطأ »

فهز استطوانوس كتفيه نحو الأعلى وقال « خطأ او غير خطأ لا اعلم واغا اعلم ان ذلك المكين السب » الحظ . قد ضرب ٥٠٠ سوط وسيق الى المطبق واصبح الامل بجيشه ضعيفاً .. بالحقيقة ان حاته تدمي القلب .. واذا كنت تكين حاته فلا الومك .. مسكون .. » قال ذلك وهو يهز راسه ويظهر الاسف

فلم اعلمت ديماته انه يتهدى الخط من قدر سعيد ويوهمها انه مكين حزن تحول حزنهما عليه الى حُسْن له وهمت بالكار ذلك عليه فقالت « لا اراه في حاجة الى هذا التأسف قائم لا يليست ان تنظر برؤاه فيسود الى الحظوظي عند صاحب مصر .. ولم يفعل ابن طولون ما فعله الا لقضيه الموقت »

قالت ذلك وهي ترتعد ولم تتمكّن من تسيطع سيراً على الوقوف ولا ساعي ذلك الحديث فتحول نحو الباب وتحول زكر يا معها فقال استطوانوس « هل اذهب لابصالك الى الدبر ؟ الا ترين الافضل ان تأتي معي الى مزتنا وهو اقرب من الدبر ؟ »

فلم تغب عنه وظللت مائشة ومشي زكرييا في أثرها واستطوانوس يتبعها ويقول « اظن ديماته تستطيل الطريق الى يتنا وان كان قصيراً .. ولكنني ارجوان يقصر في عينيها وذلك خير لها من ان يكون طويلاً فتتعب في سلوكه اذا لا بد لها من الذهاب اليه » قال ذلك وضحك مستخفًا بغضبي وفورها .. قادرتك آه يشير الى قرب زواجه بها فظللت ساكتة وهي تمشي وزكرييا معها حتى خرجمت من قبة المرواء فلقيت اباها عاذراً فلما رآها بكى علم سبب بكائها فاستوقفها فوقت فلمت عليه وهي تتظاهر بصداع في رأسها واتهمها بخاتم الى الراحة فقال « لا بأس عليك .. تعالى نزل في بيت الملم حناه اقرب من دبر للملقة .. »

فقال زكريا « يظهر أنها ترثا في ذلك الدير لاستئنافها بالراحات » فوافقهما مرقى فأصرفا ودخل هو ملاقاً أسطفانوس فعم عليه ما دبره ودسه وان قصرية الحير أنها وضعت هناك يمساعيه حتى وصل إلى هذه النتيجة بالقبض على مناظره وزوجه في السجن فناء مرقى بالفوز وأخذنا يفكرا في تسين وقت الاكيليل لأن دميانة لا بد من رجوعها إلى رأي أبيها بعد أن بثت من سعيد

## الفصل السادس

### الصلوة

وصلت ديميانة إلى الدير وسارت إلى غرفتها لتبديل ثيابها ومكث زكريا ينتظر خروجها ليحلف عنها ويتواطأ معها على وسيلة لاتجاه من الفخ • فلما بثت أن رأها خرجت وسارت توأم إلى الكنيسة • سرت إلى الصلاة ملحة الحزاني وتعزية التكويرين • إذا لم يكن في الصلاة غير هذه التعزية لكتفي بها متسمًا لآمال المؤمن في ساعة شفته وحزنه • وقد صدق جمال الدين الأفغاني إذ قال « إن الذين يسلبون العامة إيمانهم إنما يحرمونهم من أكبر أسباب سعادتهم »

دخلت ديميانة الكنيسة وجشت أمام أيقونة العذراء وقلبها يتلوع حرقة مما فاسه في ذلك اليوم من التواب • وأخذت تصلي بامان ونique وتتضرع إلى صاحبة الإيقونة أن تأخذ يدها وتجدها من الجائل التي نصبوها لها • كانت تصلي ودموعها تنافطر على خديها فقرعت صدرها وتولست إلى الله أن يحمي حديها وينقذه من مكائد الدسسين • وطلبت إليه أن يلهم أباها الصواب لعله يعدل عن اكرامها على الزوج باسطفانوس إلى أن قال « اللهم أنت شفاعة وهم أقواء .. اللهم ألمع ما فيه مراثي .. اللهم لا احب أسطفانوس .. فهو في ذلك مقصية ؛ اذا كنت تراني مخطئة حبيه اليك وارني خطئي • ان سيداً رجل صالح فان كنت مخطئة اريه كما هو .. ابده عن قلبي .. » وكانت تقول ذلك بحرارة وهي تشرق بدموعها وليس في الكنيسة أحد يسمها وسكتت هنية وهي تتفحص ضميرها ثم قالت « ربى والطي أني لا ازال ارى سيداً هو النصيب الذي اعدته لي .. فان كان الامر كذلك اقذه بما وقع فيه .. اللهم افتده

كما أخذت مختاريك .. غير قلب ابن طولون حتى ينصفه ... أتوسل إليك باسم ابنك الوحيد الذي تجنبه من أجلا .. أي فتاة مسكنة مظلومة مقصومة الجناحين .. خذ يدي .. ألمعي ماذا أعمل .. كيف اتصرف أثر طرفي أني لا أريد معصيتك ولا أبغى الا رضاك .. وسكتت وتشاغلت بمحض دموعها

ثم أحسست بارتياح عظيم كأن هانفها في داخلها يقول لها « لا تخافي يا دمية الله لا يتركك » فهمست ومسحت دموعها وتحمّلت عن الآية قوتها طلب الخروج من الكنيسة فرأى ذكرها واقفاً بالباب وقد اطرق وباب الحزن في وجهه فلما وقع نظرها عليه أقسمت وأشرق عيالها وقد أطمناً بما وذهبت أحزانها

فادرك ذكرها يا إن ذلك كلّه من ثمار الصلاة فتقدّم إليها وهو يبسم وقال لها « انكلي على الله يا ميدي .. وهو نصر المظلومين »

فمشت وهي تقول « وعلي من انكل اذا .. انه لا يتركني ولا يغلى عني »

ثم سايرها ذكرها في طريقها وهو يقول لها « اتر بدين ان تصفي الى كلّة اقوطاك على انفراد ؟ »

قالت « نعم » ومشت الى غرفتها وكانت اهل الدبر شعروا بوجوب تخليتها فلم تشعر بضر ما واحدة من الرعبات ولا الرئبة .. فلما وصلت غرفتها ادخلت ذكرها وقالت « ماذا ت يريد »

قال « لا اريد شيئاً لا تعلميه .. هل لك ثقة بي ؟ »

قالت « كيف لا .. وهل لي احد سواك يا ذكرها يا .. انت في مقام الوالد والوالدة والاخ والاخت .. ان ما اشاهده من حنوك وعبيتك لي في هذا الفيق شاهد » صرّيج على ان الله لم يتعجل عني .. قل ما تشاء »

قال « ان اباك لا يلبيت ان يأتي وافتنه » سبّت محاجل الزوج فادا اظهرت له التور والمقاومة ..

فقطعت كلامه فائلة « وهل ت يريد ان اطاؤه ؟ »

قال « كلامه ليس هذا ما اريده » ولكنني اريد ان لا تصديه بعنف وإنما خذيه باللين فإذا اطاعك والا فاسكتي وعلّي تدبّر الباقى »

قالت « سافعل ذلك طالقى »

وهم ان يتكلّم وامسك نفسه كأنه تذكر شيئاً يمنع التصرّف بما في ضميره .. وكانت هي

تراعي حركاته فادوك تردد فاشتاقت الى الاطلاع على ما خطر له فقالت « ما بالك توقفت عن الكلام ؟ »

قال « لم اتوقف .. ولكن لكل امر وقتاً »

قالت « لا صبر لي على الانتظار اخترني عما خطر لك لعله يخفف عنى »

قال « لم .. اني لم اطلب اليك السكوت والامانة الا وبها يصلنا النصر »

قالت « وأي نصر .. من ينصرنا على هؤلاء ؟ »

قال « ينصرنا عليهم ابوتا البطريق .. أليس كذلك ؟ »

فرحت بهذه الفكرة وقالت « وان لنا الوسول اليه وهو بيد ؟ »

قال « لا نعد رسول الله وقد فعلت ولم آخذ الجواب .. وسأخذه قريباً ..

والمراد انه لا يبني لك ان تتأسى »

فشرق وجهها واطمأن بالها وقالت « سافل بما اشرت »

قال « هل تعطييني بكل ما اقوله وتذهبين معي الى حيث اريد ؟ »

قالت « نعم »

واما في ذلك سمعاً وقع اقدام عرفت دميانت أنها اقدام والدها وتأكيد ذلك من صوت فتحته فاجفلت فتركها زكريا في الغرفة وحدها وانصرف وهو يشجعها ويخفف عنها

## الفصل الخامس والثلاثون

### الاكيل

اما هي بخلست تنتظر وصول والدها فطال انتظارها ولم تعد تسمع صوته . فهمت بالنهوض واذا هي بالرئيسة قادمة نحوها فوقفت لها وحيتها فقالت الرئيسة « ان المعلم مرقس وميدنا الاسقف ايا وسألاني عنك .. هبئا لك ما اكبر حظك من سيدنا فانه يمجيك ويرعاك »

فلا سمعت ذلك احست بشعرية ارتعدت لها فرائصها وظهرت البشارة في وجهها وحدثها نفسها ان ترفض المقابلة ولكنها نذكرت نصيحة زكريا فسكتت ولم تجب فعادت الرئيسة الى الكلام قائلة « أراك لم تتعجب بشارقي كانك لا تريدين ان تقابلني احداً منها

واسميحك عذرًا في كلة قوماً هل تأذنن لي ؟ «  
قالت « قولى »

قالت « سلطنت امرأً فيك لم يعجبني لعلك فتاة عاقلة نقية قد ثبنت كتاب الله وعرفت واجبات المسيحيين »  
فما متغير بت ديميانة ما أسمعه منها ولم تفهم مرادها فقالت « ارشدبني يا أماء الى الصواب »

قالت « الصواب يا ديميانة إن لا تغضي إياك لأن الله يوصينا بأكرام الوالدين »  
فوقع قوله في نفسها وقوع التبل في الصدر لأنها كانت كثيرة التقوى فأثر توبيخ الرئيس فيها ثم تذكرت صلاتها في ذلك اليوم واتساعها أن الله لا يربد ان تسلم نفسها لابيها  
فقالت « أفي لم أغضب والدي وبعاذًا أغضبته ؟ »  
قالت « قد عملت ذلك من فرائين الاحوال . عملت ان والدك يربذ زواجه باحد ابناء اخلاصه وانت ترافقين »

قالت « أتخبين الفتاة التي ترفض الزواج عاصية ؟ «  
فادركت الرئيس أنها تشير إلى الرعبنة فقالت « الاً اذا كانت تريد ان تنشر العفة وتنقطع عن العالم »

قالت « وما ادركك أفي لا اتني ذلك .. لا يبعد ان انبوه عن قربك » ثم تذكرت قول زكريا فامست دركت وقالت « وع ذلك ان هذه الدور لا تكون الا بالهام من الله واليد المسيح فإذا اراد الله امراً لا مفر من ارادته »

فتوسمت الرئيس من كلامها الدين فاكتبت عليها وقبلتها وهي تقول « بارك الله فيك . هذا عهدك بثقوتك وطيب عصرك . فالآن قد اتي والدك وممه ميدنا الاسقف وهذا في انتظارك بغرفني .. قومي معي . قبلي بد الاستف ويد والدك .. قومي »

قالت ذلك واسكتها يدها فاطاعتتها ومشت والرئيس تحب نفسها قد اقمعتها فلما دخلت عليهما تقدمت توبًا الى بد الاستف قبلتها ثم قبلت بد والدعا فقبلها مرسى وقد اطنان خاطره ورحب بها وبالن في أكرامها ودعاهما الى جانبها وقال « اتفدي هنا يا ديميانة يا ولدي »

فقدت على العلنست بجانبه وهي مطرقة وقد صبغ الحياة وجهها فضلاً عن احرار عينيها من البكاء ولذلك كانت تحجبها بالاطراق . وما جلت خاطبيها الاستف قائلاً « لقد

سرني يا ولدي ما عقدت الية عليه .. وفي صباح الفد ناني ان شاء الله اعقد الاكيل »  
 فاجعلت ديميانة هذه المفاجأة ولم تكن تتوقع ان تسمع هذه العبارة حالاً فافتلت في  
 الامطار وبيان فيها الحياة ولم تجوب ذاتي انت الاستفف الكلام فائلاً « اني قد تمودت  
 هذا السكت في العرائس فأنهن لا يجبن على كلامنا بغيره .. على اني لم اكن انوقي مثل غير  
 الایجاب ولو بالسكت فان من كانت في مثل ما انت فيه من التقوى وحسن التربية لا  
 تستشار في امر يريده والدها ويتوسط بوريس كينستها .. ولكنني اجل قدرك واحب ان  
 تكوني مسروورة من النصب الذي اختناء لك .. ويكفي ان نظيري رضاك بالسكت »  
 وكانت ديميانة تسمع كلامه وهي تكاد تتميز من الغيظ وارادت ان تستهل الاكيل  
 كما اشار عليها زكرياء فلنجسر على التكلم حياً وخرقاً وحدثتها نفسها ان ترفض جاناً وتكتشف  
 اباهَا بذلك صريحًا فغلب عليها الطوف والحياة لانه لم يكن يشجعها على مثل ذلك من قبل  
 ورأيت من قرائن الاحوال ان كلامها لا يفيد شيئاً فتاشكت وطللت ساكتة فالخد والدها سكتها  
 دليلاً على القبول واعتقد قبولاً لما علمه من مصدر سعيد فتوم انها لما قطعت الامل منه  
 رضيت باسطفانوس فقال مخاطباً الاستفف « لم اكن اشك بطاعة ديميانة لوالدها ولخلفه  
 الاستفف ولكن بعض الناس كان يزين لها الباطل والظاهر انها رجمت الى الصواب .. وكل  
 ذلك من تدبير العناية »

قال الاستفف « رب اكانت ديميانة تفضل ان تقام الافراح في بيت والدها ولكنها  
 ستقام هناك ايضًا ولما اردنا عقد الاكيل هنا في هذه الكنيسة لما لها من الكرامة  
 المخصوصية واحب ان اتولى عقد ذلك بنفسى اكراماً لمقام العريس .. ففداً ان شاء الله  
 ناني وارجو ان يكون عملنا مباركاً » قال ذلك ووقف فرقف مرقس احتفاء به ووقفت  
 ديميانة فقال لها ابوها « قبل بـ الاستفف واشكر بـ على تعبه وعنابته في هذا الامر »  
 فقبلت يده فقبل رأسها وخرج وخرجت الرئيسة لوداعه مع مرقس ثم عادت وهي  
 تضحك تحكم الفوز بما كانت تفتنه وضمت ديميانة الى صدرها وقالت « يظهر ان كلامي اثير  
 فيك »

وكان والدها قد رجع من وداع الاستفف فقال لديمانة « بورك فيك يا بنتي .. ذلك  
 كان عبودي بك من اول الامر فانا الان ذاهب لاعداد ما يلزم للاحتفال وفي صباح الفد  
 اعود اليك وتفرح معاً » قال ذلك وخرج

## الفصل الثاني والثلاثون

### ابن ديميانة

فلا خلت ب نفسها اخذت تفكرا بما سمعته و كانت تتوقع ان ترى ذكرها بين يديها لتعصى عليه ما جرى فلم تجدء فقضت بقية ذلك اليوم في انتظاره اما مرقى فإنه سار توالي على استطافاتوس واخبره بقبول ديميانة . . فاعتقد أنها لم تقبل به الا بعد أيامها من سعيد فلزم على الانتقام منها لاستحقاقها به وهو يرى ذلك هيئاً بعد ان تصبح في عصمته ولم يكن يتنبه عن اياته مروءة او اربجية فان هذه السجايا لا معنى لها في اعتباره لكنه اشترك مع مرقى في اعداد معدات الفرح من الشموع والزهور وغيرها وارسلوها الى الدبر

واخذت رئيسة الدبر في تهيئتها ما يلزم لتزبين العروس في الصباح وبات اهل الدبر على أن يصيغوا في اليوم التالي لظهور الاكيل وسماع الترانيم وكان أكثرهن رغبة في ذلك الرئيسة لأنها كانت تحب ديميانة وتعتبر نفسها بمنزلة والدتها وخصوصاً بعد ان نصحتها تلك النصيحة وتصورت أنها اصطفت لقولها وعدت ذلك احتراماً لها فلما طلعت النهار مسحت الى غرفة ديميانة لتدعوها الى الاستعداد وتربيها ما حلوه اليها من مواد الزينة فرأيت باب الغرفة لا يزال مغلقاً فقرعه فلم يجب أحد فظننتها لا زالت نائمة فرجعت وفكرت في هل تتركها حتى تستيقظ من نفسها ثم رأت الوقت لا يأذن بذلك . فعادت وقرعت الباب ثانية فلم تسمع جواباً فوقت تفكراً واذا بالملم مرقى قادم فسألها عن ديميانة فقالت « لا زالت نائمة »

فقدم الى الباب وفتحه ودخل فدخلت الرئيسة معه فلم يجدوا في الغرفة احداً ولم يجدوا في الفراش ما يبدل أنها نامت فيه تلك الليلة فقال مرقى « يظهر أنها لم تكن هنا . . فلعلها نامت في غرفة أخرى »

فقالت الرئيسة « هذه غرفتها نام فيها منذ آتنا فريباً غيرتها الليلة » قالت ذلك ومشت الى غرفة أخرى كانت مجلس فيها في بعض النهار فلم تجدتها . فأخذت تأسى عنها الراهبات وهن يفتشن معها حتى ضج اهل الدبر وهم يفتشنون ويسألون فلم يتفقوا على اثر

وأسأله انخدم عن ذكر يا فقاوا انهم لم يروه من ماء الامس فاستقدموا الباب وسألوه فقال «ان السيدة ديميانة خرجت في ماء الامس الى كنيسة الى مسحة لان عليها ندراما قد آن وفاؤه — خرجت ومعها خادمتها»

قصدت الرئيس ذلك لسلامة زيتها وظلت الندر يتعلق بزواجها ولم تبق فرصة لتأجيل وفاته اما مرسى فلما سمع ذلك رجع الى الترفة وفتح في ثياب ابنته واشياها فرأها قد اخذت ما خف حمله وترك ما تستنقى عنه فقال «انها قد هربت مع ذلك النبي اللعين انه عاد فاغراها على الفرار... ولكن الى اين يفران ان القساطط وبابلون والقططان في قبة استفانوس وايه»

قالت الرئيس «لا تجل يا سيدى لها ذهبت الى كنيسة الى مسحة حقيقة ان الكنيسة على مسافة قصيرة من هنا فلتسأل عنها»

قال «اسألي اذا شئت... ولكنني على يقين من فرارها... وادا كانت ذهبت لزيارة وفاة نفر فهل تأخذ منها ثيابها ومصالحها وهل تبيت هناك وتبقى حتى الان وقد دخلنا في الصحن؟... ان ذلك النبي اللعين اغراها على الفرار... ولكن...» قال ذلك وهو يهز رأسه وينعد وخرج توًما يتسمى استفانوس فالتفيا بالباب وكانت قادماً للاشراك في معدان العرس فقص عليه ما جرى وختم قوله بالقصمة على ذكر يا لاه اغراها... فاجابه استفانوس «لا تحمل الذنب لذلك النبي... انها ما زالت كما اعدها... ولكنني سأعملها من

هو استفانوس وسأعلم خادمتها الاسود ايضاً — دعني اذهب لتعديل ذلك...» وخرج وخرج مرسى معه فاراناً الى القططان واشتكي الى صاحب الشرطة ان خادماً مرسى ابنة المعلم استفانوس وفر بها وطلبها من ينتش عنها في الدبور او المازل او الكنائس... ونظر اقام بوندا والد استفانوس في الدولة اجاب صاحب الشرطة طلبه بث الرجال في اخاء القططان ولا سيما في احياء النماري لاعتقادهم ان القارئين لا يجدان ملجأ في غير الدبور او الكنائس او بعض مساكن القبط من الامل او الاصدقاء

فاصبح الاقباط في ذلك اليوم وهم يرون الجند وغير الجند يدخلون منازلهم للتقبيل عن المارين واكتفهم بتخذلون تلك الحجارة ذريعة لدخول المازل او الكنائس او الدبور وينهون ما تصل اليه ايديهم من المال او غيره... فضج الناس وعلا الصياخ واخذ القوم يتساءلون هل عاد زمن الظلم والاضطهاد زمن التهب والقتل وكانوا يحسبون ابن طولون كفاهم مؤونة ذلك ونشر الراحة والعلاء أينما في ربوعهم وامتهم على ارواحهم واموالهم

ولم يقنعهم ما كان يقوله الشرطة من انهم يغتسلون عن سارق هرب واحتياً فانهم كثيراً ما كانوا يغسرون الاخطاء والتهب بهذه الحجة وكان مرقن واستطاع ان يرافق الشرطة الى بعض الاماكن القريبة التي يرجحون التجاة، ديمياته المعاوغر شأن الجندي على التقىش وعذلاه لا يبالون بغير التهب فقاموا الاقباط في القسمات وبابلون وخواجهم من العذاب والاضطهاد والخوف مالم يغمسوه منه هم بعده فوقع الرعب في قلوب الناس وركب بعض وجوههم الى ابن طولون يشكون اليه ما اصابهم فتنبأ وبعث الى صاحب الشرطة ان يرجع رجاله عن التعدي فعل ولكن بعد ان تالوا ما يريدون ولم يقنعوا بالهاربين على اثر

### الفصل الثالث والثلاثون

#### حلوان

اما ديمياتة فكانت قد فرت مع زكري الى مكان اعد لها في اثناء غيابها عنها في اسفل الامن وذلك انه لما رأى والدهما والاستخف قد اخذها في عذابها علم انهم آتيا لاغرام امر الاكيليل فسار الى صديقه له من اهل بلده كان قد اعتنق الاسلام واقام بجوار المسجد الذي كان قد بناء ابن طولون على المقطعم قبل بناء مسجدده الشهور وكان يتنبأ به وانما اختار ذلك المكان لبعده ولعلمه ان الشرطة لا يبحث عنهم في المسجد وعاد الى ديمياتة في المساء واخبرها ان القرار لابد منه فاستخرت اعز ما لديها وخرجت في المساء من الدبر بمحلة زيارة ابي سرجه كما تقدم وكان قد اعد فرساً لدمياتة وركب هو على حمار حتى اذا خرج من المحلة البسها عباءة وجعل على رأسها شبه عمامة بما يجعلها تظاهر بعظهر الرجال وساق حماره امامها حتى تزلا المكان المهدود فلاقتها صاحبها بالترحاب وبياناً هناك وفي الصباح ايضاً ينتظر ان ما يكون فاعلاً ان سمعاً بعثابة الجندي على البد وان المسلمين دخلوا منازل النصارى بمحلة التقىش عن شائع أو هارب وانما يريدون التهب و منهم من سدق دعوى الجندي و منهم من ظنها ذريعة للتهب واطلب ذكرى من بعض الاماكن على الطريق فرأى الجندي يدخلون البيوت بالقوة تناهى ان يصل احد الى مقره فرأى من المحكمة ابداله

وكان له صديق عربى في حلوان اسمه قيدان أصله من أهل الباذة يقيم في منزل وله عبد العزى زين مروان لأجداده منذ وجده عناته إلى تعمير تلك البلدة في أيامه أمارة مصر . وانتقل ذلك المنزل في اعقابه إلى رجل عرفه زكريا من سنتين عديدة وله صداقه وشقيقة العزيز فرأى أن يرجع إليه ولا سيما لأنها يقيم مع عائلة فيها أمه وأسرته فتناول ديماتها بهما وإذا غاب عنها في يوم .. كان مطمئنًا لخطائر عليها . وفي صباح اليوم التالي وفع ساحبه وركب مع ديماتها إلى حلوان بطريق الصحراء وما في الطريق قالت ديمات « تراني يا زكريا قد سلمت لك قيادي أذهب معك إلى حيث تريد لا أسألك عن السبب » قال « كوني على ثقة يا سيدتي أني آتتني في سبيل راحتكم ولا تخزعوني فلأنني ساع في كل ما يرضيك »

قالت « ألى ابن نحن ذاهبون الآن ؟ »

قال « ألى حلوان ٠٠٠ وهو بلد طيب الماء بعيد عن مطان الباحثين وسترين هناك مائة تستعين بها وترتاحين إليها فلنها صربية بدوية »

قالت « وبعد ذلك »

قال « بعد ذلك ٠٠٠ ؟ ، وأطرق ثم قال « إن الفرج سيأتينا ولا بد من انتظاره . ولابد لي في كل حال من النياض عنك يوماً أو يومين لامر لا بد لي من قضاة ثم أعود إليك وعسايـ ان ابشرك بالفرج بعد قليل »

قالت « تزكىـ ٠٠٠ وتتيب عنـ يومين ؟ »

قال « لا مندوحة لي عن ذلك لأنـ ذاهب فيـ يومـة علىـها يتوقفـ نجاحـنا وبـها تـقلبـ عـلـىـ اـعـدـاتـاـ ولاـ باـسـ عـلـيـكـ انـ كـنـتـ عـنـ اـحـبـاـ فيـ حلـوانـ ٠٠٠ »

فـسـكـتـ وـبـدـ قـلـيلـ اـطـلـواـ عـلـ حلـوانـ وـمـ يـكـ فـيـهاـ الاـ بـيـوتـ قـلـيلـ فـيـمـاـ مـضـرـيـاـ عـلـ اـكـهـ حـولـهـ حـدـيقـةـ فـتـرـجـلـ زـكـرـيـاـ وـمـشـيـ خـوـ المـحـمـيـةـ وـقـبـلـ وـسـولـهـ كـانـ سـاحـبـهـ قـدـ شـعـ بـقـدـومـهـ مـنـ نـيـاجـ الـكـلـابـ خـرـجـ إـلـيـهـ وـلـمـ يـعـيـنـهـ يـالـغـ فـيـ التـرـحـيبـ بـهـ فـقـالـ لـهـ « نـحنـ مـسـافـرـونـ إـلـيـ الصـعـيـدـ وـأـجـبـنـاـ التـرـيـعـ عـلـيـكـ لـأـيـ اـشـتـفـتـ لـرـؤـيـتكـ وـمـيـ سـيـدةـ آـنـ ذـاهـبـ فـيـ خـدـمـهـاـ قـدـيـتـ عـنـدـكـ الـلـيـلـةـ ثـمـ نـصـرـفـ »

فـصـاحـ الرـجـلـ بـأـوـلـادـهـ أـنـ يـنـزلـوـ الشـيفـينـ وـقـالـ « بـلـ تـقـيـانـ عـنـدـنـاـ إـيـامـاـ »

وـنـزـلـ دـيمـاتـ فـرـحـتـ بـهـ اـمـرـأـ الرـجـلـ وـحـيـهـ وـاسـتـأـنـتـ بـهـ وـلـاـ تـسـلـ عـنـ ضـيـاءـ الـرـبـ وـحـسـنـ وـقـادـهـمـ وـكـانـواـ يـكـلـمـهـ بـالـمـرـيـدـ وـتـكـلـمـهـ بـهـ عـلـىـ ضـعـفـ وـقـيـدـهـ

التالي اظهر زكريا انه عازم على الذهاب في مهمة مستجدة ونقدم الى ساحب المنزل وأوصاه بدمياء فقال « تقدّمها بارواحتنا فهي الان ساحة المنزل وعمن اضيافها ٠٠٠ » وقبل ذهابه اختلى بدمياء واخبرها انه ذاهب في مهمة لا يد منها وسدد يومين او ثلاثة وسالها هل استأنست باهل المنزل فقالت « لم اكن اظن العرب على هذه الاخلاق اذنم اكثرا من انتقاد اعماهم ممنا بالذهب والسلب فاذما هم اهل كرم ولطف » فقال « ان العربي يا مولاني اذا نزلت داره اصبح عبوروأ بحكم العادة النية عندهم ان يدافعوا عنك بنفسه واهلها وينديك بروحه » وهو ما يسمونه في اصطلاحهم حق الجواره وهل تظنين ادانتي جند ابن طولون كلام يقدرون ان ياخذوك او يأخذونني من عنده وهو حي ٤٠ انه لا يزال يقاتل عساكيريوت او يستدنهما ٠ اقول ذلك لاريدك طائفة فاتت في هذا الحباء أأمن منك في حصن حسين فاسمح لي بالذهب وساعود قريباً وورغم ما سمعته من بواعت الطائفة خالاً لخفت عزمه على الذهاب اقبضت نفسها فاختذ يشجعها ومتذر عن اضراره الى الذهاب الى ان قال « وعلى غيابي هذا شوق سعادتك في المستقبل وبه قلب اعداءنا »

قالت « اذا لم يكن بذلك من ذلك فافعل ٠ ٠٠ اطلب الى الله ان يكون معك والسيد المسيح يحرسك ويوفنك »

## الفصل الرابع والثلاثون

### السر المهم

فودعها وخرج واحت بعد خروجه بأفرادها هناك وتقربت والدها وبيتها وكيف أصبحت طريدة شريدة بعد ان كانت ربة منزلها في طاه المنزل وحولها الخدم والخدم ٠٠ وأصبحت لا تعلم هل تعود الى تلك الدار ام لا ٠ على ان قعدان واهل بيته لم يتمكنوا لها فرصة للاستيقاظ فكانوا يبنلون وسهم في سبيل راحتها صغيرهم وكبارهم اما زكرييا فانه تذكر وركب حاراً حتى اذا بعد عن الفسطاط ركب زورقاً وسار يلتمس طاه التعلم وفضل ركوب الزورق لسرعة حرره مع تيار النيل ٠ فلما اشرف على القرية لبس زيابه ونزل يلتمس بيت المعلم مرقس كانه قادم من قبله في مهمة خصوصية وكان اذا دخل المنزل لا يجسر احد من اهله ان يسأله عما ي يريد لانطلاق يده في شؤون

اليت . فلقيه الحسن والشاعر فسألوه عن المعلم مرسى فأخبرهم أنه مقيم في القسطنطيني  
مع دميانة أيامه ثم دخل غرفة خصوصية يبرهنها وأقبل إليها وفتح مندوفاً استخرج من  
أنبوباً من الفضة مختوماً هزه حتى تتحقق أن ما يشهد في داخله لا يزال فيه ثم خباء في  
جيبيه وخرج

وهو خارج من بيت أبي الحسن فوجده خارجاً من منزله ليتشئ في الحديقة على  
جاري عادته وآنس في وجهه اقباضاً فلم سب اقباضه ولم يكن يشك أنه كان في جهة  
الذين شهدوا الاختفال بالامس وأنه شاهد ما أصاب سعيداً وهو يعلم أنه بمزرعة ولده فقدم  
نحوه فلما رأه أبو الحسن نحول إليه فقدم ذكريها وهم متقبيل يده فتحه ورحب به وسأله إذا  
كان مولاً أتى منه فقال « كلا ياسيدي أنه لا يزال في القسطنطيني اظنك كنت هناك »

فهز أبو الحسن رأسه بمرارة وقال « نعم كنت هناك وقد رجمت البارحة »  
قال « فإذا شاءت ما أصاب سعيداً »

قال « نعم شاءت ذلك المنظر المؤلم .. ولكنهم سوف يندمون »  
فرح ذكري بال بشارة أعلمه أن إبا الحسن لا يقول جزاها فقال « صحيح »  
بشرك الله بالخير »

قال « نعم انهم سيندمون لأنهم لا يجدون من يغتتهم عن سعيد .. اذ ليس في هذه  
البلاد من يعرف معرفته بالمندمة »  
قال « ولكنهم ساقوه إلى السجن »

قال « ليس السجن عاراً على الرجال .. انهم لا بلذون ان يخرجوه مكرماً معززاً »  
قال « وكيف ذلك ومني؟ »  
فقدم نحوه وهو يقول « ان ابن طولون عازم على بناء جامع كبير في القطاعين ولن يجد  
من يحسن هندسته غير سعيد »

قال « وهل يعرف ابن طولون ذلك؟ »

قال « لا يليث ان يعرفه حق احتاج اليه »

فاطرق ذكري بأكتنه فتح عليه باب الفرج ثم ودع إبا الحسن وانصرف إلى فرس من  
افراس مرسى ركبه وطلب القسطنطيني فلبى اهل عليا تراك الفرس في خان وحدثه نفسه  
ان يسير توياً إلى حلوان لمشاهدة دميانة لكنه أحب أن يتم ما جال في خاطره أولاً ثم يعود  
إليها بال بشارة

## الفصل الخامس والثلاثون

### صدقات ابن طولون

تذكر زكريا بلياس القراء الشولين ومشى الى القطائع واتفق وصوله الى قصر ابن طولون في ساعة تفريغ الصدقات

وكان لابن طولون في الاحسان يوم مشهور يعرف يوم الصدقة فتح به ابواب القصر كلها لايمنع داخلاً ولا يرد سائل . وكانت صدقاته على اهل السن وعلي الضعفاء والقراء وأهل التجمل متواترة . وكان راتبه لذلك في كل شهر اغبي دينار سوى ما يطرأ عليه من التضور وسدقات الشرك على تجديد العمارة . وسوى مطابعاته التي أقيمت في كل يوم للصدقات في داره وغيرها يدفع فيها البقر والذباش ويعرف الناس في القدور الفخار والقصاع . على كل قدر او قصبة لكل مسكن اربعة ارغفة في اثنين منها فالوذق والآثاث الآخران على القدر . وكانت تصل في داره ويتناولون من أحباب ان يحضر دار الامير فلبحضر وفتح الابواب ودخل الناس اليهان وابن طولون في مجلسه الذي يشرف منه على الناس فيظر الى الساكنين ويتأمل فرحمهم بما يأكلون او يعملون فيسره ذلك ويعمله الله على نعمته . ولقد قال له مرة ابراهيم بن قراطمان وكان على صدقاته « أيد الله الامير اذا عُذف في الواقع التي ترق فيها الصدقة فتخرج لنا الكف الناعمة المخصوصة فتنـأ والمعصم الرائع في الجديدة والكتف فيها الحائم » فقال « يا هذـا كل من مد يده اليك فاعطـه فـهـي الطيبة المستورة التي ذكرها الله سبحانه وتعالـى في كتابه فقال يحيى الجامل اعنيه من التسفـف فاصـفـر ان زـدـ يـدـاـ امـتـدـ اليـكـ واعـطـ كلـ منـ يـطـلـبـ منـكـ »<sup>(١)</sup>

فـلـما وصل زـكـرياـ اليـ ذـلـكـ المـكـانـ رـأـيـ ابنـ طـولـونـ قـاعـداـ فـيـ المـلـىـسـ الشـارـيـ بـيـنـ سـوتـوـنـ وـقـيـاـهـ عـلـىـ وـسـادـةـ وـقـدـ تـهـلـلـ وـجـهـ سـرـورـاـ بـاـ يـشـاهـدـهـ مـنـ اـنـارـتـهـ عـلـىـ النـاسـ . وـكـانـ زـكـرياـ عـلـىـ اـنـ يـطـلـبـ مـقـابـلـهـ وـيـخـاطـبـ رـاسـاـ فـمـلـ اـنـ لـاسـيـلـ اـلـيـ مـقـابـلـهـ فـيـ ذـلـكـ السـاعـةـ فـأـجـلـ ذـلـكـ اـلـيـ الـفـدـ . وـخـوـفـاـ مـنـ وـقـعـ الشـهـةـ عـلـيـهـ قـدـمـ فـيـ جـهـ طـلـابـ الصـدـقةـ فـدـ يـدـهـ فـالـ حـظـهـ فـاـكـلـ وـهـ كـيـفـاـ غـرـبـ يـفـتـقـدـ الـاسـبـوـبـ وـكـانـ قـدـ عـلـقـهـ بـحـلـ فـيـ عـنـةـ

(١) التـفـريـزـيـ ٣١٦ـ جـ ١

وذهبها داخل أنواه تحت ذراعه

وهو في ذلك رأى الناس يومئون إلى مجلس الوالي فنظر فإذا هم يشرون إلى رجل دخل عليه عرق من لباسه وقيااته أنه المعلم هنا كاتب المداراني ورأء يحمل يده درجاً ملفوقاً بتعديل من الخرير فاعتبر أين طولون لدخوله وأصرف بكلته إليه وأسرمه أن ينشد على وسادة بجانبه فقدم متادباً واستاذه في اطلاعه على الدرج فرضي . فحمله وبشهادة يتحادثن ويتناقشان على ما يحويه النوج ولحظ ذكرها أن الكاتب يحاول اثبات أين طولون بشيء مخطوط في الدرج وهو لا يفتح . واخيراً حول أحد وجهه عن الكاتب وأنصرف إلى مساعدة الجاهير ولسان حاله يقول « هنا لا يصحبني السلام »

ولم يستطع ذكرها مساعدة ما على الدرج لأن جابه عن بصره فأصبح في شوق إلى استطلاع ذلك وإذا بالناس يسعون لقادم يطلب الخروج من القصر فتحي والفت فرائ المعلم هنا خارجاً وبجانبه ابنه أسطفانوس قد تأبط المقافة ومشيا بفت ذكر بالرقة أسطفانوس ولكنه بالغ في التفكير واقتضى أرها خلة لم يسمع كلة . حق إذا أين متفرجاً من الطريق افترقا والكاتب يقول لابنه « ماذا نعمل له ؟ لا أظن في الدنيا أحداً يستطيع أجابة طلبه — جامع بلا أعمدة ؟ هنا اص غرب »

قال أسطفانوس « هو يريد أن يبني جامعاً بلا أباطين »

قال « نعم وقد استشرت أمهر المهندسين الموجودين في الفسلطان و منهم من عمل في القسطنطينية أو نخرج في بغداد وقد شهد الناس لهم بالمهارة . وهذه الخريطة عليها رسم جامع في أجمل ما يليه إمكانهم فلم ينجبه قائم يريد أن يكون جامعاً بلا أباطين »

قال أسطفانوس « ولماذا ؟ لماذا لم يفعل كما فعل عمرو بن العاص يبناء جامعاً بلا أباطين »

قطع حنا كلامه قائلاً « إن والي الناعم إلى هذه الطريقة حق يتوجب ما وقع فيه غمرة »

فهز أسطفانوس رأسه وظل مائياً في طريقه ورجع ذكرها إلى موقعه وقد قطع عليه باب الفرج وادرك الطريق الذي يمكن الوصول به إلى أقصاد سعيد وعادت إلى هواجه وعاد إلى الألس المدام الذي جاء من أجله وذكر دميانت وطفها إلى رجوعه وادعه الأذوب فوجده في مكانه فاطسان بالله لعلمه ان دميانت مهملة من فلتهم وضرطها في هذا الأذوب ما يختلف عنها . وشغل حاطره من الجهة الأخرى بين كان يزاحمه من وفود المسؤولين وأهل العوز على تناوت طبقاتهم

# الفصل السادس والثلاثون

## النظر في المظالم

حتى اذا اتفقى وقت الصدقة وقد آذنت الشمس بالمشيب انقلت الايواب وتحول ابن طولون عن مجده فانصرف رُكريا الى اخلاقن بات فيه وبكر في الصباح الثاني . وخفقا من ان يراه اسطوانوس مرة ثانية بلباس الغد فغيره تذكر بلباس نوبي قادم من سفر ويشكون من ذكه الاسفل فربطه دياضلاً كالمغار يجحب معظم راسه . والثف بشملة من زجاج القطن الايوب المعروف عدم بالعمور ومشي حانياً مشية غريب يدعشه كل شيء حتى ابيه ياب الفعر فأ قال المراس الرقوف به عن الوالي ابن يكون فقال له احمد « انه لا يتماطلي اليوم غير النظر في المظالم »

ولم يكن رُكريا يعرف تلك العادة لان ابن طولون اول من نظر في المظالم من امراء مصر <sup>(١)</sup> ولم يكن رُكريا يفهم المراد من المظالم والنظر فيها فاستفهم المرسي قائلاً « وما معنى هذا العمل عندكم »

قال المرسي « يظهر من بلادك ويفاقدك انك غريب الديار فلا عجب اذا كنت لا تعرف معنى هذا العمل .. اعمل يا صاحبي ان مولانا الامير نظراً لرغبته في المعاشرة على حقوق رعيته وخفقا من ان يهدى احد من عماله او كتابه او رجال حكومته على احد الناس فيظلمه او يؤذيه قد خصص حفظه الله يومين في الاسبوع لسباع شؤون المتشابلين بنفسه واصافهم »

فذهب رُكريا لسباع ذلك ولم يكن معه بليله في مصر ولا في غيرها و كان المرسي يخاطبه وينظر اليه وهو يتوقع استفهامه واجابه فيما رأى دعوه استطرد الكلام قائلاً « اراك تستغرب هذه المنة في اميرنا ولا عجب في استفهامك لأنكم لا تعرفون مثلها في بلادكم فانها من حسنات الاسلام حتى لا يظلم احد استظل به »

فقطن زكر يا لاسطوانوس وما ااته من الاذى لمعيادة فقال في نفسه « هل اشك بابن طولون ؟ » لكنه خاف وتردد ورجع الى الترفس الذي جاء به ولم يعد يرى تأجيل مقابلة ابن طولون فلزم على ان يدخل عليه في جملة المتشابلين ثم يمثال في مخاطبته بشأن

سعيد وبناء الجامع

فأَلْرَمِيَّ عن المَكَانِ الَّذِي يُجْلِسُ فِيهِ الْوَالِيَ النَّظَرَ فِي الْمَظَالِمِ فَأَوْمَأَ إِلَى بَابِ هَذِهِ  
الْحِجَابِ وَقَدْ تَكَاهَ النَّاسُ حَوْلَمْ وَهُمْ يَدْخُلُونَهُمْ بِالنَّدْرَوْجِ فَنَقْدَمْ زَكْرِيَا وَوَقَفَ فِي جَلَةِ  
الْوَاقِفِينَ وَصَبَرَ حَتَّى اَنْصَرَفَ أَكْثَرُ النَّاسِ فَطَلَبَ الدُّخُولَ فَإِذَا لَهُ فَدْخُلٌ وَعَلَيْهِ قِيَافَةُ الْهَداَةِ  
فَأَعْطَلَ عَلَى مَجْلِسِ اِبْنِ طَلُونَ فِي قَاعَةِ مَفْرُوشَةِ بِالْمَطَافِسِ فِي صَدْرِهَا كَرْمِيٌّ كَبِيرٌ قَدْ جَلَسَ عَلَيْهِ  
اِبْنِ طَلُونَ وَبِجَانِهِ فَاضِيَّهُ بِكَارِيَّهُ بَنِ قَيْدَيَّهُ وَبَنِ يَدِهِ قَصْصُ الْمُتَظَلِّمِينَ (الْمَرَاضِنَ) وَقَدْ  
تَصْفَحَهَا اِبْنُ طَلُونَ وَدَفَعَهَا إِلَى فَاضِيَّهِ لِيُحْكِمَ فِيهَا أَوْ يَنْقَذُهَا  
فَلَا دَخْلَ زَكْرِيَا سَالَهُ الْحَاجِبُ عَنْ قَصْتِهِ لِيَدْفَعَهَا إِلَى الْوَالِيِّ يَنْظَرُ فِيهَا فَقَالَ «لَمْ أَكِنْ  
شَيْئًا وَلَا أَرِيدَ أَنْ أَهْرُضَ ظَلَامَتِي شَفَاعًا لِلْوَالِيِّ رَأَيْهِ بَعْدَ فَرَاغِهِ مِنَ النَّظَرِ فِي قَصْصِ  
سَائِرِ الْمُتَظَلِّمِينَ»

فَرَغَ الْحَاجِبُ ذَلِكَ إِلَى اِبْنِ طَلُونَ فَقَالَ لَهُ «أَجْلِسْهُ رِبَّا نَفَرَغَ مِنْ عَمَلِنَا»  
فَقَمَدْ زَكْرِيَا وَهُوَ يَنْظَرُ فِي ذَلِكَ الْعَمَلِ وَيَنْجُو بِأَنَّهِ مِنَ الْمُعْدُلِ وَالْأَنْصَافِ حَتَّى إِذَا  
فَرَغَ اِبْنِ طَلُونَ مِنْ تَصْفَحِ الْقَصْصِ صَاحَ بِزَرْبِيَا «مَا هِيَ ظَلَامَتِكَ يَا أَخَا التَّوْبَةِ؟»  
فَوَقَفَ زَكْرِيَا وَقَالَ «لَا أَقُولُ ظَلَامَتِي إِلَّا فِي خَلْوَةِ مَعِ مَوْلَايِ»  
وَكَانَ زَكْرِيَا فِي تَكْرِهٍ يَظْهُرُ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ الْعَرِيَّةَ الْأَقْلِيلَةَ . وَلَوْ تَكَلَّمَهَا جَيْدًا مَا  
صَدَقَوْا أَنَّهُ أَتَ مِنَ التَّوْبَةِ لَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَكُونُوا قَدْ اَتَشَرَّوْا فِي التَّوْبَةِ وَلَا دَخَلُوا الْإِسْلَامَ  
فَكَانَ يَدْخُلُ كَلَاءَ بَعْضِ الْأَلْفَاظِ مِنْ لِغَةِ التَّوْبَةِ (الْبَرْبَرِيِّ) وَلَكِنَّهُ كَانَ يَحْسَنُ التَّعْبِيرَ  
بِيَثِيْتِ يَقْوِيمِ اِبْنِ طَلُونَ مَرَادَهِ

فَلَا سَمَمَهُ بَطْلَبُ الْخَلْوَةِ اَشَارَ إِلَى الْقَانِيِّ وَكَانَ قَدْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهِ خَرْجَ وَلِبَتِ اِبْنِ طَلُونَ  
وَحْدَهُ فَنَقْدَمْ زَكْرِيَا وَوَقَفَ بَيْنَ يَدِهِ مَتَادِيًّا فَأَشَارَ إِلَيْهِ أَنْ يَقْمَدْ فَقَمَدْ وَازْجَحَ الْخَمَارُ عَنْ رَأْسِهِ  
فَلَمْ يَظْهُرْ فِيهِ عَاهَةٌ كَمَا كَانَ يَظْنَنُ مِنْ بَرَاءَ مَخْمَرًا وَابْنَ طَلُونَ يَنْظَرُ إِلَيْهِ وَيَنْتَظِرُ مَا  
يَقُولُهُ . وَاسْتِبْطَاءً فَقَالَ لَهُ «مَنْ تَظَلَّمَ يَا رَجُلُ؟»  
فَقَالَ «أَقُولُ وَلَا يَاسُ عَلَيْهِ؟»

قَالَ «قَلْ . . اِنْكَ عَلَى بَسَاطِ الْوَالِيِّ وَلِيِّ اِمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَعَهَا يَكُنْ مِنْ ظَلَامَتِكَ فَانْكَ  
تُنْصَفُ . . قَلْ مَنْ تَظَلَّمُ؟»

قَالَ «مَنْ اَحْدَدْ بَنِ طَلُونَ وَلِيِّ اِمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَفَاتِيَّهُ عَلَى مَصْرَ»

فَبَغَتْ اِبْنُ طَلُونَ وَقَالَ «مَنِي؟»

قال «تم يا مولاي .. فاذا كنت قد تجاوزت حدودي بالظلم منك فانا بين يديك  
الظل لي ما تشاء »

قال « كلاماً فان لك المروبة ان تحظى من شئت .. ولكنني استغرت نشاطك معي وانا  
والتي بيراءتي »

قال « رب ذنب لا يعرفه صاحبه »

قال « قل .. افصح ما هي ظلامتك فاني لا اعرفك ولا اذكر اني رأيتك قبل  
الآن »

قال « ولا انا اظلم لنفسى يا سيدى وافتى جئت الى مولاى الامير ارفع اليه علامه  
رجل لم يكلني ان اظلم عنه ولكنني فعلت ذلك رغبة في مصلحة صاحب هذا البلد »

قال « لم افهم مرادك فاقصص .. من تبني؟ »

قال « اعني الرجل الذي حكمت عليه بالجلد والحبس بعد ان بني لك العين واجرى  
فيها الماء ... »

قال « الترخانى؟ الذي اوشك ان يقتلني بيدهما؟ »

قال « وهل تبني انه يجعل هندسة البناء؟ »

قال « طبعاً .. ان سقوطى عن جوادى اغا كان من الخلل الذى سببه جهله فى  
هندة ... »

قال « ليس في هذا البلد من يقاريه في هذا الفن يا مولاى .. ولكن قصرية الجير  
التي تمس بها جوادك اغا تركت هناك لعنة حظه او لعل لها سبباً آخر .. وقد يكون بعض

امواله وشواهدك يأتوك على اذاء .. واما انكلم عن مهارته في المندسة .. ليس في هذا  
البلد من يقاريه فيها ولا الريم الآتون من القسطنطينية ولا الفرس ولا غيرهم »

فاستغرب ابن طولون دفاع هذا التوبى عن ذلك التبسط ولم يعتذر به فقال « وما الذي  
جعلك على رفع هذه الظلمة علينا وانت تتقول ان صاحبها لم يكلفك؟ »

قال « جعلني على ذلك وغيبي في اقتساد مولانا من مشكل وقع فيه ولم يستطع احد  
ان ينقذه منه .. وان كان كلامي ثبيلاً عليه فاني اصرف حالاً »

فأثنى ابن طولون انه يعني الجامع الذي ي يريد بناءه ولكنها تجاهل وقال « واي  
مشكل تبني؟ »

قال « اعني البناء الذي انت عازم على انشائه ولم تجد من يستطيع رسمه لك على

الشكل الذي تريده»

قال «وهل يستطيع صاحبك ان يفعل ذلك ؟ انه لا يستطيعه»

قال «لا اخليه بجز عنه وما هو طلبك يا مولاي ؟»

قال «اني اريد ان ابني جامعاً بلا اساطين ... هل يستطيع ذلك ؟»

قال «لم اماله ... ولكنني احبه» يقدر واستدرك زكي يا قوله «عافية ان لا يكون

سعيد قادرًا فيعود الغضب على كاهلها فاراد ان يثني ابن طولون عن عزمه من حيث

الاساطين فاستائف الكلام فائللاً « وهل خلوه من الاساطين شرط لازم - كأن

مولاي لا يرى في الاساطين جالاً على الاشكال التي وضعوها بها في جامع عمرو - فاذان

كان هذا سبب عدوه عن الاساطين انا اخمن ان سعيداً يحمل وضعها على شكل

يدفع ... »

فأشار ابن طولون بسباته اشارة الانكار وهو يهز رأسه وقال «ليس هذا هو السبب في

رغبتي عن الاساطين ... وقد رأيت فيك نبأة وغيرة فأخبرك ان سبب ذلك اتفاً مو

رفقي باهل الذمة من سكان هذا البلد - لافي ما اعزت على بنائه سالت المهندسين عا

يحتاج اليه من الاعمدة فقدر واله ... عمود هذه لا اقدر اجد لها في غير الكائنات ...

فاذان فعلت فاني استند اعمدة الكائنات في الاريات والضياع<sup>(١)</sup> وهذا ظلم لا ارضاه واحبه

لا يرضي الله - وانا احب ان ابني مسجداً لا يشوب بناءه خلل ... وقد تعذب قلبي في هذا الامر

فلم اجد وسيلة الا ان اجعل هذا الجامع بدون اعمدة فلم اجد في مصر من يقدر على بنائه

بدونها ... »

فتبسم زكي يا وقال «هل سالت سعيداً السجين في المطبق ؟»

قال «كلا ... انه ذهب من فكري ... هل تظنه يقدر على هذا الامر ؟»

قال «اخليه يقدر ... ومع ذلك فما على مولاي الا ان يأمر باحضاره ويسأله ويرى

ما يقول ... »

فصفق ابن طولون فدخل غلام فقال له «قل لصاحب المطبق ان يأتني بالنصراني

المهندس انه مجنون عنده ... ادخلوه عليَّ الساعة»

## الفصل السابع والثلاثون

جامع ابن طولون

فأشار الفلام مطلياً ومحى ووقع ذكرياً في حيرة وهو يخاف ان يحيي ذئنه في سعيد ولكنه قال في نفسه انه اذا فشل بالقاده من هذا الطريق عاد الى النظم من مجده بلا حق على ان يتم اسطفانوس بأنه هو الذي وضع قصرية الجير وكان ابن طولون في اثناء الانتظار مطرقاً يفكرا بما سمعه ويشتت ان يصح قول التوبي في سعيد لانه كان شديد القلق من هذا الامر وما عتم ان دخل الحاجب يقول «ان العين النصراني في الباب» قال «ادخلوه»

فدخل سعيد وقد تغيرت سنته وطال شعره على غير هنام اذ لم يمه المنشط ولا رأى وجهه الشمس منذ مدة طويلة<sup>(١)</sup> علا راءه ذكريها انكره وتأثير من حالة واصبح لثة فاقه عليه وخوفه ان لا يستطيع العمل برتعش وهو يقول اما سعيد فدخل ولم يتبه ذكريها واما كان منه ان يحيي دعوة ابن طولون فوقف متادياً فقال له ابن طولون «كيف توى نسك؟»

قال «أراني كما كنت»

قال «لم تشعر بالخطأ الذي ارتكبه في بناء العين»

قال «لا يسل احد من الخطأ.. ولكنني لم اسأل عن خطأي لافتقدته او أتيأ منه وانا نعجل سيدني في عقالي بلا سؤال»

قال «الا تندرك قصرية الجير وقوعي عن فرمي بسيها ذنباً.. ولكن ما لا ولذا فتحن الان عارضون عليك عملاً آخر فاذا زعمت انك ماهر في المندسة اخرجه لنا فتفترشك ما مفعلي»

(١) في التاريخ ان بين بناء الجامع وبين العين اطول مما اقتضاه سياق الرواية وذكر التبرزي ان العرائى هنا سمع وهو في السجن ان ابن طولون يريد بناء الجامع ولم يجد من يبني له بلا عمد فشك اليه يقول انا ابيه لك كاس عبد ماستقدمه وقد طال شعره حتى نزل على وجهه - ذكرنا هنا حق لا شهادة التاريخ

قال «ما هو يا سيدى»

قال «عزمت على بناء جامع كبير على جبل يذكر في اطراف المطائن — انا اشرط ان لا يكون فيه احدة فهل تستطيع رسمه على هذا الشرط؟»

فاطرق سعيد واخذ ينكر وقلب ذكرى يتحقق خوفاً من الفشل وابن طولون يراعي حركات سعيد ثم تناول هذا خيرارة كانت ملقة بجانب الحائط واخذ يورها على البساط كأنه يرسم بها خطوطاً ومربيات وابن طولون يراعيه . واخيراً وضع سعيد راسه وقال «الآن افعل ما امر به مولاي ولكنني استاذنه ان يكون في الجامع عمودان فقط هما عموداً القبلة»

قال «عمودان فقط؟»

قال «نعم فقط اثنان»

فقال ابن طولون وقد باه البشر في حياته «هل تقدر ان تبني الجامع على ان لا يكره فيه غير عمودي القبلة؟»

قال «نعم»

قال «اخاف ان يكون شكله مشوهاً او منظره قبيحاً»

قال «كلاً سيكون من اجمل الجماعات — ليس مثله الا المسجد الذي بناء امير المؤمنين المعتصم في سامر<sup>(١)</sup>»

قال «قبلت به .. ارجي صورته»

قال «انتوني بالجلود فاصوره لكم كما يكون بعد التراغ من بنائه»

فكان قلب ذكرى يطير من الفرح ولكنه ظلل ساكتاً ليتحقق الامر بعد الرسم وامر ابن طولون بالجلود فاتوه بها فأخذ سعيد يصور عليها رسم الجامع بمجداته وقبته ومحنته وما ذنته ويمضي فلما فرغ من الرسم دفعه الى ابن طولون ففرح به كثيراً وامر ان يطلق سراحه وان يخلع عليه وقال له «ساحطقي يدك في النفقة على البناء .. ومتى فرغت منه كافئتك احسن مكافأة»

فاخنى سعيد راسه شاً كرماً

اما ذكرى فلم يعد يستطيع كتمان فرحة نقدم حق وقف بجانب سعيد فاستلف اثناء ابن طولون وختمه بتصدره قال الجازة فقال له «والفضل في حل هذا المشكل لهذا التوبي الشيج يارك الله فيه»

(١) راجع رواية عروس فرغانة

فالفت سعيد الى زكريا فرأه ينظر اليه ويضحك فرقه وخفق قلبه لشذوذ مديانة  
وابات البنت في عياه وخاف ان يلحظ ابن طولون بنته فاستازنه في الخروج فقال له  
« تخرج الى دار الاشياف وناس لك يقص نعيم فيك ولا ياذن يخربوك من القطائع لأن  
وجودك اصبح يهمنا كثيراً واذا شئت ان تأتي ياعاك بقىون معك في ذلك القصر فلا  
يأس » والفت الى زكريا وقال « انك صاحب فضل يا عم ... بورك فيك ...  
سل ما تشاء »

قال « لا اسأل الا ان يكون مولاي موافقاً ... وقد اشرح صدرني للظهور الحق  
ويكفيني ذلك »

قال احد « ولكن لا يكفينا غنـ ... » وصدق جـاء الغلام فامر له بمحائزه فدعا  
له وخرج وهو يعلم ان سعيداً يريد مقابلته قبل الانصراف فترصد له عند خروجه  
فلا رأه سعيد اسرع اليه وأمهـ عن حال مديانة فلخص عليه ما جرى لها وما قاسـه  
من عناد ايها وما كان من امر اسطفانوس ولتها الاـ في حواره لـ تـ نـ تـ رـ وجـ عـ ولا يقدر  
بتصور مـ سـ رـ وـ رـ هـ لـ اـ يـ رـ جـ عـ الـ يـ هـ بـ هـ ذـ هـ الـ بـ اـ شـ اـ رـ

وكان سعيد يسمع حدـثـ وهو يـكـدـ يـتـيزـ منـ التـيـظـ فـلـاـ فـرـغـ منـ كـلـامـهـ قـالـ لهـ « بـئـاـ  
ذلك اخـائـنـ النـذـلـ .ـ كـانـهـ يـتـقـمـ يـهـذاـ الـحـلـ عـنـ الـاطـمـةـ الـتـيـ ذـاـلـهاـ لـيـلـهـ عـيدـ الشـهـيدـ .ـ وـكـانـ  
يـحـسـنـ بـهـانـ يـبـينـ نـفـسـهـ وـكـنـهـ لـتـيـمـ جـيـانـ .ـ وـنـدـ وـاطـهـ مـرـقـ عـلـىـ اـبـنـهـ وـهـ جـاـهـلـ لـاـ يـعـرـفـ  
ماـيـنـهـ وـلـاـ مـاـيـضـرـهـ وـالـحـدـثـ عـلـىـ رـدـ كـيـدـهـ فـيـ خـورـمـ ...ـ فـاـذـهـ الـ دـيـانـةـ بـشـرـهاـ  
بـالـفـرـجـ وـقـلـ هـاـ انـ ذـالـكـ الـغـرـ سـيـنـالـ جـزـاءـ فـعـلـهـ قـرـيـباـ ...ـ وـكـمـ اـوـدـ اـنـ اـذـهـبـ مـعـكـ  
لـاـ رـاهـاـ وـلـكـ اـنـ بـهـانـ طـولـونـ لـاـ يـاذـنـ بـخـروـجيـ منـ قـصـرـهـ كـاـسـمـتـ عـلـىـ اـنـيـ سـاسـيـ فـيـ زـيـارـتـهـاـ فـيـ  
وقـتـ آـخـرـ وـآـقـيـ بـهـاـ نـعـيمـ مـعـيـ فـيـ القـصـرـ الـذـيـ وـهـيـ لـيـ الـأـلـيـ بـعـدـ انـ اـعـيـهـ لـاـ سـيـقـلـاـ وـقـيمـ

فـرـوضـ الـأـكـلـيلـ

فـوـدـعـهـ زـكـرـيـاـ وـارـادـ الـاـنـصـرـافـ فـرـأـيـ غـلامـ اـبـنـ طـولـونـ وـاقـفـاـ يـتـظـرـهـ يـهـمـلـهـ الـكـابـ  
يـدـفـعـ يـهـ الـجـازـةـ .ـ وـلـمـ يـخـطـ خطـوتـيـنـ خـرـ بـابـ القـصـرـ اـذـاـ هوـ باـسـطـفـانـوسـ قـدـ بـرـزـ مـنـ وـرـاءـ  
الـبـابـ وـوـقـفـ وـجـعـلـ يـتـظـرـ الىـ زـكـرـيـاـ وـيـنـفـسـ فـيـهـ وـلـسانـ حـالـهـ يـقـولـ لهـ «ـ قـدـ عـرـفـتـكـ  
وـلـمـ يـشـاهـدـهـ مـعـ سـعـيدـ بـعـدـ اـنـ عـلـمـ بـرـضـيـ اـبـنـ طـولـونـ عـنـهـ وـاـكـرـامـهـ اـيـاهـ لـاـ مـرـعـ الـقـبـضـ  
عـلـيـهـ بـعـدـ السـرـقةـ لـكـنـهـ خـافـ سـعـيدـاـ وـنـذـكـرـ لـيـلـهـ عـيدـ الشـهـيدـ فـكـظمـ

# الفصل الثاني والثلاثون

## البيجة

واما ذكر يا فنظر اليه نظر الفائز ومشي وهو لا يبالي ولو لا رغبته في الاصراع الى دميانة لشكان الى ابن طولون وان كان لا يضمن فوزه عليه نظراً لنفوذ والده فاكتفى بان فنظر اليه شريراً نظر تهديد واحتقار ومشي حق قبض الجائزة وتحمّل بطلب حلوان وقد مالك الشمس عن خط الماجيرة وهو لا يشعر بما تقع قدماء عليه من شدة شوقه لللاقفه دميانة وتبشيرها بما اناه من اسباب النزعه والفوز

ولم يكدر يتوسط الطريق الى طرافق الى دميانة رأى الناس ينزاكسفون نحو القطاائع وفيهم النساء والاطفال على غير نظام كلهم هاربون من معركة وهرف من جهة سيرهم انهمقادمون من حلوان فسأل بعضهم عن سبب ذلك الفرار فاجابواه « ان البيجة سطوا على حلوان ونهبوا .. . »

فقال « ومتى كان ذلك ؟ »

قالوا « نزلوا عليها في هذا الصباح وقتكموا باهلها ونهبوا يوتها »

فاجفل ذكر يا وخفق قلبه ووقف لحظة وقد جد الدم في عروقه خوفاً على دميانة فراء الراكفون واقفاً فقالوا له « ارجع ياعاه والا فانك تذهب فريسة البيجة لعنهم الله انهم كالامالة ووجوههم كوجوه الشياطين »

فلم يبال يا متحمه ولم يزدده ذلك التحذير الا رغبة في المسير الى حلوان ليرى ماتم لدميانة وظل ماتيًّا ولو تباً بشيء من ذلك لذهب الى الفساطط أولاً وركب الفرس ولكن وجد نفسه اقرب الى حلوان مما الى الفساطط فظل مسرعاً يعدو وهو لا يزال يرى الناس ينزاكسفون فراراً من القتل والنهب وقد سبق الى ذهنه ان دميانة لا يأس عليها لانها في جوار صديقه قعدان العربي

فلا أطل على حلوان طلب منزل الرجل فاشرف عليه عن بعد فرأى الخباء منصوباً فاطنان باله ولكن له لم ير احداً حوله ولم يدن منه حتى رأى المغراب عيناً عليه . واول شيء استلتف انتباشه شبع ملق على الارض ياب الحديقة عرف انه غلام صاحبه فتقدم نحوه

فرأى الدم يجري منه وقد مات فاضطررت جوارده وخاف ولكن لفته على دمياءة شغله عن الخوف فشي في الحديقة وهو يتلفت فرأى آثار حوافر الآثيوال بين الأغراض وقد تكسرت وتغربت ولم يزل ماشياً وقلبه يخنق حتى أقبل على الملاه فسمع آنياً ونقدم فرأى رجلاً مطروحاً كالميت ولم يقع نظره عليه حتى عرف انه صاحب قعدان فاجفل وصاح « قعدان ! قعدان ! » وأكبه عليه وامسك بيده ليجعله ويتحقق حاله

قادار قعدان وجهه اليه والدم يسيل من كتفه على اثر طعنـة عـينة . فـلا رـأـي زـكـرـيـاـ  
حالـه عـلـمـهـ أـنـهـ فـيـ حـالـ النـزـعـ فـقـالـ لـهـ «ـ لـاـ بـأـسـ عـلـيـكـ يـاـ أـخـيـ مـاـ الـذـيـ أـصـابـكـ »  
قـالـ بـصـوـتـ مـرـتـضـعـ وـهـوـ يـقـطـعـ كـلـامـهـ مـنـ شـدـةـ الضـعـفـ «ـ عـفـواـ يـاـ زـكـرـيـاـ أـنـيـ لـمـ  
اسـطـعـ الـاحـفـاظـ بـدـمـيـانـةـ . . . . فـقـدـ اـخـذـوـهـ مـنـ . . . . اـخـذـهـ لـصـوـصـ الـبـجـةـ . . . . وـيـعـلمـ  
الـهـ أـنـيـ بـذـلـتـ جـهـدـيـ فـيـ حـمـاـيـتـهـ حـقـ قـتـلـ وـلـدـيـ وـرـجـالـيـ وـهـ اـنـاـ كـاتـرـىـ . . . فالـعـفـوـ أـنـيـ لـمـ  
اسـطـعـ الـقـيـامـ بـحـقـ الـجـوـارـ »

وـكـانـ يـقـولـ ذـلـكـ وـهـوـ يـقـطـعـ كـلـامـهـ وـزـكـرـيـاـ يـنـظـرـ إـلـيـهـ وـقـلـبـهـ يـكـادـ يـنـفـطـ لـمـ أـنـهـ مـنـ  
الـآـمـمـ وـلـاـ مـعـ اـعـتـذـارـهـ وـكـيـفـ أـنـهـ ضـحـيـ اـهـلـهـ وـنـفـسـ فـيـ حـمـاـيـةـ جـارـهـ أـكـبـرـ اـنـفـةـ الـعـربـ  
وـشـخـتـهـ وـاسـفـ لـذـهـابـ صـدـيقـهـ قـيـلاـ بـلـاـ فـائـدـةـ لـأـنـهـ فـيـمـنـ خـلـالـ حـدـيـهـ أـنـهـ لـمـ يـسـطـعـ  
حـمـاـيـةـ دـمـيـانـةـ فـاحـبـ أـنـ يـسـتـهـمـ عـاـجـرـيـ لـمـ قـفـالـ «ـ لـاـ بـأـسـ عـلـيـكـ يـاـ اـخـاـ الـعـربـ . . . اـكـ  
وـالـهـ قـدـ وـفـيـتـ حـقـ الـجـوـارـ وـاحـبـتـ سـنـةـ الـعـربـ . . . وـعـلـ لـلـاـنـسـانـ مـنـ شـيـءـ يـبـذـلـهـ فـيـ سـيـلـ  
جـارـهـ اـعـزـ مـنـ اـهـلـهـ وـنـفـسـ فـارـجـوـانـ يـشـفـيـكـ اللهـ . . . » وـكـانـ زـكـرـيـاـ لـاـ يـزالـ قـابـقاـ عـلـيـ بـدـ  
قعـدانـ فـيـمـ بـأـنـهـاضـهـ وـهـوـ يـقـولـ «ـ اـنـهـ اـجـلـ . . . هـلـ أـتـيـكـ يـاءـ تـشـرـيـهـ . . . قـمـ لـاغـلـ  
جـراـحـكـ . . . »

فـاجـتـذـبـ بـدـهـ مـنـهـ وـقـالـ «ـ لـاـ فـائـدـةـ مـنـ القـسـلـ وـلـاـ مـنـ الشـرـبـ فـانـيـ مـيـتـ لـاـ حـمـالـةـ . . .  
وـاعـلـمـ يـاـ اـخـاـ التـوـبـةـ اـنـ دـمـيـانـةـ لـاـ تـزـالـ حـيـةـ وـلـكـنـ الـبـجـةـ اـخـذـوـهـ مـبـيـةـ وـاـظـنـهـ اـخـذـوـهـ اـيـضاـ  
اـيـقـيـ وـسـائـرـ اـهـلـ . . . » قـالـ ذـلـكـ وـتـمـلـلـ وـبـانـ التـالـمـ فـيـ وـجـهـ وـصـرـخـ «ـ آـهـ . . . لـوـكـتـ  
اسـطـعـ الـقـيـامـ لـعـقـتـ بـهـمـ » وـاـخـتـلـجـ وـشـهـقـ وـاـسـلـ الـرـوحـ

فـلـمـ يـتـالـكـ زـكـرـيـاـ عـنـ الـبـكـاءـ رـغـمـ اـشـنـفـالـ خـاطـرـهـ بـدـمـيـانـةـ وـاسـفـ لـمـوتـ هـذـاـ الصـدـيقـ  
الـذـيـ يـنـدـرـ مـثـالـهـ وـلـكـنـهـ لـمـ يـجـدـ حـيـلةـ يـنـفعـهـ بـهـ وـقـدـ فـقـعـ خـبـيـهـ سـوـيـ اـنـ يـوـارـيـهـ التـرـابـ وـلـمـ يـجـدـ  
اـحـدـاـ يـسـتـعـيـنـهـ لـاـنـ اـهـلـ حـلـوانـ كـانـوـاـ قـدـ هـبـرـوـهـ فـيـ ذـلـكـ الـيـومـ وـهـبـرـهـ اـيـضاـ الـبـجـةـ بـعـدـ اـنـ  
هـبـرـهـ وـفـرـواـ خـوـفاـ مـنـ رـجـالـ الـحـكـومـةـ اـنـ تـدـرـكـهـ فـاـحـتـفـرـ حـفـرـةـ الـقـيـامـ فـيـهاـ وـدـفـنـهـ

وعلى قبره ورجع الى قسه واخذ يفك في الذي يجب ان يفعله للحصول على ديمياء  
فراجع الكلام الذي سمعه من قدمان ففهم من مجلمه ان الجهة سطوا على حلوان فنثثوها  
وسجواناها . وكانت زكريا قد عرف الجهة وعاشر بعضهم وهم يقيسون في الصحراء  
الشرقية يعيشون على العزو والنهب وهم اشدوا اهل بادية وخشونة فلما تصور ديمياء منهم  
افشعر بدنه لعله انهم لا يعانون ضررها ولا دين لهم بردتهم عن اكبر الجرائم وهم يومئذ  
لا يزالون على الوثنية

## الفصل التاسع والثلاثون

### الحيرة

وكان زكريا يفك في ذلك وهو يشي على غير هدى نحو الجهة التي حسب الجهة زلوا منها  
او عادوا اليها العله يتف على اثرهم او يرى من يرشده اليهم حق صد الى اكرة اشرف منها على  
الصحراء عن بعد فلم ير احدا ولذلك عرف من آثار الحوافر ان القوم كانوا هناك وذهبوا  
فحذثه نفسه للهفته ان يقتضي اثراً وحده للبحث عن ديمياء ثم رجم الى رشده ثيقته عجزه  
عن ادراكهم ولا هو يعرف متى . وهب انه ادركهم فكيف يقدر على تحليص ديمياء منهم  
فوقف برده وهو في تلك الحيرة ثم اتته بعثة الى الانبوب فانتفذه فاذ هو لا يزال تحت  
ذراعه قذذ كر ديمياء وما قاسته من البلاء والمذاب وما دنت سعادتها واسرع بتثثيرها بالغور  
سيت فقال في قسه « ليكن اسم الرب مباركاً ان هذه الفتاة مع ثوابها وطيب عنصرها وعم  
امباب السعادة التي تحبط بها كلها حاقت لشقي .. اين انت الان يا ديمياء؟ .. ماذا  
اقول خطيبك اذا سألك عنك أقول له سبها الجهة .. وهم قوم لا يختلفون حرمته ولا  
يوفرون عرضاً .. » ولما قال ذلك غلب عليه الحزن واليأس فبكى واغرب في البكاء ولم يكن  
حوله احد يسمعه فاطلق لحزنه العناء

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فلا رأي الا ظلال تستطيل انتبه لنفسه واستوحش  
فعاد الى صوابه فقال في قسه « لا ينيد الندب في مثل هذا الحال .. يجب ان اعمل عملاً  
يجب ان اسع في انقاذ ديمياء .. كيف اقذها .. اذهب الى سعيد اخيه بما اصاحتها  
وامشتجده؟ .. وماذا ينفع استنجاده انه لا يستطيع عملاً حتى ابن طولون لوارadan يتجدد

ولو جرد جيشاً على البجة لا يغد شيئاً فان هؤلا، ما يرجعوا عصابة على الحكومة من عهد بعيد  
فلم تخضمهم دولة لقياهم في الصحراء التي لا يستطيع سلوكها سواهم . . . فالثورة من استبعاد  
سعيد سوي تكديره واقلاق راحته . . . ماذَا افعل اذا؟ . . .

ونذكر الحال ايام صبوته يوم كان في بلاده باطوبية ونذكر مالملك التوبة من السلطة  
والطبقة في قلوب البجة فقال «لا ينجذب في هذا السبيل الا ملك التوبة . . . ولكن ابنه و  
واين نحن ان يتنا مرافق عديدة . . . ثم هو لا يعرفني ولا ينجذب . . .

وكان يتأملي نفسه وهو راجع عن تلك الاكمة نحو حلوان فلم يجد خيراً من ان يعود الى  
السطاط فينزل اخنان وفيه ثيابه وفرسه ثم يرى ماذَا يعمل ومشي وهو لا يالي بالتعب وقد  
اثقلت الدنيا فجعل طريقة على ضفة النيل واخذ يعمل فكرته في طريقة لاتفاق ديمانة من  
مخالب اوئل الكوصوص

خرج من حلوان وقد غربت الشمس وهو في لباس بدوي التوبة كما كان عند خروجه  
من القطائع ومشي وهو مرتبك الاذكار فوق بصره نحو العشاء على انوار عند مفع المقطم  
علم انها في قبة الماء فتنذر موقنه مع ديمانة ونذكر الحال صديقه في المسجد القائم  
هناك وكان قد مر به قبل ذهابه الى حلوان وهو يعرف فيه الاطلاع على احوال البجة  
وسائر اهل الصحراء لقياهم في اوائلها فخطر له ان يذهب اليه ويستشيره في الامر لعمل له  
وسيلة قريبة لذليل المطلوب . فخرج نحو المقطم وما عتم ان صعد حتى اتي المسجد فلما جاء  
صديقه وانكره لاؤل وهلة ثم نعراضا فدعاه الى الجلوس فجلا بين يدي الباب خارج المسجد  
على الارض فسأله عن حاله فأخبره انه ترك ديمانة عند صديقه العربي في حلوان وجاءه السطاط  
في مهمة ولا رجع رأى البجة قد سطوا على البلد وقتلوا من قتله وفر الباقيون . وانهم اخذوا  
ديمانة سية الى ان قال « وهل نعرف شيئاً عن اوئل البجة وابن يقيعون ومن هوز عيدهم؟ »

قال « ان زعيدهم اليوم يقال له ابو حرمدة »

فصرخ زكريبا « ابو حرمدة؟ فرج التوبي ابن بلدنا؟ »

قال « كلا . . . ليس الرجل الذي تمنيه ولكنه تسمى باسمه تشبه بالشجعان ولف حوله  
عصابة من قومه وجعل دينه السطوط على اطراف مصر ينهب ويقتل ولم يسبق انه سطا على  
حلوان قبل الان »

فتنهد زكريبا وقال « لم لم فعل ذلك لسوه طالع تلك الفتاة التقيبة . . . وابن نظن  
اوئل البجة يقيعون الان ! »

قال « بقيمون ! لا اعرف لهم مقاماً لأنهم قوم رجل يعيشون على الغزو والسطو »  
 قال « وما رأيك الان . كيف العمل يا صاحبي ؟ التي اراني في حيرة . . . . . كيف يمكنني  
 انقاذ هذه الفتاة فقد اوثقت عليها وعاهدت نفسي ان اقوم بخدمتها ورعايتها . وقد اخذت  
 مني في اثناء غيابي وبالذات كنت حاضراً ساعة السطو فكنت اما انقذها او اقتل في سبيل  
 ذلك فاذهب مرتاحاً ثم اعود . . . » قال ذلك وغض بريقه ولم يطالع عن البكاء

## الفصل الاربعون

### الاستجاد

فلا راه صاحبه يكى مع شيخوخته شاركه في احساسه واندثت الاريحية فقال « خفف  
 عذك يا زكريا . . . واشكرب الله لامك لم تكن حاضراً في تلك الساعة لامك كنت مفتولاً  
 لا عالة ولا تبقى حيلة لانقاذ الفتاة اما وانت حي فلا تعدد وسيلة لانقاذها »  
 قال « ما هي الوسيلة ؟ ارشدني . . . هل تعلم مقر هؤلاء فاذهب اليهم بشغفي واكلم ابا  
 حرملة واستعن به لعله يشفق على الفتاة وافتديها يا يزيد من المال »

قال « اما مقر هؤلاء فلا سبيل الى معرفته والاستعطاف لا فائدة منه واما الفداء فلو  
 كان الاسير رجلاً او غلاماً او امرأة طاعنة في السن فربما افاد اما وهي فتاة جميلة فلا اخف لهم  
 يتبلوون عنها فدية والغالب ان يجعلها ابوحرملة في جملة ناته فقد سمعت انه رغاب في النساء . . . .  
 فقطع زكريا كلامه قائلاً « نعم انه يتزوجها ؟ »

قال « يتزوجها او يتسرعاها لا ادرى . . . . .

صاح زكريا « اعوذ بالله من ذلك . . . . . واطرق هنئية ثم قال « لا اخاف عليها منه  
 وان كان جباراً ما دامت حية ولكن . . . . . وبلم ربقة واندثت الارض باصبعه  
 ويعمل فكرته

فابتدره صاحبه قائلاً « لا فائدة من طول التفكير انا لا نعرف مقربم واذا عرفناه لا  
 قدرة لنا على مناوشتهم »  
 فتذكر زكريا سعيداً ومنزاته عند ابن طولون فقال « وما قولك اذا استبعدنا امير  
 مصر ؟ هل ينجدنا بمجد »

فابشدره قائلًا « ولا فائدة من نجدة الامير فانه لا يعرض رجاله للموت في الصحراء .. ولو كان في امكانه ردم الفعل ذلك من قبل فان اولئك البحاريين لم ينفكوا عن الطوع على حدود هذه البلاد من ازمان متطاولة والحكومة عاجزة عن ردم فكيف بتعقيهم الى منازلهم .. ومنازلهم على ظهورهم .. »

فعلم زكيها ان لا فائدة من استصاره سعيدًا فعم على كثيرون هذا الامر عنه وعاد الى التفكير وهو مطرق فقال له صاحبه « ما بالك لم تذكر بولانا ملك التوبه وانت تعلم تقوذه على البحاريين لا يخافون سطوة سواه كما تعلم او هم يكرمونه على الاقل »

قال « اعلم ذلك وقد خطر بيالي ان استجده ولكنني لا اعرفني وبهذه بعيد واحلف ان اضيع الوقت بالسفر اليه في اطراف التوبه ثم اعود بالفشل ويدعو سعيبي عبيداً »

قال « اما انت نصراوي ؟ .. »

قال « نعم »

قال « ألا تعلم تمسك ملوكنا بالنصرانية وغيرته عليها ؟ »

قال « اعلم .. » واتبه لرأي اشراق وجهه له وقال « قد فطرت لوسيلة تضليل التجاه .. فطرت لما تريد ان تقوله .. متقول لي ان استجده احد اصحابنا ليتوسط لي لدى ملك التوبه ولكنني اقدر ان اوسط البطريريك نفسه »

فصاح الرجل عند ذلك قائلًا « بورك فيك هذا احسن رأي وذا اتبعته فانك نائل ما تريد .. اذا استطعت ان تأخذ كتاباً من البطريريك الى ملك التوبه يوصيه بك فانه فاعل ما تريد .. »

فلم يبالك زكيها عن القيام تحالاً ومدد يده فودع صديقه وقال « اعذرني على سرعة التهاب فقد استصوحت رأيك وانا عامل به والوقت ثمين »

قال « ألا تعلم هنا الليلة وتسافر في الصباح ؟ »

قال « دعني اذهب لاعداد ما يلزم .. » قال ذلك وتحول قاصداً الفساط من جهة الشامي ..

ولما أطل على حصن بابل ووقع بصره على دير الملائكة عرفه من نور معلق بباب الحصن فتذكر ديماته والاستف ومرقس وتذكر البطريريك مخائيل وهو يعلم أنه في دير آبى مقابر بالصحراء الغربية في وادي النطرون والطريق اليه شاق ولا بد من التأهيل للمسير فيه

ووصل الفسطاط وقد اغلقت ابوابها فبات في مكان خارجها ولما قتحت الابواب دخلها متكرأً حتى أتى الحان واخذ يتأهّب للسفر إلى دير أبي مقار وقد علم أن المسافة إليه بعيدة سيقطع في أثنائها الليل والصحراء الفريدة

ورأى لمام الحية أن ينكر بلباس الرهبانية وحدثته نفسه أن يركب فرس مركب الذي أتى به من طاه التبل ولذلك خاف أن يتم عليه فيذهب تذكره عيناً فإنه لصاحب الحان واشتري هبّيناً خفيفاً وضع عليه رحلاً وتزل السوق فاشترى ثياب الرهبة وأهداها الرداء الأسود الخاص بالرهبانية والقيمة الخاصة برهبانية دير أبي مقار . قضى في ذلك يوماً كاملاً وفي المساء أعد كل شيء على أن يسافر في صباح القدر ولا عزم على السفر تذكر سعيداً وقال في نفسه «كيف أتركه واسافر بدون أن يعلم مصيري ولا ماتم لدميابة فربما ذهب إلى حلوان فلا يعترض على خبرها فيقطنني خدعته أو ربما توله الأنس أو غير ذلك»

قضى ليته وهو ينكر في سعيد ولم يتم إلا قليلاً وتماظم الامر عليه في أثناء رقاده - لأن الإنسان إذا ذكر في أمر يهمه وكان تفكيره في الظلام وهو رافقه من العجب تمازجه عليه اليوم . فتصور زكيه أنه إذا لم يطلع سعيداً على ما جرى يرتكب ذنبًا عظيمًا ثم أصبح ينكر بغير بلباس البداية الذي جاء به يوم مقابلة سعيد وخرج إلى القطاعين واخذ يسأل عن المندس النصراني لانه كان معروفاً هناك بهذا الاسم فلم يهتم إليه . ولكننه اهتم إلى القصر الذي اعدوه له وسائل حاجبه فقال له «خرج في ماء الامس ولم يعد بعد»

فأخذ ينكر في ماذا حتى ان يكون حاله وكيف يخرج والى ابن مع ان ابرت طولون انكر عليه الطروج وخاف ان يكثرون من الوؤال لثلاثة يشتبه الحاجب به فرجع وخطر له في أثناء رجوعه ان سعيداً ربما ذهب إلى حلوان بعد ان بلغه سطوة اليهود عليه لأن خبر تلك القراءة ذاع في أنحاء المدينة . فترجع لديه انه ذهب إلى هناك . فتوجيه زكيه في ذلك الطريق لم يلقي سعيداً وما مشى طويلاً حتى شاهد فارساً قادماً من طريق حلوان وتبناً من قيافته انه سعيد وما عتم ان وصل الفارس فإذا هو بيته فاداه زكيه فوقف ولما عرف اسرع إليه ورجل وهو يقول «ابن دميابة .. ذهبت إلى حلوان فلم أجدها ولا وقت لها على خبر . هل كنت تقول غير الواقع؟»

قال «كلا يا مسيدي إنما قلت لك الصدق .. ولكن .. الم تسمع يا اصحاب حلوان؟»

قال « سمعت أن بعض البجاء سطوا عليها ونبوها • فهل أخذنا ديمانة في جهة النبي ؟ » قال ذلك وهو يتلهم وقد جف حلقه  
قال « يظهر أنهم أخذوها • و كنت ذاهباً لتفتيش عنها بدون ان اخبرك شلاً  
اكرك بلا فائدة لأنك مقيد في منصبك ولا سب الآن • ثم رجمت امن الى رشدي  
ورأيت الأفضل ان آراك قبل سفري »

قال « وماذا جرى ؟ أخبرني • • • قل »

قصص عليه حديثه منذ فارقه بالامس وسار الى حلوان وكيف وجد قمдан العربي  
وأنه لم يجد وسيلة لإنقاذ ديمانة غير توسيط العطيرك لدى ملك التوبة • وأنه ذاهب في الغد  
الى دير أبي مقار »

وكان سعيد يسمع كلامه ويكاد يتميز من القبيظ فلما فرغ من السماح قال له « لماذا  
لا نطلب البجاء وأنا أتحمل عليهم برجالاً ونأخذ ديمانة قهراً • • اني لا ارجع عنهم  
حتى أخذها • • • » قال ذلك والغضب يرقصه  
فنال ذكر يا « لا يعلم احد مقرهم في هذه الصحراء يا سيدى وقد فكرت في ذلك • • •  
نعم انك اذا كلفت ابن طولون ان يتجدك بالرجال فإنه لا يحب طلبك • وهو مصيبة  
اذا لم يفعل • »

قل « مالي ولابن طولون • • اذعب بنفسي • • • » قال ذلك مدفوعاً بالحماس  
والغيرة ولو اراد مباشرة العمل لرجع عن عزمه  
اما ذكر يا فنان له « اذا كنت ترى وسيلة لاسترداد ديمانة بالقوة كما تقول فأفعل  
واما أنا فلا أمل لي في ذلك الا على الطريق الذي ذكرته لك • • دعني اذعب بهذه المهمة  
ولا أسبع الوقت سدى • • هل تاذن بذهابي ؟ »

فنهض سعيد والدموع تکاد تترفق في عينيه لتصوره حال ديمانة في قبضة أناس  
وتینين لا آداب عندهم ولا دين لهم ولا شقة في قلوبهم • • وقال « اذعب انت وانا  
ساخت عن طريقة قرية فإذا وقفت اليها والا فانت ساز في عملك وإذا جد لديك شيء  
اخبرني • • • واما مقيم في القطاع هل عرفت متزلي ؟ »

قال « نعم عرقه • • استودعك الله اني راجع الساعة والاتكال على السيد الميع  
وارجو ببركة سيدنا صريم المدراء ان توصل الى الفرض المطلوب •  
فدعنا له سعيد بالتوفيق وافرقنا

## الفصل الخامس والاربعون

صحراً Libya

سار ذكرها تواً الى الحنان وقد اعد كل شيء لسفره فرك هجنه وخرج من القسماط فقطع النيل على جسر جزيرة الروضة وقطع جسراً آخر الى بر الجيزه . فلما صار في البر الغربي من النيل اغتنم خلوة بدل فيها نيه ولبس ثياب الرهبة وهو ثوبه اللون والملامح فاصبح كأنه راهب من رهبان التوبة . وأول شيء وجه اقتباعه اليه تلك الاسطوانة التي وضع فيها آماله وأمال ديماته فانه جعلها في كيس علقة ستقع تحت ابطه بحيث لا تظهر ولا يتبه لها أحد . وبات تلك الابية وبكر في الصباح فرك هجنه وسار شمالاً يطلب بعض المحميات التي يمكن السفر منها الى وادي الطoron الذي فيه ديراني مقار والوادي المشار اليه في حفراً Libya غربى الدلتا على مسافة ثلاثة أيام منها يقطنها المسافر في رجال وسخور لا اندر للعمارة فيها ولا يلقى انيا الا القوافل النازحة الى ذلك اوادي لتحمل الذبح او النطرون الى الفلك او زاراجمة بالمؤن والاطعمة للرهبان المقيمين في الادياب المبنية في تلك الباية الموحدة

ذكر بعضهم انه كان في جوار ذلك الوادي نحو خمسين ديراً وقال آخرون اقل من ذلك والموجود منها الآن لا يتجاوز عدد اصابع اليد اهلاها اربعة دير ابي مقار ودير الاما بشاي ودير السريانى ودير البراموس . او لها اقربها الى الدلتا ثم تباعد حسب ترتيب ذكرها . وهي قديمة البناء رب اتصل تأسيسها بالقرن الرابع للميلاد اي عند شروع الرهبة في النصرانية غالباً محل لتفصيله هنا

والذاهب الى وادي الطoron لا يأمن الذهاب وحده في تلك الباية خوف العذال في الطريق وحذراً من اهل السطو . ولذلك فلم يكن الناس يسافرون الا مع القوافل جماعات ولم يكن ذكرها يجهل ما يترتبه من الخطر في ذلك السفر فلما وصل الى المحلة التي يبدأ منها الدخول في الصحراء غرباً الى وادي النطرون اخذ يبحث عن قافلة يسير برفقها فعلم ان ركباً يتذهب للمسير في الغد يحمل المؤونة من الزيت والخفطة وغیرها الى دير ابي مقار . ففرح بهذه الفرصة وانخرط في سلككم ومهم راهبان من رهبان

الدبر فسألَهُ عن أمرِهِ فاضطُرَّ أَنْ يكونَ قوله مطابقًا لِلبَلَسِهِ فَقَالَ «أَنِي رَاهِبٌ مِنْ رَهْبَانَ التَّوْبَةِ»

فَقَالَ لِهِ الرَّاهِبُ «أَنْتَ كَمَا بَعْدَهُمْ إِلَى الْبَطْرِيرِكَ عَنَائِلَ» وَتَحْنَعَ  
فَقَالَ «نَمَّ أَحَبُّ تَقْيِيلَ يَدِيهِ»

فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ التَّفْتَ أَحَدُ الرَّاهِينَ إِلَى زَمِيلِهِ وَبِسْمِ كَمَّهِ يُنْبِهُ إِلَى شَيْءٍ لَاحِظَهُ فَلَمَّا  
رَأَى ذَكْرَ يَاسِمَهُ وَإِيمَادَهُ خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ كَشَفَ أَمْرَهُ — وَيَكَادُ الْبَرِيبُ بِغَوْلِ خَدْوَنِي  
— لَكِنَّهُ خَلَدَ وَالْتَّفَتَ إِلَى الرَّاهِبِ الَّذِي شَحَّكَ وَقَالَ وَهُوَ يَظْهِرُ عَدَمَ الْأَهْمَامِ «مَا بِالْكَ

تَضْحِكُ إِبْرَاهِيمَ الْأَخْمَصَ لَمْ تَصْدِقْ قُولِي؟»

قَالَ «الْعَفْوُ يَا أَخِي» لَيْسَ هَذَا غَرْبِيُّ «مَعَاذُ اللَّهِ أَنْ أَشْكَ في قَوْلِكَ

وَلَكِنِي شَحَّكَ لِأَمْرٍ تَذَكَّرُهُ وَقَعَ مِنْ عَهْدِ غَيْرِ بَسِيدٍ» وَإِذَا كَنْتَ آتَيْتَ مِنْ التَّوْبَةِ الْآنَ  
فَلَكَ جَدِيرٌ بِعِرْفِهِ»

فَلَمَّا سَمِعَ ذَكْرَ يَاسِمَهُ بِهَذَا الشَّرْطِ خَافَ أَنْ يُنْكَشَفَ أَمْرُهُ وَيُظْهَرَ أَنَّهُ مُتَكَرِّرٌ فَرِيعًا كَانَ  
عَلَيْهِ بَأْسٌ فَابْتَسَمْ وَأَغْفَى كَمَّهُ يَعْرِفُ السَّرِّ وَيُوَدُّ السُّكُوتَ عَنْهُ وَأَكْتَفَ بِأَنَّهُ تَحْقِيقٌ وَجُودٌ  
الْبَطْرِيرِكَ عَنَائِلَ هُنَاكَ فَوَاقِهُ الرَّاهِيَانَ وَقَضُوا ذَلِكَ الْيَوْمَ فِي الْإِسْتِعْدَادِ وَاقْلَعُوا فِي صِبَاحِ  
الْيَوْمِ الْتَّالِي وَمَعْهُمُ الْخَدْمُ لِسُوقِ الْجَمَالِ أَوِ الْبَقَالِ وَكَلَّا لِلَّدِبِّرِ وَهِيَ تَعْمَلُ جَرَارًا مِنْ  
الزَّيْتِ وَأَكِيلًا مِنَ الْمَنْطَلَةِ وَالْمَدْسِ وَالْفَوْلِ وَبِعِنْدِ الْأَقْثَةِ غَيْرُ مَا عَلَيْهَا مِنَ الْأَقْوَاتِ  
وَلَلَّاءُ لِلنَّطِيقِ

وَمَا يَبْطِئُ الْصَّحْرَا حَتَّى أَصْبَحُوا فِي قَفْرٍ يَكْتَفِيهِمُ الرَّمْلُ وَالصَّخْورُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ  
كَمَا يَكْتَفِي الْمَاءُ السَّافِرِينَ فِي الْبَحَارِ إِذَا لَمْ يَرُونَ حَوْلَهُمْ كَيْفَمَا تَوَجَّهُوا إِلَيْهِ الْأَمَاءُ وَالسَّافِرُ فِي  
الْبَادِيَةِ إِذَا اوْغَلَ فِيهَا لَيْلَ حَوْلَهُ الْأَوْمَالُ وَمِنْ أَجْلِ مَنَاظِرِ الصَّحْرَاءِ فِي الْهَارِمَنْظَرِ  
السَّرَّابُ أَوِ الْأَلَّ الَّذِي يَتَرَاءَى لِلنَّاظِرِ عَنْ بَعْدِ كَمَّهُ مَاءُ بَحْرِيٍّ فِي نَهْرٍ أَوْ بَحْرٍ وَبَرِيٍّ اَتَلَالِ  
الشَّجَرِ أَوِ الصَّخْورِ فِي أَسْفَلِ الْمَاءِ كَمَا تَعْكِسُ عَنْ شَوَاطِئِ الْبَحُورِ فَيَرَاهَا الْمُقْبِلُ عَلَيْهَا  
عَنْ بَعْدِ

وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْمَنَاظِرُ غَرْبِيَّةً عَلَى ذَكْرِ يَاسِمَهُ فَقَدْ رَكِبَ الْبَادِيَةَ مَرَارًا وَرَأَى السَّرَّابَ وَرَأَى  
الْذَّلِبَ فِي شَيَابِهِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَأْتِ دَهْرَ إِلَيْيِ مَقَارِبِ قَبْلِ ذَلِكَ الْحَلْبِينَ وَلَا عَرَفَ الطَّرِيقَ إِلَيْهِ فَكَانَ  
مَعْوِلَهُ عَلَى رَفَاقَهُ وَرَأَاهُ فِي قَلْمَةِ الْبَيْالِ فَقَالَ لَهُمْ وَهُمْ يَسْوَقُونَ هَجَنَّمَ ضَحِيَ ذَلِكَ الْيَوْمِ لَا  
يَسْمَعُ لَهُ خَطْرُهُ عَلَى الرَّمَالِ «أَرَاكُمْ فِي قَلْمَةِ وَعْدِيِّي إِنَّ الْفَاقِلَةَ إِذَا لَمْ تَكُنْ قَوْيَةً يَخْشَى عَلَيْهَا

من فاطمي الطريق هنا »

فقال احد الراهبين « كان ذلك قبل ولاية ابن طولون فانه احسنظن بالاقباط ومنع التعدى عنهم فاصبح الواحد والاثنان يسافرون متفردين ولاخوف عليهم »

فقال زكريا « صدق ان حال مصر في ذلك هذا الامير لم يسبق له مثيل بعد امراء العرب في اول الفتح »

## الفصل الثاني والرابعون

### الاشباح

واستراحوا نحو الاeshire وتناولوا الطعام وعادوا الى المسير حتى امسى المساء فنصبوا خيمة خفيفة الحمل للبيت فيها . وجلسوا للطعام وقد دنت الشمس من الافق واخذت تستعمل حق حارت كثيرة الشكل واحرر لونها واحتاط بها حالات من الشفق باهرة الالوان مما يسرع المقول . ولو كان اهل تلك القافلة من الشعراو لوقفوا مبهوتين طيبة الطبيعة وخيل لهم انهم يسمعون خطيباً يعظهم امر الخلقة ويستعظم سرها — لا يخطر للانسان عظمة هذا الكون وذكر شأنه الا اذا خلا في موقف طبيعي مثل هذا . واما في المدن فتشغل الجواذب والدوابع ويبلو بخلاته ومطامعه . ولكن اصحابنا الرهبان لم يكونوا من الشعراو ولا استلتفت ذلك المنظر انتباهم وانما شغلتهم تعجبهم عن كل شاغل فذهبوا الى الرقاد على ان يقلعوا في اللند فيصلوا دير ابي مقار قبل الغروب

وكان زكريا اكثرب رغبة في الوصول لانه حالما تبطن الصحراء خطرت دميةانه في باله لانها اخذت الى مثل هذه البداية واصبح سرير الرغبة في استئناث هجينة للوصول الى الدير لكنه لم يبدأ ان يترك رفاقه لان جمال الحلم تشي بيده ، بخلاف المجنون . فخطر له ان يستأذن رفاقه في صباح اليوم التالي ليسبقهم وحده فلا سالم انكروا عليه اقراره فوافقهم واقلعوا في الصباح وساروا ولم يقطعنون منخفضات ومرتفعات ليست من قبيل الاودية والجبال وانما في تماريج لا يبرح معها المسافر كيما توجه بيمد نفسه محاطا باللال الصخرية او بروابي الرمل وفي اصيل ذلك اليوم اطلاعوا من حافة ذلك السهل على واد عظيم فيه آثار ايدى الانسان من الابنية المتفرقة وبعض الاشجار المبعثرة وابو بناء كبير وقع نظرهم عليه دير ابي مقار يقرب

فتحة الوادي عن بعد شاسع وحالما اطلوا عليه اشرقوا وجوههم وقال احمد « هذاهو الدير »  
 فقال زكريا « لا بد من الوصول اليه الليلة » قال ذلك بفترة الاستفهام دليلاً  
 على رغبته في الوصول وخوفاً من تباطؤ القافلة فاجابه الراهب « اظتنا نصل واذا لم نصل  
 ففي صباح الغد . . . واذا كانت الليلة مقررة نواصل السير ليلاً حتى نصل . اذ يظهر لي  
 انك مستعجل في مهمتك يا اخ » وضحك فعلم زكريا انه يقول ذلك على سبيل المزاح لانهم  
 عرفوا من الامس ان الليلة مظلمة والقصر في اواخر ايامه قادرك انهم يمازحونه او يعنون به  
 فلم يبيههم وتشاغل باصلاح رحل جله سخنه . وينام سائرون وعينا زكريا يخوا الدبر وفع  
 نظره عند اول الوادي على اشباح راكبين على هجين ولم يستطع تغييره وبعد المسافة فقال  
 لاقرب الراهبين اليه « اني ارى اناساً ودواه من هم ؟ »

فنظر الراهب الى الوادي وتفرس فليلاً ثم قال « الا تراهم خارجين من الوادي انهم  
 من التجار يحملون احمال الملح والنطرون اور يا حملوا القش الذي يصنعون منه الحصر  
 فانه كثير هنا »

قال « لا ارى معهم احمالاً ما ذكرت واذا كانت مهمتهم احمال فينبغي ان تكون اقل  
 من ذلك كثيراً »

وكان الراهب الآخر يتغرس في الاشباح فلما سمع جواب زكريا قال « صدقت . . .  
 اصحابهم من تجارة الزجاج لان في هذا الوادي عملاً يصنعون فيه الزجاج بمنطقة الـ من  
 تفتقه في الفسطاط فيتاجع التجار من هذا كيـات كبيرة يحملونها الى الـ اـواق »

قال زكريا « لم اكن اعلم ان الزجاج يصنع في هذه الارض المقطعة »

قال الراهب « هو يصنع هنا من عهد دولة الروم ولا يزال <sup>(١)</sup> »

فسكت زكريا وبعد هنـية توارت تلك الاشباح وراء التلال ولم يعودوا يروتها وطفقا  
 سائرين في طريقهم وعيونهم نحو الدبر ولا سيما زكريا فانه كان اكثـم رقة في الوصول  
 وزاد قلقـه لما شـهد الشمس تنتـرـب من الافق خـوفـاً من تخـيم الظلام قبل الوصول

ومـ في ذلك رأـوا هـجانـا ظـهرـ من وـراءـ رـاـيةـ وـعلـيـهـ الغـباءـ وـالـكـوـفـةـ اوـفـ هـجيـنـهـ لـحظـةـ  
 ثم اـشارـ اـشارـةـ وـقـدـمـ وـظـهـرـ وـرـاءـ،ـ بـضـعـةـ جـالـ علىـ كلـ مـنـهـ رـاكـبـ وـكـاهـمـ مـسلـحـونـ بالـرـماـحـ .ـ  
 وـرـآـهـ زـكـرـياـ يـتـقدـمـ مـخـافـ لـانـهـ توـمـ فـيـهـ الـفـدـرـ اـذـ لمـ يـرـ مـعـهـ اـحـمـالـ فـالـفـتـ الىـ  
 رـفـيقـهـ الـراهـبـينـ فـرـآـهـاـ قـدـ تـغـيـرـ وـجـهـاـمـ فـقـالـ « يـظـهـرـ انـ هـؤـلـاهـ لـيـسـ تـجـارـاـ .ـ وـاظـنـهـ

من الاعداء فان البسم عربية «  
ولم يتم كلامه حتى رأى القوم يسوقون شعورهم وقد اشروا الاشباح انهم من  
الاعداء فأخذ يتأهّب للفرار وادا بهجان منهم تقدّمهم وهو ملثم وأشار يده كأنه يقول لهم  
« قفوا عندكم »

فقال ذكرى يا « ماذا تريدون .. من انت ؟ »  
وكان قد وصل المجنان اليهم فخross يذكرها ولاتبيهه قال له باللغة الفبطية « الت  
قادماً من التوبية ؟ فف ولا تفرق »

فرا .. ذكرى يا يتكلّم القبطية كنهـ واحد من اهلاها مع ان لباسه عربى فاشكّل امر عليهـ  
وقال في نفسه « لا يمكن ان يكون هذا عربيا .. فقللهـ جاصوس من الاقياط بعض العرب  
عليهم » وزاده نشمة شيبة بهـ لكنهـ شغل بالغوف منهـ عن البحث في شأنهـ

تحقق القوم عند ذلك انهم مأخوذون وعلم ذكرى ان رفاقه لا يستطيعون الفرار لقلـ  
احاملـ أما هو فقللهـ خفيف وليس عليهـ ما يعنـهـ من الامراض فتـهـا للفرار وقد استغرـ  
قول الرجل انه راهب نوبي فتقدـم الراهبان وارادـا الاتـهـام عـا يـرـيدـهـ اوـلـاـكـ فـقـالـ احدـهاـ  
يمـحـاطـ بـذـاكـ المـجـانـ « ماـذـيـ تـغـوـنـهـ مـنـاـ »

قال « ازكـوا الـاـحالـ وـالـجـنـوا بـاـنـكـ »

قال « اـنـاـ نـحـمـلـ طـعـامـ الدـبـيرـ .. وـلـمـ نـمـدـ اـحـدـاـ نـعـرضـ لـناـ فـبـلـاـ لـاـنـاـ اـصـدـقاـهـ الـامـيرـ  
صاحب مصر »

قال « لـمـ نـعـرضـ لـكـ اـنـاـ الـآنـ فـاـنـ اـعـداـوـنـا .. وـاـذـاـ لـمـ نـخـلـوـ اـنـ الـاـحالـ قـتـلـاـكـ  
فـاـنـجـواـ بـاـنـكـ »

لـتـقـتـلـ الـرـاهـبـانـ وـذـكـرـىـاـنـهـ مـقـلـوـبـوـنـ عـلـىـ اـسـرـمـ لـاـنـ اوـلـاـكـ يـزـيدـ عـدـدـمـ عـلـىـ عـشـرـةـ  
بـالـسـلاحـ الـكـامـلـ وـهـ لـاـ سـلاحـ مـعـهـ فـضـلـاـعـنـ قـلـةـ عـدـدـمـ فـاخـذـوـاـ يـتـوـلـوـنـ اليـهـ انـ يـخـلـوـ  
عـنـهـمـ وـاـنـهـمـ يـسـتـغـرـبـونـ هـذـهـ الـعـاـمـةـ الـيـهـ لـمـ يـسـقـ طـاـشـيلـ مـنـذـ عـدـدـ عـوـمـ فـقـالـ اوـلـاـكـ  
« لـاـكـلـاـوـاـ عـنـ السـبـ بـلـ اـسـأـلـاـ بـطـرـيرـ كـمـ وـهـ يـخـبـرـكـ » فـالـوـاـ ذـكـ وـمـ يـهـ دـوـنـهـمـ بـالـقـتـلـ  
اـذـاـ لـمـ يـخـلـوـ اـنـ الـاـحالـ وـيـنـصـرـفـواـ

فتـقـدـمـ ذـكـرـىـاـيـرـيدـ انـ يـسـطـعـهـمـ وـقـالـ « اـنـ هـذـهـ الـاـحالـ طـعـامـ لـرـاهـبـانـ يـقـيـمـونـ فـيـ هـذـاـ  
الـدـبـيرـ لـاـ اـذـيـةـ لـمـ وـقـدـ اوـمـىـ نـيـكـ بـجـسـنـ مـعـاـلـمـهـ فـهـمـ لـمـ يـرـنـكـبـواـ خـطـيـةـ وـلـاـ أـنـواـ مـنـكـاـ  
يـوجـبـ هـذـاـ الـدـاءـ »

فانهـرـهـ ذـاـكـ الـجـلـ وـقـالـ لـهـ «ـ كـانـواـ كـذـاكـ وـقـدـ اـفـسـدـتـوـمـ يـاءـعـشـرـ التـوـبـةـ .ـ وـسـتـرـونـ عـاقـبـةـ اـصـرـ كـ قـرـيـباـ .ـ وـاـذـ قـلـتـ كـلـةـ أـخـرـىـ اـخـرـجـنـاـ مـاـخـيـهـ بـيـنـ اـتـوـابـكـ مـنـ الرـاسـائـلـ »

## الفصل الثالث والاربعون

### القرار

فخـافـ زـكـرـيـاـ اـذـ اـصـرـ عـلـىـ الـاـنـكـارـ وـبـعـثـوـاـ بـيـنـ اـتـوـابـهـ اـنـ يـعـثـرـوـاـ عـلـىـ الـاسـطـوـانـةـ تـحـتـ اـبـطـهـ فـيـاـخـذـوـهـ وـتـذـهـبـ آـمـالـهـ عـبـثـاـ وـلـمـ يـعـلـمـ مـاـذـاـ يـعـمـلـ لـيـنـجـوـ قـبـلـ انـ يـقـبـضـوـاـ عـلـيـهـ وـمـ اـذـ اـرـادـوـ قـتـلـهـ لـاـ يـعـتـمـمـ شـيـءـ فـتـظـاهـرـ بـالـاسـتـغـافـ وـالـتجـاهـلـ وـقـالـ «ـ فـتـشـوـ فـيـ اـنـيـ لـاـ اـحـلـ شـيـئـاـ وـاـنـاـ جـيـشـ لـأـ فـنـدـرـاـ هـذـاـ الـدـيرـ وـاـنـاـ اـشـيـرـ عـلـىـ رـفـقـيـ اـنـ يـتـخـلـوـ اـكـمـ عـمـمـ وـيـتـبـعـوـيـ قـبـلـ اـنـ يـشـتـدـ الـظـلـامـ فـيـضـلـوـاـ عـنـ طـرـيقـهـ »ـ قـالـ ذـاـكـ وـاـشـارـ اـلـىـ الـاعـبـينـ اـنـ بـيـعـاهـ وـوـزـ جـمـلـهـ فـتـارـهـ وـكـانـ الشـمـسـ فـدـ غـابـتـ وـتـكـانـتـ الـاظـلـالـ مـزـادـ الـقـومـ رـغـبةـ فـيـ الـقـبـضـ عـلـىـ زـكـرـيـاـ بـلـاـ آـنـسـهـ مـنـ رـغـبـتـهـ فـصـاحـوـ بـهـ «ـ قـفـ عـنـدـكـ »ـ وـلـكـنهـ كـانـ قـدـ اـطـلـقـ لـهـجـيـنـهـ العـنـانـ فـاتـقـيـ اـثـرـهـ اـثـانـهـنـمـ .ـ وـكـانـ قـدـ تـعـودـ وـكـوبـ اـجـالـ فـيـ شـبـابـهـ وـقـدـ نـيـهـ لـطـولـ التـرـكـ لـكـنـ رـغـبـتـهـ فـيـ النـجـاحـ وـخـوفـهـ مـنـ وـقـوعـ ذـلـكـ الـاـنـيـبـ بـاـيـدـيـ الـقـومـ جـدـدـ نـهاـطـهـ وـاـحـيـاـشـبـابـهـ قـبـتـ عـلـىـ الرـحـلـ ثـيـاثـ الـجـيـالـ .ـ وـلـكـنـ مـطـارـدـهـ مـنـ اـهـلـ الـبـادـيـةـ الـذـيـنـ شـبـواـ عـلـىـ خـلـوـرـ اـجـالـ فـلـمـ بـطـارـدـهـ الـاـقـلـيلـاـ حـقـ اـحـسـ اـنـهـ كـادـ يـدرـكـاهـ .ـ وـكـانـ الـلـيـلـ قـدـ سـدـلـ نـقاـبـهـ وـاصـبـحـ عـلـىـ مـقـرـبـةـ مـنـ دـبـرـ اـلـيـ مـقـارـعـ ذـلـكـ مـنـ مـصـبـاحـ وـقـدـ هـنـاكـ لـاـهـدـاـ الـقـادـمـينـ فـلـاـ اـبـقـيـنـ بـالـمـلـاـكـ خـاعـ رـشـدـهـ وـاـرـبـكـ فـيـ اـمـرـهـ وـعـنـرـ المـجـيـنـ بـرـاـيـةـ مـنـ الرـمـلـ فـاـخـلـ مـوـقـعـهـ فـهـوـيـ زـكـرـيـاـ عـنـ ظـهـرـهـ وـارـادـ اـنـ يـتـسـكـ بـرـقـبـهـ فـخـاتـهـ بـدـاهـ فـسـقـطـ اـلـاـرـضـ فـوـقـ الرـمـالـ وـالمـجـيـنـ ماـ زـالـ جـاـعـاـ فـيـ عـرـضـ الصـحـراءـ .ـ وـلـاـ وـجـدـ زـكـرـيـاـ بـنـسـهـ عـلـىـ الرـمـالـ سـلـيـاـ اـسـتـرـجـعـ رـشـدـهـ وـرـكـضـ مـخـرـفـاـ عـنـ الطـرـيقـ وـاـخـذـ يـبـثـ عـنـ مـكـانـ يـخـبـيـ .ـ فـيـهـ رـبـثـاـ يـمـرـ الـمـجـانـانـ فـوـجـدـ حـفـرةـ نـزـلـ فـيـهـ وـهـوـ بـلـمـسـ جـوانـهـ اـمـاـ الـمـجـانـانـ فـكـانـ اـحـدـهـاـ قـدـ تـعـبـ وـتـبـاطـاـ وـظـلـ الـآـخـرـ يـسـتـحـثـ هـيـجـيـنـهـ فـيـ اـثـرـ زـكـرـيـاـ وـقـدـ اـشـرـعـ الرـمـعـ وـذـكـرـيـاـ ثـارـةـ يـتـوارـىـ عـنـهـ وـرـاءـ النـلـالـ وـطـورـاـ يـظـرـلـهـ .ـ وـرـبـاـ اـقـتـرـبـ مـنـهـ حـقـ كـادـ يـدـرـكـهـ فـيـعـيـقـهـ هـنـهـ عـانـقـهـ مـنـ وـعـورـةـ الطـرـيقـ اوـ غـيرـهـ فـيـسـيقـهـ .ـ وـلـاـ

سقط ذكر يا عن الجل كان قد يهد عن مطارده وتواري في ظل أكته ولم يقف هيئته بل زاد عدوًّا لانه أجمل من سقوط راكبه وأحسن بخفة مجده ولم ير المجنون المطارد مقط ذكر يا فظل في اثر المجنين . ولم ينتبه ان المجنين يهد وحده الا بعد ان تجاوز مكان السقوط مسافة طولية فايقن ان ذكري يسقط وقد واصبع همه ان يقبض على المجنين من جملة الغنائم فأخذ يتحققه

اما ذكري يا فترقص في تلك الحنرة وعيناه تتعقبان الشبح الذي كان يطارده فرأه تجاوزه في اثر المجنين فاطمأن على حياته فأخذ يتقيش اعضاءه كلا يكون قد تمطل شيء منها فوجدها سليمة وشكراً لله وعد ذلك من كرامات مار مقاريوس صاحب الدير . وافتقد الاـلطوانة فوجدها في مكانها تحت ابطه فاستخرج طرقها وقبله مروراً يقانها واعادها الى عيـها ولبس ينتظر ما يكون من امر رفاته هل ينجون بانفسهم ام يذهبون في جملة الغنائم . فقضت مدة لم يهد يسمع فيها صوتاً خارج من الحنرة والظلام شديد وتساق راية واحد يتلمس ويترنس في ماحوله لعله يرى شيئاً او يسمع صوتاً فلم ير غير نور الدير وقد اصبح فريـاً منه فشيئـاً نحوه وقد احس بالتعب في ساقيه لكن فرجه بالتجاة من القتل اسأـ كل شيء

وما كاد يمشي قليلاً حتى يسمع صوتاً قـ له شـعـره وارتعدت فرائصه — سمع حـيف ثـعبـان يـنسـابـ على مـقـربـةـ منه ثم سـمعـ خـيـفـهـ فـجـمـدـ الدـمـ فـيـ عـرـوـقـهـ وـوـقـفـ وـقـوفـ الصـنمـ لـانـهـ كان يـسـعـ عنـ الثـعـابـينـ السـامـةـ فـيـ تـالـكـ الـبـادـيـةـ وـكـانـ الـظـلـامـ قـدـ حـالـ يـنـهـ وـبـينـ مـاـ حـوـلـهـ فـلـمـ يـعـرـفـ كـيـفـ يـتـقـيـ اـذـىـ تـالـكـ الـحـيـةـ فـأـخـذـ يـرـسـمـ عـلـامـ الـصـلـبـ عـلـىـ وـجـهـ وـيـسـتـغـيثـ بـرـيمـ العـذـراءـ وـمـارـ مـقـارـيوـسـ صـاحـبـ ذـكـ الـدـيرـ وـبـاسـارـ الـقـدـيسـينـ بـصـوتـ كـالـنـسـمةـ وـلـوـارـادـ التـكـلـمـ لـمـ يـسـطـعـ بـلـغـافـ حـلـقـهـ مـنـ الـخـوفـ

ظلـ وـاقـعاـ بـضـعـ دـقـائقـ حـسـبـهاـ سـاعـاتـ حـتـىـ بـعـدـ الـحـيـفـ عـنـهـ قـتـحـقـ نـجـاهـ لـكـ ماـ زـالـ يـخـافـ مـنـ طـارـقـ آخـرـ فـاسـتعـانـ اللـهـ وـاسـتـجـارـ بـقـديـسـهـ وـمـنـيـ نـحـوـ النـورـ الـذـيـ يـرـاهـ فيـ دـيرـ أـبـيـ مـقـارـ

## الفصل الرابع والأربعون

دير أبي مقار

مشى ذكر يا على تلك الرمال وهو يتجسس طريقه . تارة تغوص قدمه في الرمل فيخافف ان تلذغها عقرب وطورا تصدم صخرا او تصربيحه فيجعنه صوتها . وكان محذيا تماماً من القش كانت شائعة في وادي النيل يتجهها بعض اهل الريف من الياف البردي او القنب او البوص . كان يخطو وهو يصربيح شو به واقتضي فتحه فلم يجدوها وكانت قد سقطت في اثناء الفرار ولم يشعر فلم يهمه امرها وأنما همه الوصول الى الدير

ا قبل على الدير فوجده مربع الشكل يكتنفه سور عال اشبه بأسوار قلاع المصارطول كل ضلع من اضلاعه ١٤٠ متراً ولم يكن ذكر يا جاء ذلك المكان من قبل ولكنكه كان يسع ان القادر على امثال هذا الدير يقع جرساً فوق الباب فيفتح له . فأخذ يفتح عن الباب فدار حول السور فلم يجدوه فاتجه بالخطأ لاعتقاده ان الدير لا يمكن ان تكون بلا ابواب . فاغاد التقنيش بدقة فوصل الى مكان من السور وجد عنده حجري رمح كبيرين قطر الواحد منها ثلاثة اذرع فتفسر فيما فرأى وراءها باباً لا يزيد علوه على ذراعين واذا فتح لا يدخله الانسان الا ساجداً . فدأ يده الى الباب جسها بانامله فرأه مفعماً بالمدبر الضخم بحيث يستحمل كسره وهو لم يكن يرى كسره وانما يرى ان يعلن اهل الدير بوصوله ليفتحوه له فقال في نفسه « اذا كان هذا هو الباب فلا بد من وجود الجرس عليه او وراءه » فسلق على احد الحجرين وتاس الحائط فوجد عليه جيلاً جذبه فسمع صوت الجرس وكان له دويٌ في ذلك البيل الموحش . وعلا نباح الكلاب من الداخل ووقف ينتظر ما يكون

وبعد هنئية رأى اشعة نور مرسلة في الفضاء داخل السور تفترس نحوه وأخيراً رأى النور اصبح فوق السور يحمله راهب هرم قد اطل عن السور وهو يتناول بمنقه والمصاحفي يده وقد مد لها خوز ذكر يا كانه يستكشف حاله ووقيع اشعة المصباح على وجه الراهب فابان عن شيخ هرم شحمة وجهه وشيب شعره . وحالما وقع بصره على ذكر يا قال باللغة القبطية « من انت »

قال « غريب فاصد زيارتك لتفبيل امامي البطريرك والثبرك يصاحب هذا الدير »

قال « هل انت وحدك ؟ »

قال « نعم يا اخي الا تفتح لي ؟ »

قال « ان فتح الباب يقتضي مشقة كبيرة لازاحة الحجرين من الخارج والاجمار التي وراءه من الداخل فالاوفق على ما ارى ان ندللي لك جيلاً ونرفقك بالبكرة »  
قال « كذا شاء »

فهي الراهن ثم عاد وادلى له جيلاً ثالث به فادر الراهن بكرة كبرة البشر فصعد ذكرى حتى بلغ اعلى السور فسلم على الراهن ونزل من وراء الباب وقد تقطعت معظمه بالاجمار الصخمة التي دعموا الباب بها . وربما زاد وزنه على عشرات القناطير . فاستغرب ذكرى بذلك المذعر لان نقل هذه الانتقال يقتضي وقتاً ومشقة فقال « اراك قد اكترم من الدعائم للباب كأنك في حمار »

قال « لم تفعل ذلك الا في هذين اليومين لاسباب ستعلمها .. تفضل الآف الى غرفة الاشياء وقد انعرض امرك للرئيس »

ومشي الراهن بالصبح امامه بين خلالات تناثر السحاب حتى ادخله غرفة معدة للاشياء وقد اخذ التعب منه مأخذ اعظم فصل فرضه ونام

ودير الي مقار عبارة عن سور الذي ذكرناه وفيه خمسة ابنيه : ثلاثة كنائس وباباً لسكن الرهبان وقضاء حوالجهم من اعداد الطعام وتناوله وبرج عال يقال له القصر فيه ذخائر الدبر من الكتب او الابنية القديمة . وينخلع هذه الابنية غليل وبعض المفرومات التي يحتاجون اليها في اصلاح الطعام

والكنائس المشار اليها في (١) كنيسة الي مقار على اسم صاحب الدبر (٢) كنيسة الشيوخ (٣) كنيسة ايسخرون . والبناء الذي فيه مساكن الرهبان عبارة عن دار واسعة تحيط بها غرف بعضها للنائم وفيها غرفة مستطلبة للطعام وحجرة كبيرة للطحن وآخر الغبر واخر للطبع . اما القصر فإنه مؤلف من طبقتين السنديانيتين معقودة فيها خزانات الكتب او غيرها من الذخائر الشجنة كالالبس او التبغ او الص bian ونحوها ومخازن المؤونة لزيت واللختة وفيها منازل مريحة يلتجأ اليها الرهبان عند الخطر العظيم اذا اخذ ديرم

وفي الطبقة العليا من هذا القصر ثلاثة معايد احداهما على اسم مار سواح والآخر مار انطانيوس والثالث باسم مار مغائيل . وفي هذا المعبد الآخر جثت البطاركة الذين ماتوا هناك محشطة في توابيت . والنصر حصين قد احتاطوا لمنع الاذى عنه بائمه جعلوا بابه في

الطبقة العليا لا يمكن الصعود اليه الا على سلم او جسر مدرج واصطمعوا له سلاما مستقللاً ضمهم  
الشكل ثقيل الحمل يتصل عليه عند الحاجة فاذا اترل عنه لا يمكن رفعه الا بالآلات  
الرافعة او يتعاون في نصبه عدة رجال<sup>(٤)</sup>

وافق زكريا في صباح اليوم التالي على صوت الناقوس الصلاة باكرآنهض واسرع  
مع سائر الرهبان لحضوره القدس في كنيسة اي مقار وهي الخنم تلك الكنائس واجلها  
نها ثلاثة هيكل اكبرها الميكل الاوسط مساحته ٢٥ قدمآ في ٢٠ عليه قبة بيضاء من  
القرميد على طرز جميل وعلى جدرانها صور بعض القديسين وفي وسطها مذبح من الحجر  
وراءه مقاعد كبار

فاصطف الرهبان لسماع الصلاة وعددهم بضع عشرات ينتمي لهم عدة قوسون يتقىدهم  
البطريرك بلباس الصلاة ورئيس الدير . وكان زكريا يعرف البطريرك من قبل وقد شاهده  
مراراً في كنائس مصر لكنه رأه الآن قد تغيرت ملامعه وبانت الشيخوخة في جيئه ولاحظ  
فيه اقبالاً لم يهد به مثله فقال في نفسه « لامر ما تغير البطريرك » وزاد رغبة في  
ملاقاته . فاقامت الصلاة بالتطيبة على جاري العادة وليس في الجم غريب غير زكريا  
فاستلتفت وجوده انتباهم واصححوا يتظرون التراغ من القدس لسماع حدثه

## الفصل الخامس والرابعون

### البطريرك مخائيل

اما هو فحالما أقامت الصلاة وخرج البطريرك والرهبان ذهب الى الراهن الذي  
استقبله في الامس وطلب اليه ان يقدمه الى البطريرك فاستلمه الى ما بعد الفطور ودعاه  
الى الطعام في غرفة مستطيلة في وسطها مائدة طوبية من الحجر الى جانبها مقاعد يجلس  
عليها الرهبان في صفين . فاجلسوه معهم وجاء الطعام وهو في غاية البساطة لا حلم فيه  
ولا فاكهة وأخذوا يأكلون بعد صلاة مختصرة الا راهناً منهم تولى قراءة فصول من  
الكتاب المقدس في أثناء الطعام

وكان زكريا يأكل وقلبه مشتغل بما سيدور بيده وبين البطريرك من الشؤون التي

جاء من اجلها او اتفقت له في طرفة . وقد محقق ضياع المؤونة المحمولة الى الديروالدين حلوها اذ لم ير واحداً رجع منهم الى تلك الساعة . وكان الرهبان يتحادثون ويشركون ذكرييا في حديثهم وهم يحسبونه راهباً مثلهم

فلما فرغوا من الطعام قدم الراهب الشیخ الى ذكرييا ان يتبعه الى غرفة ويس

الدير فقدمه اليه فلسرع ذكرييا الى قصيل يده فرحب به وسألته عن حاله وغضبه فقال

« جئت لمقابلة اینا البطريـك »

قال « الملك من رهبان التوبة ؟ »

فوجم هنـية و لم يجـب فرارـاً من الكـذـب ثم قال « كـلاً يا سـيدـي و أنا لـست هـذا

التـوب لـبـلـبـ سـأـعـرـضـ عـلـى مـوـلـاـ البطـرـيرـكـ »

قال « حـنـاً . ولكن غـبـطـه مـشـفـولـ الآـنـ وـعـاـلاـ يـرـضـيـ بـقـابـلـهـ أـحـدـ »

فاطـرـقـ ذـكـريـاـ وـوـجـدـ نـفـسـهـ غـيرـ قـادـرـ عـلـىـ الصـبـرـ قـالـ « أـوـدـ مـقـابـلـهـ السـاعـةـ وـإـذـتـ

انـ قـالـ لـهـ لـمـلـهـ يـسـمـحـ بـقـابـلـيـ فـانـيـ قـادـمـ إـلـيـ بـهـمـةـ »

قال « أـحـبـكـ قـادـمـاـ مـنـ بـلـادـ التـوـبـ »

قال « كـلاًـ »

فهمـ الرـئـيسـ انهـ يـكـنـمـ شـيـئـاـ لـاـ يـرـيدـ التـصـرـيـعـ بـهـ فـاستـهـلـهـ وـيـمـعـثـ اـلـىـ البطـرـيرـكـ

فكـتـ ذـكـريـاـ حـتـىـ عـادـ الرـسـولـ وـهـ يـقـولـ « اـنـ غـبـطـهـ البطـرـيرـكـ لـيـسـ فـيـ غـرـفـتـهـ »

قالـ الرـئـيسـ « يـكـفـ ذـكـ ؟ لـمـ يـتـاـوـلـ القـطـورـ ؟ »

قالـ « يـظـهـرـ اـنـ لـمـ يـأـكـلـ اـلـيـومـ »

فـهـزـ الرـئـيسـ رـأـهـ هـزـةـ الـاسـفـ وـقـالـ « لـمـ اـرـ غـبـطـهـ فـيـ قـاقـ مـتـلـ هـذـاـ الفـلقـ مـنـذـ

عـرـفـتـهـ » سـامـعـ اللهـ منـ يـبـهـ لـهـ » قـالـ ذـكـرـيـاـ وـنـدـمـ عـلـيـهـ فـاتـدـرـ الرـسـولـ قـاتـلـاـ « اـبـحـثـ

عـنـ غـبـطـهـ فـيـ القـصـرـ لـهـ ذـهـبـ اـلـىـ هـنـاكـ فـقـدـ رـأـيـهـ يـكـنـزـ الزـدـادـ اـلـىـ كـنـيـةـ مـارـ عـائـيلـ

هـذـينـ الـيـوـمـيـنـ »

فـذـهـبـ الـراهـبـ الرـسـولـ وـمـادـ وـهـ يـقـولـ « لـمـ اـنـهـ فـيـ القـصـرـ » وـقـدـ كـافـتـ شـمـاءـ

انـ بـسـأـلـهـ عـنـ عـزـمـ اـخـيـناـ مـقـابـلـهـ قـالـ « اـنـ غـبـطـهـ لـاـ يـقـابـلـ اـحـدـ اـلـآنـ لـاـهـ فـيـ شـاغـلـ

خـاصـ »

فـرـأـيـ ذـكـريـاـ اـنـ يـتـحـمـ هـذـاـ الـاسـرـ وـيـطـلـبـ مـقـابـلـهـ لـاـعـتـقادـهـ الدـالـةـ عـلـيـهـ مـنـذـ هـرـةـ

فـيـ مـصـرـ فـوـقـ ذـكـريـاـ وـقـالـ لـلـرـئـيسـ « يـأـذـنـ سـيـدـيـ الرـئـيسـ اـنـ يـرـاقـنـيـ الـاخـ اـلـىـ الشـيـاسـ »

واما استاذه «

فأشعار الرئيس الى الراهب فتنى مع ذكرها حتى خرج من تلك الدار واطل على  
القصر الذي ذكرناه وهو اشبه بالابراج منه بالصور فوجد السلم منصوباً عليه فقصد  
الراهب وزكريما في اثره حق وصلا الى الطبقات العليا فاستقبلهما الشهاب وتصدى لها والسان  
حاله يقول « الم أقول لكم ان غبطته مشغول ؟ »

فليس رأه ذكرها عرقه وتذكر انه التق به صراراً فتقدم اليه وجاه فلما سمع صوته  
عرقه فقال « ذكريما »

قال « نعم يا سيدى »

قال « ما الذي جاءك الى هذا المكان ؟ »

قال « جئت لا قبل انا مل البطريرك »

فنهى وقال « انه يصل في معبد مار مخائيل .. لا يدخل عليه احد »

قال « ولا أنا ؟ فقد قطعت السهل والجبل ونعمت المشقة من طاه التلل الى هنا  
الا يؤذن لي بمشاهدته ؟ »

فلما سمع ذكر طاه التلل تذكر اجياعه بصحابها مرقس هناك فقال « وابن هو  
المعلم مرقس ؟ »

قال « هو في النسطاط .. استاذن لي البطريرك في الدخول .. »

قال « ماذا اقول له ؟ »

قال « قل له " ولدك ذكريما خادم ديميانة يطلب تقبيل يديك »

قال « وهل يكفي هذا التعريف ؟ »

قال « يكفي »

فدخل الكتاب وعاد ووجهه مبسط وقال « ادخل » ومشى بين يديه حتى اقبل

على معبد مار مخائيل وأشار اليه ان يتقدم ورجع

## الفصل السادس والابعون

### حدث ذو شؤون

اطل ذكري يا على تلك الكنيسة الصغيرة وهي غرفة واحدة فسمت الى هيكل وغورس يجاوز من خشب لا يبلغ السقف قائم بخمسة اعمدة عليها بعض القوش والصور . وكان يتواتع ان يرى البطريرك وافقاً الى المذبح للصلاه في وسط الميكل فلم ير غير فلسونه هناك «وقف لعله يراء فادما او يسمع صوته ينادييه واذا هو قد أطل من وراء الحاجز فاجفل ركري يا عند رؤيته لما في وجهه من التغير وهو حامر الرأس وقد تدل شعره على قفاه وخديه وتجددت لحيته واحمرت هيباته كانه آت من وراء موقد تكافل دخانه» ولما وقع بصوره على ذكري يا دار من وراء الحاجز سق خرج اليه وهو يقول «ذكري يا اين انت آت؟»

فتشيب عند م咽 صوت البطريرك مع ما شاهده في وجهه من آثار التهيج واكب على يده ليقبلها باحترام فمعه «وقف مطرقاً وقد أحنى رأسه وقال «أني آت من الفساطط باسيدي»

قال «كيف فارقت استقها؟» وتشاغل باصلاح شعره وظاهر من غثة صوته انه يضمر شيئاً

فادرك انه يشير الى كتابه كان قد كتبه اليه يستجدء فيه على ذلك الاستف فأنجده ولم تنفع نجدهه خاف ذكري ان يكون قد ساء ذلك فقال «فارقة في خير» فامسك البطريرك يد ذكري ودعاه الى الجلوس بين يديه وجلس على كرسى فباتا ذكري في الجلوس اجلالاً لاقام البطريرك «اللح عليه قمتد على الارض مطريقاً متأدباً فقال البطريرك «فارقت استف الفساطط في خير .. وكيف فارقت تلك الفتاة المظلومة؟» قال «اما جئتكم باثنمها يا سيدى» وتنهى وسكت ثم قال «ان هذه المسكينة قد توالى عليها الوائب والاحن .. واذا سألتني عنها فصممت حدتها عليك غير اني الشه من مولاي البطريرك ان ياذن بسؤال ارجوان لا يضن بالجواب عليه - هل اسأل؟» فنهى البطريرك تنهى ختمه بزفير طويل ثم قال «مسألي عن امور استغرب بها في .. سألي عن حالي .. أليس كذلك؟»

قال «بل يا سيدى .. كنت قادماً اليك بهمة استنجادك فيها فشغلت عنها بما اراده»  
بلك من الاقتباس والغضب وعهدى اننا في زمن صاحب مصر الحالى ابن طولون في امان  
وسكينة فهل حدث تغير لا اعلم؟

قال «حدث اشياً كثيرة اساها ابن طولون معاملتنا وبالغ في اسطعادنا بما لم  
يبقى الى مثله سقاوه» الذين كانوا نسخة بظلمهم وشكوا جورهم .. ولكن لم يفعل ذلك  
من تفاهة نفسه .. ان الشر جاء من عندنا .. جاء من ابناها .. هم الذين ساقوا هذا  
البلاء علينا ..» قال ذلك ولحيته ترقص من الغضب

لتهيب زكريا ولم يجسر على الاستيفاح فقال «اساكتاً فاستائف البطريرك الكلام فاتلاً  
كانه يريد تغيير الموضوع » كيف اتيت الى هذا المكان؟ هل اتيت وحدك؟

قال «نعم يا سيدى» ونذر ما جرى له وما اصاب الراهبين واحملها تتحقق ان خادتها  
علاقة بما يشير البطريرك اليه فقال «اصطببت ركيماً آتياً باحمل المسؤولية الى مذا الدير»  
قطع البطريرك كلامه فاتلاً «وما ذا جرى لهم؟ اين هم؟

ترقص عليه حديثهم باختصار ولا ذكر كلام ذلك المجن عن تغير ابن طولون على  
الاقباط قطع البطريرك كلامه فاتلاً «هذا ما اشرت اليه في اثناء حديثي» ورفع رأسه  
وقال «وبلاء .. آه يا ربني وعاصي ماذا اغلقت قلوب حكامنا علينا»

فازداد زكريا رغبة في معرفة الحقيقة فقال «وما الذي جرى يا سيدى .. لقد  
شغلت بالي ..»

قال «ماذَا اقول لك وقد بعث اليَّ ابن طولون بالامس يطلب مالاً قال هو في حاجة  
اليه ليوصله الى الخليفة في بغداد» ومد البطريرك يده الى جبيه واستخرج درجةً تغفره وقال  
«هل تقرأ التطبيقة؟»

قال «نعم يا سيدى اقرأها»  
دفع الدرج اليه وقال «اقرأ»  
فتاوله زكريا وقرأ فيه ما ترجمته «انت تعلم ما هو واجب علينا من تادية اموال الجزية  
الى خزينة الخليفة ينخدع صاحب هذه الديار مع ما هو عليه الان من الاحتياج الى  
نقفات الطرف .. فن كان في مركز زكريا بطريق لا يحتاج الى أكثر من نقفات الطعام  
والباس .. وقد عملت اتك ذو ثروة طائلة من قهود وآنية ذهب وفضة واتواع الاقة الطيرية  
وقد استدعوك بوفار لا با خطرار غادفع ما لديك لا بعث به الى الخليفة فتحظى مني ومنه

بنت جزيلة »<sup>(١)</sup>

فلم يفرغ زكريا من القراءة دفع الدرج الى البطريرك وقال له « من ابن ناتي بهذه الطالب ؟ »  
قال « لا ادري .. وقد كتبت اليه اشكو عندي وفقر الاذيرة فلم يصح .. وفي عزمي ان أوسط كاتب المادوانى في ذلك »

فلم يسمع زكريا اسم كاتب المادوانى تذكر اسمقطانوس فاطرق ونغيرت سجنه فادرك البطريرك فيه ذلك وقال « ما بالك يا تى ؟ ما الذي غيرك ؟ »  
قال « تذكرت امراً جرى لنا في الفسطاط وحديثاً سمعته منك فلاح لي ان هذا التعدي ليس اصله من ابن طولون »

قال « ألم أقل لك ذلك ؟ .. انه من أبنائنا .. » ونهى وقال « لقد اطلت الكلام واطلقت لنفسى العنان معك ولم اخاطب أحداً سواك بهذا الامر .. لا ادري كيف وجدت راحة بالحديث معك .. هل تعرف سبب هذا الغضب ؟ »

فتكلم زكريا وبالغ فى التأدب وقال « لا اجهل ضعى وتنازل غبطة البطريرك في محادثى فان مثلى لا يعلم بهذا الاعلام .. »

قطع البطريرك كلامه قائلاً « كلا .. ليس هذا مرادي .. وليس في التصرانة تفاضل بين ابنائنا .. وما البطريرك الا والد والرعايا اولاده لا فرق بين خادمهم وخدمتهم .. وزد على ذلك اني استدار الحديث معك وارتاح بلباسك وبناه عليه فاني احب ان اطلع على ما عندك .. هل تعرف سبب هذا الغضب ؟ »

قال « اذا سمحت لي قلت ما يخطر بالي » قال « قل »

قال « انى ذكرت يا سيدى يوم كتبت اليك استجدى على امقف الفسطاط ؟ »

قال « نعم اذكر .. وقد كتبت اليه اوصيه بالفتنة خيراً »

قال « اظن كتابك صاد .. ولا يخلو ان يكون حمله غضبه على الشاشية »

فقال البطريرك « لا يخلو ان يكون ذلك صادق الى النكارة بي .. ولكنني اعرف مثباً آخر كان له تأثير اعظم .. ومنه يتبين لك انا نحن عشر المسيحيين تحمل حكمانا المسلمين على ظلمتنا .. وما ذلك الا من فساد نياتنا وكثرة خطاياها .. » قال ذلك وتحمّح وبلغ ريقه

قطاول زكريا اسماعيل البطريرك

فقال البطيريك « السبب الآخر الذي أعرفه التي دعيت مع رعطف من الأستانة لكتاب كتبية جديدة في جهة دشور من أرضية سخا فلآخر استلف هذه الارشية عن المحضور فبدأت بالصلة قبل حضوره فلما جاء غضب وهميل<sup>١</sup> وأنا أقدم المترابان المقدس وخطنه من يدي والقاء على الأرض وخرج مقدست بعضاً حكم بقطعه من وظيفته فاضغط في السو» ودوس إلى ابن طولون أن عندي أموالاً كثيرة فبعث اليه ابن طولون بذلك الكتاب .. ولكن لا يأس أن الله لا ينصر الطالبين والسيد المسيح لا يتخلى عن رسالته « ووقف البطيريك بفؤقة ذكرى يا حالاً وتحذر للزوج فامككه» البطيريك يكتبه وقال « تعال مي » ويشى به شفوا الماحر الذي كان البطيريك وروه « مادخله الميكل ولم يقع بصر زكريا على ما هاتك حق الجبل وتراسع والتعمت إلى البطيريك لفترة استغراب وعيناه شاختان من الرعب فقال له البطيريك « لا تخف يابني إن هذه الحلة التي تراها أماك في جئت إياكما الأبرار أسلاماً أنا البطاركة الذين نتمدّون في على هذه الدبار<sup>(١)</sup> .. وقد حفظت محطة ها احتفاظ<sup>(٢)</sup> بقيامه ولا انتدّ في القاري في البيل العابر يكرت في هذا الصباح ففتحت هذه التوابيت وجعلت الفرس بهذه الوجه لا تقرب تصوراتي من الملام الذي وأعملت العبرة عسى أن يفتح على برأي ينتفع ويتفق اولادي الآف ط من هذه الورطة وشعرت وأنا منفرد بهذه لرم كفي في مجلس شوري مجده عن هذا العالم .. وكم ثنيت لو حلقت الجنة ولكنني استرشدت بارواحها »

## الفصل السابع والرابعون

حديث ذكر يا

وكان ذكر يا وأناً وهو يرتد من حول ذلك المظار العجيب ولم يكن يعلم أن البطاركة تحظى جلهم هناك على هذه الصورة .. وغرس بها فرآها لا تزال عصوفة كما تحيطها محظيات الفراعنة وادا هو بالطيريك قد تداول فدروته ولكن فد وضعها على المنجح ملبيها وقد اشترق وجهه وذهب القباخه<sup>(٣)</sup> فلما رأه ذكر يا مفبرق الوجه صرّي عنه وإن له ار يدقتحه يا جاءه من أحله ولكنها تمثل سقى برى فرصة معاشرة

اما البطريرك فقوله الخروج من ذلك المبد وهو يقول «لقد آن ذلك ان تقنع عليه ما جئت من اجله يا زكريا»

فاستبشر وقال «هل اقول الا ان؟

قال «قل ولكنني لم اسألتك عن هذا التوب الذي عليك .. اي مم دخلت الربنة؟ قال ذلك ومنى وزكريا الى جانبها والروا

قال «لم ازره يا سيدى ولكنني تذكرت بهذا الباس في اثناء الطريق وقد اخذ اولئك الاصحون سائر ثيابي فلم استطع تبديله»

قال «اعلم ان هذا التذكر يبعث على زيادة القمة عليك؟

فأتبه زكريا لما سمعه من ذلك المجنان فقال «علمت ذلك من كلما فاتها احد الاصحون ولكنني لم افهم السبب»

فقال «اخب ان تعرف السبب؟ وصفق بخاء شفاسه مهولاً فقال له» ازول بنا الى الطبيعة السفلی لستخرج الكتاب الذي جاءنا بالامس من ملك الوبة

فتشى الشهاد امامهما وتبعاه نزل بهما في سلم سري داخل القصر حتى بلغ أعلى حجرة رأيا فيها كتبًا متراكمة وفي جملتها متذوق فيه ادراج كثيرة تناول الشهاد كتاباً منها دفعه الى البطريرك ففتحه وقال «هذا كتاب ملك التوبه ارسله اليانا يدعونا فيه الى خلص طاعة الملائكة والاتحاد معه عليهم باسم دولة الروم .. وقد علمت من نصه انه ارسل كتاباً قبله لم يصلنا فالظاهر انه وقع في ايدي الملائكة واطلعوا عليه .. وقد فهمت من رسول ابن طولون ان لهم عارفون بهذه المراسلات فظنوا موافقاً هذا الملك على غرضه واتا يري؟ من ذلك لاني لا أرى فالظاهر انهم لا رأواك بهذا الباس وانتنبي ظنك رسولاً الى من ملك التوبه»

فأتبه زكريا لذلك السبب وقال «صدقت يا سيدى ان عاداتنا التخاض من سلطة المسلمين لا فائدة منها ولا سبأ بعد ان تولى ابن طولون قاته ٤٠٠»

فقطلع البطريرك كلامه قائلاً «آه لا يأس بد ووغم ما ذكرته لك من امره معي فاني لا احبه تبعة ذلك واما اتبعة علينا نحن فاتاً غرض حكمتنا على ظلمتنا بسوء تصرفنا وفنا في ذاتنا» قال ذلك وهو يكاد يغص بريقه .. وكان اكبر ان يظهر هذا الصدق فحمد الى تغير الموضوع فقال لزكريا «لقد شفناك عما جئتنا من اجله وامتدّ بما الحديث فقل ما الذي تريده هنا»

وكان قد سرحا من القصر واقتربا من غرفة البطريرك فدعا الرئيس ذكرى أن يتبعه إلى غرفه تباهه فدخل البطريرك وجلس وأشار إلى ذكرى أن مجلسه وقول ما يريد  
جلس واحد يقعن حدائقه ديميانة وما قالت من مسامحة والدها وخطيبها حتى هربت إلى  
خوان وكيف سطوا بالجنة على هذا الله ونبيه وسبوا أهله وفي جلتهم ديميانة وآه جاء  
ليوصي في انتصار ملك التوبية لاعذاؤها

وكان البطريرك يسمع الحديث وهو مطرق يهز رأسه حيناً بعد حين استكفاراً من  
تصرف مرقى أو أسطفانوس فلما سمع خبر أسر ديميانة بعث وقال « ديميانة ٠٠٠  
أسرت ؟ أنها لانت حق ذاك لأنها ندية ورعة ٠٠٠ كأن فيها بركة من سينيتها القديسة  
ديمانة عليها السلام • ولكن الله يعبر خائفيه ٠٠٠ والآن سمعت تطلب وساطتي  
لدي ملك التوبية ؟ »

قال « لم ياسيدى أن لم يكن في ذلك ثقة عليك »

قال « ذلك واجب على من عده وجوهه اولاً لأنني أنا قبلت هذا المنصب لخدم  
مصالح شعبى وأبدل ما في وسيراحتهم وسادتهم ثانياً لأنى أحن إلى هذه الفتاتة وأحبا  
لتقوها وورعاها • ثالثاً لأن أحب أن أجرب ذلك الملك على كتابه ولا أثق بن يصل  
كتابي إليه وات ولدنا وترى تلك البلاد فاكتبه كتاباً أرد فيه على ما كتبه إلى  
بشأن القيام على الدولة أقيع رأيه هذا وادعوه إلى الطاعة واذيل الكتاب بالرسالة  
اللازمة حتى يساعدك في ما تريده »

فاطلاطاً ذكرى رأسه أذاعها وأرتياحها وسكت • فصدق البطريرك فجاء التهاب ف قال له  
« أنا أكتب إلى ملك التوبية كتاباً خلواء كذا وكذا (وذكر الفحوى) وذرره بالرسالة يولدنا  
ذكرى يساعدك في إقاذتنا الندية ديميانة »

فثار مطمئناً وخرج ثم عاد ويدعه صحفة من القباطي وقد كتب عليها بالقبطية شرحًا  
طويلًا فتناولها البطريرك وقرأها ووقع عليها وأعادها إلى التهاب فطواها ولهما يتدليل  
وخرم التدليل ودفعه إلى ذكرى فتناوله وقبله ووقف وآتى على يد البطريرك يقبلاها  
ووضع التدليل في الكيس تحت أبيطه مع الأسطوانة العزبة وقد تهال وجهه فرحاً وظل  
واقفاً كأنه يتضرع أمر البطريرك فقال له « يظهر المك في عجلة ٠٠٠٠ »

قال « ألا ترى يا مولاي أن أسجل الرسول إلى بلاد التوبية لاعذاؤها ديميانة ؟ فاني  
لا أعلم حاطها »

قال « سدقت » يادر الى المسير ولكن الله ملك والسد الممتع ينصرك ويأخذك  
يهدك « وأشار يده اشاره البركه » ثم انتهى الى الشهاده وقال له « قل للرئيس ان يزوره  
وليس اذكريا ما يحتاج اليه في طريقه » ، التفت الى زكريا وقال « كيف تجعل طريقك »  
قال « ارى ان اسر في الطريق الذي جئت به في الصحراء الى اليم ثم الازم هنا  
النيل العريبة الى الحيرة واستلم طريق الصحراء مع بعض القوافل الى داغنه »  
قال « راقفت اللاما بيركية سيدتنا الباتول وسازن القديسين »

## الفصل الثالث والأربعون

رفيق السفر

فما ذكرها على يد البطريرك فقبلها ثانية لاوداع وخرج والشهاش منه فأعاده له ما  
يلزم وسرقه « وكانت الشهاده قد مالت عن خط المهاجرة وقال له عند الوداع « ليس  
عندنا و كانت نعطيك واحدا منها و لكنك حلا خرج من الدير بعد قوافل مارة من  
وادي الطرون تطلب النيل فرافق واحدة منها »  
فشكرا له تسيحيته وظل واقفاً وعلى كتفه كيس فيه الزراد اللازم للطريق فاستغرب  
الشهاده وقوفه وقال له « العلاك تحتاج الى شيء »

قال « لا لا لا ولتكن تذكرت ما أصانق في عبيشي فينسني لي ان احتاط منه في  
وجودي لا لا تبدلي بهذه التوب توب آخر انك به لان الذين لا قوتافي عبيشا رأوني  
بنوب الرجينة هذا فيديهي ان ابدلها بنوب آخر »

قال « لقد اصبت في غوفتك ثم هل فيها اعود اليك » ومضى ثم عاد ومه بتجهة  
فتحها وادا فيها قطعان وعبادة وفلسفة وعمامة فقال له « هذه اثواب بعض الجنود  
وقت لما مددقة لهاها نفي بالعلنوب »

فرح بها ذكرها وبها وطلب مرآة يرى بها وشيء فاعطاه فنظر فيها فاذ هو قد  
تغيرت قياته ولكن وجهه ما زال يم عليه عذ الترس فاقتنع بها كان وودع الشهاده  
فرافقه الى باب الدير وفتحه له ففرح

فلم يرأى شه في الصحراء اكبر امرء وتصور دخول الظلام عليه وهو منفرد

يتشي على قدميه لا يدري ان بيت ولا الى اين يتجه <sup>٢</sup> فوق حازاً وقاد عزمه يتحول عن النفر وحده ثم ذكر نصيحة الشهاد قلب طريق وادي الطoron وهو على مقربة منه وقبل ان يشرف عليه سمع اينما فريراً فوقه وتلتفت ثم منى الى جهة الصوت فلما اقترب منه وأدى رجلاً ملائقي على الارض ويداه ووجله مشدودة بمحاب وهو يستقيط وحالما رأى ذكرها قال له بالقطبية : الجدي ايها الجدي تسد <sup>٣</sup> بحرمة الذي تسد <sup>٤</sup> فعلم ذكرها انه يخاطبه بالطيبة لما رأى لباس الجندي فاسرع اليه فاذما هو شاب فتحي اللون عليه تباهي التجار فأخذ في حل احلال فلما افلت الرجل هم يدي ذكرها واخذ يقبلاها وهو يقول « جزاكم الله خيراً يا سيدى » فقال ذكرها « من انت وما هو حديثك »

قال « اني تاجر اهل الملح والملعون من هذا الوادي وفي قافلة اسيراًها بامان ففي هذه المررة جئت مع القافلة خلنا الاحدل وخرجنا من الوادي في هذا الصباح واذا جماعة سلوا علينا قساقو المفافية برمها وتركوني مقيداً كارأيني <sup>٥</sup> وكان يتكلم وهو يكاد يمكى من الاسف

فارأى حلة في ذكرها وازداد خوفاً على نفسه من الخطير فقال « لا يأس عليك يا صاحب الحدة على سلامتك <sup>٦</sup> والآن ماذا تريد ان تفعل ؟ »

قال « لا اريد شيئاً لاني واتق اضياع اموالي واحمالي واطلن الموسوس سيفتون رحالي ولا اسف على شيء مادمت حياً <sup>٧</sup> واني اشكر الله على لقائك وانت جندي فهل تهدى ائنك ترفع هذا الى صاحب مصر <sup>٨</sup> »

فاغتنم ذكرها ان سكرها انطل على الرجل فوعده انه سيندل ذلك مني وصل النسطاط ولكن احب ان يستعذ في امر هذا الرجوع فقال « وَتَفَسَّدَ السِّيلُ إِلَى الرَّجْوِ الْآنِ <sup>٩</sup> » فقد كان معي جمل ثالث مني واصبحت راجلاً كما ترى <sup>١٠</sup>

فاطرق الرجل هنية ثم قال « اتفتني افسر ان احصل على جمل من مكان قريب وراء هذه الاكة كنت قد ورطته هناك قبل هبوم الموسوس ولهم لم يرفوا مكانه فيكون باقاً فزركي <sup>١١</sup> »

فرح ذكرها وقال « امك هنا واما اذهب لتنقبي عن الجمل <sup>١٢</sup> » قال ذلك « واسرع وقلبي يخفق فرحاً بهذه الصدقة حق دنا من الاكة فسمع جمجمة الجمل فلم يهلك عن الضحك من شدة الفرح وكتب حتى قبس على زمامه وحل

عقله وساقه الى ارجل فوجده في استئثاره فشككه فقال زكريا « ان الله قد ارسلك  
لانقاذى من العذاب في هذه الصحراء »

فقطأمه الرجل وقال « بل انت ارسلت الله لانقاذى اذ لولاك لم مقيداً فاما مدين  
لك بعيانى ولا اقدر اكافئك .. ي ان ترك الجل وانا اقوده »

قال زكريا « حشنا الله ان اقبل بذلك .. ولا حاجة بنا اليه فانا نرك معها والجل  
يحمل ثلاثة واربعة كاتعلم

قال « كاشاه » واحدا في معالجة الرجل حق يسمعها وعلق زكريا كيس الزواحة  
به وركبا وسار على حذر الى المساء فباتا بعد ان تحدتا ملياً وزكر ما لا يرى من ذلك

الرجل الاكل اطاف فشكرا الله على هذه الصدقة وتب ضميره لانه خدعا بتذكره وحدثه  
نفسه ان يبيع له بحقيقة امره لكنه راجع خجلاً من الاعتراف بالكتب واجل ذلك

الي آخر الطريق وكان زكريا يخاف ان يلتقي بالصوص الامس فلم يتقيا واحد  
وبعد يومين وصلما الى ضفة النيل فقال الناجر « هل تعب ان نسافر الى الفسطاط  
في الليل »

قال « مالا وازول الماء دعنا نواصل السير على هذا الجل فقد استحبست مشيتنا »  
قال « كاشاه واذا كنت قد استحبست هذا الجل ففي وصلنا الى الفسطاط تركنا  
ذلك هدية »

فسرد زكريا بهذه لثدة احتياجه اليها وتوجه ان الرجل يبالغ في اكرامه حمماً سيف  
مساعدته لدى ابن طولون وكان يتألم من ذلك لان ضيوره ضئي <sup>ف</sup> يأتى ان يعتقد الناس ماليس  
فيه او يتوقعوا منه مالا قدرة له عليه واما اسباب هذه ان يخلص من ذلك الرفيق . وهم ان  
يبين له بحقيقة غرضه مرارا ثم راجع . وما زالا راكبين يسر بهما الجل على ضفة النيل الغريبة  
يقتربان من الليل ساعة ويتعذران اخرى وزكريا يزداد استئثاراً بالرجل واستئثاراً له حق

اطلا على الاهرام فلم يبق لزكريا حيلة بالسكوت وقد يان العمل الى محاذاة المرم الكبير ولم  
يبيح الا ان يتحولا نحو الجوزة ويعبروا الجسر الى جزيرة الروضة ومنها يجسر آخر الى الفسطاط  
وصلما المرم نحو الاصليل والرجل يستحبث الجل حق يدرك الفسطاط قبل الظلام فقال  
زكريا « ما اخذه هذه الاهرام وما اجمل الجلوس عندها والاشراف على الساترين والماء

تفعلها » ففهم ذلك ان زكريا يريد التزول فقال « تنزل هنا » واقتصر الجل ونزل وزكريا  
يسفل نكرنه ويكتب قريحته ليستبط حيلة يستعيق بها الجمل منهك . وهو في ذلك قال له

ويفقه « بالحقيقة ان الميت هنا جيل فإذا وافقني عليه فقضينا هذا المساء هنا وفي الصباح  
شفي مما الى النساط او كما نشاء »

فاصحسن مسيرته وقال « لقد نفطت بالصواب . ولا اخفى عنك ان لا اقدر ان ازل  
معك الى النساط لان لي غرضاً احتاج الى قفاله وراة العبرة »

فابدره فائلاً شعرت انك تردد شيئاً نكتمه هي ذهن اخوان لا ينبغي ان تكتمني  
امراً اطلبك فقد قلت لك ان حياتي منك والاما اغركك في القهاب الى النساط معي  
لا كاذبك على مسيبك فان المال لا قيمة له عددي فإذا كنت تستغل التزول فماكث هنا  
واذن لي ان اغيب عنك ساعه ثم اعود اليك بهذا الحال وازورك بذكري يدل على اعتراضي  
بنفك »

فكان زكي ياطير من الفرح لما آتاهه من السهولة في عشرة ذلك الرجل فلم يدري كيف  
يشكره وقال « لانفل لي في شيء فطنه بل الفضل لك في شيء من تلك الصحراء على جملك »  
قطع كلامه فائلاً « بل هذا جمالك استاذك في ركوبه الى النساط واعود اليك  
بعد قليل أجدك هنا؟ »  
قال « تجدهي عند قاعدة هذا المرم الكبير » فودعه ومضى

## الفصل التاسع والرابعون

### الأخلاقيات

ومكث زكي يأكله في حلم وافتقد الاسطوانة والكتاب تحت اتوايه فوجدها هناك شئين  
الكييس المعلق في هنقه . فاملاه بالمال واخذ يمشي حول المرم ثم تجاوزه الى اهرام كثيرة  
بعضها هناك حق وصل ابا الحول فتأمله حيناً ثم عاد ورأى الشخص متقدماً وتقاد نفب  
فاحس بالوحنة لاقراره في تلك الرمال ثم غربت الشمس واخذ القلالم بكتافه فاستبطأ  
صاحب وندم لانه لم يسأله عن اسمه ومسكه . على ان ذلك لم يهمه بقدر اهتمامه بالحصول  
على الحال لان الدراما ذابت منه في بادية الطoron مع اجل قيل دحوله الدبر واصبح لا  
يملك شيئاً وعد عشوره بذلك الشاب نسمة خصوصية من فم الله  
ومن زكريا الانكشار وصب بصره من الشوف عن بعد لعله يرى صاحبه فاداماً ثم

صعد على بعض درجات المتر الكبير حتى وصل إلى مدخله فوقف بباب المدخل وعيناه شائعتان  
نحو الجبيرة لعله يرى شيئاً أو يؤمن نوراً ويدره لا تكاد تفارق ابته بثني الكيس الذي  
فيه الاسطوانة والمكتوب . ونظراً لأنفراوه في ذلك الخلاة سرحت انفكاره في عالم  
الخيال فتصور أن اسطفانوس علم بوجوده هناك فارسل من يقبض عليه فلما تصور ذلك  
اخليج قلبه في صدره لانه أعزل ولا طاقة له بالدفاع . وإنما بهمه من اسر الدفاع ان لا  
تذهب الاسطوانة منه ومهلاً بيده واستخرج الكيس من تحت ابته وتفقد ما فيه جيداً  
مخافة ان يكون قد خدع بالمس فرأى الاسطوانة والكتاب . وهو بهم ان يعيده الكيس الى  
عنه سمع خربشة فاقشعر بدنه لأنفراوه ووحشة المكان ودُرْرَة الاداعي والاحشرات في تلك  
الغرائب فاصبح يسمعه والكيس لا يزال في بيده وقد جمد الدم في عروقه فاذ هو يسمع وقع اقدام  
يختاله همس فازوى في مدخل المتر وهو يحاول الاختفاء لأن المدخل المذكور ضيق وعميق  
كانه قناة مربعة لا يدخله الانسان الاختفاً وهو جالس او نائم . فترفع ذكره باعند المدخل  
ونقصت وشاعت عيناه جهة الصوت فرأى بضعة رجال قد تزملوا بالعني يتقدمهم رجل  
يكلطهم همساً وهو يقول «قد تركته هنا ولا بد من وجوده لعله نائم »

ولم يكذب زكي يا يسمع الصوت حتى عرف انه صوت صاحبه التاجر فانتبه لنفسه وشك في  
ذلك الرفيق وبالن في الاذروا وقد توهد المدخل مستقبلاً ارضه بصدره بحيث يكون  
رأسه مطلأً إلى الخارج . والمدخل مائل نحو الداخل بالحدار خاف اذا تراخي ان ينزلق  
إلى جوف المتر وهو لا يعرف قراره والناس يخدون ان الجان تسكنه . ولامت ساقه  
ارض المدخل فاقشعر بدنه من برده وخيل له انه لم يحشرة ولو لا اشتغال خاطره بما  
سمعه من تهams أولئك الرجال لما تجاوس على المكوث هناك حلقة . كل ذلك وهو قابض  
على الكيس بيده وكان القوم قد اقتربوا منه وهم يتقررون في ما حولهم ولم يخطر لأحد  
منهم ان الرجل الذي يخدون عنه في واجهة المتر وأنه مختلف في مدخله ولا هم يعرفون له  
مدخلاً يختلف فيه الرجل والجان . فلما رأى على مقربة منه امسك نفسه واصبح يسمعه  
فإذا احمد يقول «أين هو انا لا نرى بشراً كانك خدعت المعلم اذ ربما لم يكن الرجل  
هو وقد خذلوك »

فقال «لا رب انا بعينه وقد رأيت الاسطوانة معلقة في عنقه وسترونونه وترونها »  
ثم رفع بصره إلى الأعلى كأنه ينظر إلى المدخل فاستولى الخوف على زكي يا لعله انه  
لا يقوى على الدفاع ولا النزول وخصوصاً بعد ان تبين القوم وتحقق انهم مدججون بالسلاح

ولم يبق عنده ريب ان رفيقه بالامس جاسوس استعمله ربيعاً وشي به الى المعلم مرقس فبعث من يقبض عليه . وعلم ان المعلم مرقس لا يهمه من امر ذلك القبض الا الحصول على الاسطوانة التي اخذها زكريا من منزله لان كل آماله فيها وهي ساعتها في يده فأخذ يفك في ماذا يفعل بها . واذا يعفهم يتلقى الاجمار كأنه يوم بالسعود الى باب المعلم فازداد خنقاً قلب زكريا وشق نسخة حتى كاد يضي عليه وعلم انه غير قادر من ذلك الشرك فأخذ على نفسه اذا خلقوه ان لا ينظروا بالاسطوانة لعله ان مرقس اذا خلقوها معه قتلها حالاً واما اذا قبض عليه بدعوه باستيقنه لياسمه في البحث عنها . فلتمس الماء في جانب فوجده حفرة او هو شق بين الاجمار عميق فادخل الكيس فيه وغطاءً يمحى حتى تتحقق انه لا يظهر لاحداً . ثم تلم وتحجع حتى جلس القرصاء بباب المعلم كأنه يخافز للوئه وكان الرجل الصاعد بعد ان تملق درجتين او ثلاثة وقف على حجر مرتفع ونظر الى ماحوله ثم خاطب دليهم قائلاً « ان اليهود لم يصدقوا عبدهم حتى يصدقوا اليوم . . . هاانا عند المعلم فأين الرجل المطلوب . . . وواله اذا لم يجده لنذوق العذاب »

فعلم زكريا ان صاحبه اليهودي احال عليه . فتوالى الرعدة وامسك انساكه مخافة ان يدحمه عطاس او سعال فيكتشف امره واذا هو بالقوم قد خلوا من هناك وهم يقولون « انه ليس هنا فلبيث عنه في مكان آخر » ومشوا نحو المعلم الثاني فما مدق زكريا انهم خلوا من امامه حتى خرج من المدخل وتنفس الصدأه ومشي مشيبة المتلصصون ونزل حتى صار على الارض امام المعلم الكبير متربع حباً وهو قاعد حتى ظن القوم بعدها فنهض وشي يطلب الترار نحو البستانين يختبئ فيها الى الصباح فاذا ثجا يعود الى الكيس

ولم يكدر يشي خطوات قليلة حتى سمع منادياً يقول له « فف هندك والا قلت » فلم يجيء وظل مائياً كان يتجاهل وركبتاه ترتعسان وادا بالرجال امرعوا اليه وحدثه نفسه بالقرار ولكنه يعلم عجزه عن ذلك لتعبه وضعفه على اثر تلك الرعبه فرأى ان يقف ونوف التجلاك فالتفت الى جهة الصوت وقال « من تبني ؟ »

فتقديم اليه اربعة رجال علم من قيادتهم عن قرب انهم من الجند المصري ومعهم ذلك اليهودي وهو يقول « هذا هو امسكته »

فنظر زكريا اليه وقال « تبأ لك من خان . . . » ثم التفت الى الرجال و قال « لا حاجة لكم الى القبض عليّ فاني اسير بين يديكم وانا اعزول »

فتقديم احدهم ويدمه حبل ويجابهه رجل آخر واحداً يشدان وثناه ويقولان قد امرنا

ان ناتي مك مو ثقا  
فلا شدوا ونافه ساقوه بين ايديهم الى مكان آخر وراء المرم كانوا قد خجأوا فيه  
اراهم واركبوه واحداً منها وهم حوله يخرونونه وساروا يطلبون القسطاط

## الفصل التاسع والرابعون

مرقس

وصلوا القسطاط في اواخر الليل وادخلوا زكيبا غرفة منفردة وقاموا يخرونونه الى الصباح . اما هو فوقع خوفه على حياته كان يجد تعزية في انقاذ الاسطوانة من يدي مرقس بيات بقية تلك المليلة وهو يفكك ما مر به وكيف وقع في هذه الشراك بعد ان اوشك ان ينبو وعلم ان المكيدة كلها من ذلك اليهودي وادرك انه مرسل من قبل مرقس او اسطفانوس ليتسبقه . واستغرب كيف انطلت عليه حملته حتى وقع سبة الامر ولكنه شكر الله على نجاهة الاسطوانة

وفي الصباح باكرًا سمع الباب يفتح ودخل عليه رجل لم يقع بصره عليه حتى اجهل لانه المعلم مرقس لكنه تجلى ولم يدحرا كا فقال له مرقس « امدا جراء التربة والاخذيز والملح ؟ تقدس علي ابني وتفتر بها حتى اصاعت مستقبلها واصبحت شريدة طريدة » فظال زكيبا ساكتا مطربا ف kep مرقس دم على عمله فازداد جرأة عليه فقال « ياذا اجازيك على هذا العمل ان القتل خفيف بجانب ذنبك » فرفع زكيبا بصره اليه وقال « ان القتل لا يغيني ولا انت تستطيعه ... ومن كان مثلك لا يخشى باسه »

غضب مرقس وقال « تخاطبني بهذه الجسارة وانت خادمي » قال « حاشا الله ان تكون كذلك . انا انا خادم تلك الفتاة الطاهرة ... ذلك الملاك الارضي . انا حادم دميانته وعيدهما اكراماً لوالدتها المسكينة وطوعاً لاصحه الامر ... ولو لانكفلي بالكلمات في تربيتها لتركتها وراراً من عشرة ابيها الظالم »

في غضب مرقس وقل « وتقول اني ظالم » قال « الا تعرف نفسك ؟ هل تخييل معاملتك لابنك التي تزعمن امك نعمت علي »

في سبيل الدفاع عن مصلحتها وانت تعلم من هو الذي اضاع حقها . . .  
فامسأها» مرقس من هذا التعبير وفهم مراد ذكرها لكنه تجاهل توصلًا الى مرغوبه  
قال «اراك تهذى بكلام لا معنى له . . . اتعلم لماذا ساقوك الى هذا المكان وبعد قليل  
يصلوتك الى السجن المظلم اذ تعلم اين طولون . . . انعم لماذا؟»  
قال «اتعلم»

قال «انا اعلم . . . ساقوك لانك صرقت منزل سيدك وانخدت منه» التجف والجواهر  
وافررت بها . . . وايضاً لانك تساعد البطريرك مخائيل على توسيعه مع التوبة للقيام  
على المسلمين»

فلا يسمع ذكرها قوله هر» كتبه وظل مطرداً لا يظهر اعتماداً فاستغرب مرقس ذلك  
منه وقال «يظهر انك لم تدرك مقدار ما يهددك من الخطر بسبب هذه التهم . . وانا مع  
كثرة اسامتك الي» لا ازال اميسل الى الرفق بك اكراماً لغير والمحظى عليه فقد اوصيت  
الجند ان يأتوا بك الى هنا قبل حملك الى ابن طولون لعلي استطع انقاذك . . واعلم ان  
يمحانك اما في في يدي اذا شئت اطلقتك واداشت سلك الى الحكومة . وانا ميال الى  
اطلاق سراحك اذا ظهر لي ندنك على ما فرط منك وسلت الي» ما اخذته من متزلي . . .  
ليس كل ما اخذته فانا اكتفي منك بالاسطوانة قان فيها اوراقاً ثماني ولا فائدة لك  
منها فاذا اطعنني وسمعت تصريحي ثمبوت من هذه الساعة والا» فاني سلك الى ابن طولون  
وانت تعلم عائمة ذلك»

قال «اما ندمي فاني لم اعمل عملاً اندم عليه واما الاسطوانة فلا عمل لي بها كما افي  
لا اعرف شيئاً عن الجواهر التي ذكرتها . . وانت تعلم انني لم اأخذ شيئاً ولا انا من يطمعون  
بالمال وليس للأموال قيمة عندي اذ ليس لي ولد اورثه واياي أصبحت قصيرة لانتحق  
حشد الاموال ولا مطعم لي في ملاذ الدنيا وشهواتها مثل غيري»

قطع مرقس كلامه قائلاً «مالنا وجوهنا التي اكتفي بالاسطوانة التي فيها الاوراق  
هاتهها وعليك الامان»

قال «من اين آتي بها؟ ليس عندي اسطوانات ولا ورق»

قال «او شكر ايضاً؟ . . اتها في جيبك»

قال «كلا ليس معي شيء»

فتحقق مرقس فدخل جندي كان وافقاً بالباب قال أمرقس الى ذكرها وقال «فشه

فأناك تجد معه اسطوانة هاتها «

فتقام الحندي واحد ينش الشواب زكر يا قطمة قطمة ومرقس يقول له « فتش نحن اتوباه بين ذراعيه وحياته » وهو ينش، زكر يا باسط ذراعيه ومرقس يراغي حوكتها وينفس ويدقق حق اذا ثعب الجندى من التنبيش ولم يجد شيئاً اشار اليه مرقس ان يخرج فخرج وعاد الى زكريا وقد امتنع لونه من الغضب والفشل لانه كان على ثقة من وجود الاسطوانة معه فقال « اين ذهبت بالاسطوانة يا زكر يا »

قال « ليس عندي اسطوانات ولا افهم ما تقول »

فاطرق مرقس وخارله انه اعطي الاسطوانة الى دميانته اذ ليس ثم من يثق به سواها فقال « اين دميانته »

ففحلك زكر يا حنكحة استخفاف وقال « تأخرت في السؤال عن مكان ابنته يا ابا الوالد الشفوق .. وانت تأسلي عنها الان لا عيرة عليها ولكنك تظن الاسطوانة متعدلاً فلن على يقين انها لا تعرف شيئاً من امرها »

فأعاد مرقس السؤال « اين دميانته »

قال « دميانته .. لا اعرف مقرها »

قال « كيف وانت فزرت بها .. ماذا جرى لها؟ »

خذلته نفسه ان يخبره عن مكانها لكنه خاف ان يستعين مرقس بذلك على التفكير بها فيذهب سعيه هدرأً فقال « لا اعرف اين هي الان »

قال « يظهر انك تبحث عن حثتك بطلنك .. اصبر وسترى عاقبة امرك » قال ذلك وخرج وغلق الباب وراءه شدة . فعلم زكر يا انه مأخوذ الى السجن بعد قليل وفي الواقع لم تمض هنئية حتى جاء الجندي خملوه الى القطايع وزوجوه في السجن ريثما يطلب . فلتركته تحت التحقيق ولعد الى دميانته مع الجنة

## الفصل الخامسون

البيعة ودميانتة

الجنة جبل من الناس كانوا يعيشون في الصحراء بين النيل والبحر الاحمر تبدأ بلادهم

من الشمال بقرية يقال لها حزبة معدن البرد في مصر، فوس وبن هذا الموضع وبين قوص نحو ثلاثة مراحل . وكان ذلك المدن شأن في التاريخ القديم يستحقون ز مرده من مفاخر بسيدة مقلة يدخل إليها بالمساقيع وبباب يستدل بها على الرجوع خوف الفلال وبمحن عليه بالماوايل . وأخر بلاد البعثة أول بلاد المبشرة وبعد بلاد فرية يقال لها هير . ومادياً يتبعون الكلأ حيثما كان الري ويقيسون باخيمية من الجلد وكانت انسابهم من جهة النساء (١) أي ان الرجل منهم ينتسب إلى والدته وهي الأمومة في الأجيال المتواترة . ومم قبائل كبيرة على كل قبيلة رئيس وكانت من عبد القراءة يهاجرون ضفاف النيل في الصعيد فينوبونها . يعودون إلى البايدية فالأنقوى الدولة على العائق بهم . وكانت تواضعهم لأنها تحتاج إليهم في استخراج المعادن ليغدوا الشارجم او يكتفوا أذاتهم عنها وكذلك الروم لما ملوكوا مصر . ولا تقع السلوان مصر لم يختار يوم حتى كانت أيام ابن الحجاج في أوائل القرن الثاني الميلادي فعادتهم على مال يرثونه إلى يرت الملايين وتواتل المغارات والقرىات ينهيهم . ولما انتهى شأن مصر في أوائل الدولة العباسية نطاول البعثة في قديمهم حتى صاروا يسلطون على ضواحي السلطاطن فلما تولى ابن طولون صار ينتهي غزوائهم بعاصمة بيتهما وراء المقطم

فانقض في أيامه البايدية في حلوان أن شرذمة منهم سقط عليها وتهببتها وقتلها كثيرون من أهلها وفي جلتهم قعدان العربي وحملوا ابنه ودميانته معها سبعين . حملوها على الجمال وهي مسرعمة الحري شديدة المدود مبرورة على العطش يسابقون بها الخليل وبقاتلون عليها وتدور بهم كما يشنرون ويقطعون عليها من البلاد ما يتفاوت ذكره ويتطاردون عليها في الحرب فبورى الواحد منهم الحربة شأن وقفت في الرمية طار إليها الجبل فأخذها صاحبها وإن وقعت إلى الأرض ضرب الجبل بغير أنه الأرض فاغتنمها صاحبها فلما رأت دميانت نفسها على الجبل وقد ادبر رأسه نحو البايدية انتبهت طول المصايب واحتضنت تبكي وتستغيث وتندفع إلى الله إن يقتذها وكانت لما رأت أولئك القوم دعشت غشوشتهم لأنها رأت وجهاً صفراء واجساماً رقاقة وبطوناً خاماً أكبرم هرامة الصدور يذهبون جلودهم بالحشم وشحومه متلبدة متكللة بما عليها من آثار الحشم يحملون راجحاً طول الواحد منها سبعة أذرع عوده أربعه أذرع وحدidine ثلاثة . يحملون درقاً من جلود البقر مشعرة وبتها درق مقلوبة من جلود الجوابيس . وبعضهم يحملون قسماً عريضاً غالغاً من السدر والشوحط أذاعداً أخذم تحصبه من الجن لدق ساقيه ومرعنة جريمه

فلا تسل عن حالها من الدعثة والغوف، ولم تعلم رفيقتها فانها كانت على جمل آخر، وإن  
يسمها احد سود واما حملوها في جملة الري وتبعدنوا الصحراً وهم يتراءون بلغة ليست  
بالقبطية ولا الوبية ولا البرية فلم تفهم ما يقولون ولما امسى المساء خطوا الرجال وقصوا  
خيتهم تزل فيها رئيس تلك العدالة وهو يمتاز عنهم بلياسه الملون وبصدره المزركشة وقد تذرع  
سيئاً مذضضاً وكان راكباً جواداً اصهـ . وازلوا السبابيا في خيمة فلما اجتمعت دعياته باينة  
قفنان واسمها عليا استأنست بها وجلست تلبـ كيان وكل منها تزيـ الاخر ولا يعزـ دعـيـة  
غير الامل بالنجـة نـاعـيـة من الله

ولما غربت الشمس وساد الظلام اوقدوا ناراً بين يدي المطام للاستضاءة واقـ رجل  
يعرف القبطية شـدم الى دعـيـة ورفيقتها واخذ يعلـمـنـها ويحبـ اليـها ذلك الصـحـراءـ . ثمـ  
اقـها بالطـعامـ وهو اللـحمـ والـبـينـ فـعـافت نفس دعـيـة الطـعامـ ولكنـها اـضـطـرـتـ منـ العـطـشـ الىـ  
شرـبـ بعضـ الـبـينـ . ولـما سـمعـتـ كـلامـ الرـجـلـ سـكـنـ روـعـها لـانـهاـ آتـتـ منهـ تـشـعـعاـ وـرـأـتـ فيهـ  
ارـبـحـةـ فـقـالتـ لهـ «ـإـلـىـ إـنـ أـنـتـ سـائـرـونـ بـنـاـ»ـ

قالـ «ـإـنـ هـوـ»ـ  
قالـ «ـإـنـ هـوـ»ـ

قالـ «ـهـوـ عـلـىـ سـائـةـ بـضـعـةـ أـيـامـ مـنـ هـذـاـ الـمـكـانـ . لـاـ تـخـافـ إـذـ لـاـ يـسـطـعـ أـحـدـ مـنـ اـنـ  
يـسـكـ بـسـوـ وـبـثـلـكـ يـاـ جـيـلـ لـاـ يـاـ الـأـمـيرـ»ـ  
فـلـما سـمعـتـ قـوـلـهـ اـنـتـرـ وـدـنـهاـ وـلـكـنـهاـ تـجـلـدـتـ وـالـفـتـتـ اـلـىـ عـلـيـاـ فـرـأـتـهاـ مـطـرـقةـ وـلـمـ تـكـنـ فـيـ  
مـشـلـ ذـعـرـهاـ لـانـهاـ تـعـودـتـ عـيـشـ الـبـادـيـةـ وـعـرـفـ بـعـضـ طـبـاعـ الـبـدوـ . اـمـاـ الرـجـلـ فـلـماـ رـأـهـ  
لـفـتـ اـلـىـ رـوـيقـتـهاـ ضـوـكـ مـيـانـهـ بـلـاـ قـوـاطـعـ مـعـ صـغـرـ سـنـهـ فـكـانـ لهـ مـنـظـرـ غـرـبـ ثمـ  
قالـ «ـإـنـ هـذـهـ الـبـرـيـةـ فـرـبـاـ اـحـتـارـ الـأـمـيرـ اـنـ تـكـوـنـ عـنـدهـ اوـ لـعـلـهـ يـهـبـاـ اـلـىـ اـحـدـ اـسـرـهـ اوـ  
يـسـخـيرـ الـآـطـهـ فـشـأـهـ»ـ . ثـمـ تـمـرـسـ فـيـ دـعـيـةـ وـقـلـ «ـمـاـ جـلـ فـاكـ لـلـاـ وـحـودـ التـوـاطـعـ  
وـهـ فـانـ الـأـسـنـ الـأـمـامـيـةـ مـهـ تـسـوـهـ سـنـهـ لـانـ هـذـهـ القـوـاطـعـ لـاـ يـأـمـ لـاـ الـيـاهـ»ـ وـاـشـارـ اـلـىـ  
فـوـ وـقـالـ «ـاـنـظـرـيـ اـلـىـ اـسـنـانـ فـانـيـ فـانـيـ مـنـ قـيـلـهـ تـقـلـعـ هـذـهـ القـوـاطـعـ لـلـاـ قـتـشـيـهـ بـالـحـيـرـ وـلـيـسـ  
كـلـ الـبـعـةـ يـقـلـعـونـ ذـلـكـ . اـمـاـ اـمـيرـناـ فـانـهـ يـحـبـ ذـوـاتـ الـأـسـنـانـ الـيـاهـ وـالـاـ فـانـهـ كـانـ يـقـلـعـ  
اـسـنـانـ نـائـهـ»ـ

فـاسـتـغـرـتـ دـعـيـةـ حـدـبـهـ وـاسـختـتـ رـوـحـهـ وـلـكـنـهاـ مـاـ زـالـتـ فـيـ اـشـطـرـابـ وـفـقـقـ . وـاحـسـ  
الـرـجـلـ بـخـطـوـاتـ خـارـجـ الـبـيـسـةـ فـوـقـقـ وـغـيـرـ . الـحـدـبـ وـلـلـمـ وـتـحـمـزـ الـفـروـجـ وـاـذـاـ بـرـ جـلـ آـخـرـ دـخلـ

هو رئيس تلك المعاية له عينان يراقتان ووجه غريف ولكن دلائل الصحة والقوة ياديه فيه وترى رئاسته من لباسه . ولا راي ذلك الرجل هناك نظر اليه نظر التوبيخ وقال له بالسامهم كلاما لم تفهمه دميانة ولا عليا ولكنها فهمت الله " يقوله ثم قال له قوله قولاً وأواماً اليه ان يقوله لها فقال « إن مولانا القائد يلومني لأنني حدثتك وهذا منع عندنا ويقول لك ان يطمئن بالكلام ولا تخدا »

فأومات دميانة برأسها إيهما الشرك وعيتها قد احرتنا من اثر البكاء في اثناء الطريق .  
فأوعز اليها بواسطة الترجمان ان ترتاحا وتناما على جلد فرشوه لها هناك وخرج

فاخت دميانة بعد ان صلت وتضرعت الى السيد المسيح ان يرعاها ويهمرسها  
وفي صباح اليوم التالي جاءها اخدهم بالغم والدين فاكتت عليا حتى شمعت اما دميانة  
لم تأكل الا فليلاً . وكانت قد تعودت تلك المضيبة نوعاً فافتتحت نفسها في الصباح  
ونظرت الى ما حولها فرات انتها في صحراء رملية فاحلة وان تلك المعاية مولدة من بضم  
وعشرين رجلاً معهم ابطال والظيول . ولما اشرف الشمس ركبوا وجعلوا يطعون اليداء  
وبالغ اولئك البعجة باكرام يبنك البنين والتخفيف عنها شأن اهل الادية في الحافظة  
على العرض الا ما يحالفونه لاقفهم في الحق من الفتائم

## الفصل الثاني والخمسون

### الاستخاراة

قضوا يومين آخرين على هذه العورة وفي اليوم الثالث اشرفوا نحو الطبرية على معادن  
الزمرد فرأوا المناجم وهي حفر يشتعل فيها اناس من البعجة بينهم بعض اهل التوبة على نحو  
ما وصفناه من العمل تحت الارض ومعرة الا ما يسر العورة . فلم يزد دميانة النظر الى  
اولئك القوم وكيف يشتغلون في استخراج الزمرد . ولم يقف الرك اريضا سافروا معهم  
بعض الماشية مما كانوا قد احتزوه هناك يكتيبيهم بقية الطريق الى متى الامير الى حرمه  
و رجاله . وفي اليوم التالي نحو الاصليل وصلوا الى نجح كبير عربوا عن بعد انه شجاع الامير  
وهو مؤلف من عدة خيام من الجلد في وسطها خيمة واسعة مزخرفة ومبانيها حية اخرى  
بشكل النبة من الجلد ايضاً . ويعانب الجميع مساح لاثية من الفان والبقر وتحللت دميانة

ان تلك البقر تمتاز بقدرتها الطويلة عما ترده مثيلًا في مصر  
ولم يكن بهما شيء من ذلك واتنا كانت تحدث نفسها في ماذا هي ان يكون شأنها  
مع الامير الذي قالوا لها أنها ستكون هذه وأخذ الركب بالتحول واتي يمسن الحشم  
اناخوا جل ديمانة وازلواها عنه فشت وفراصها ترتد خوفاً وقلباً يتحقق ووقدت  
مطرقة لا تدري ماذا تحمل فإذا بارجل الترجان اتى وقال لها «تعدمي معنا الى الميد  
حيث تبرك بالكافن ونستخبر الالة على يده لمن تكون هذه الفتاش» وقال بصوت ضيف  
سمعته هي وحدها «فسى ان يكون نقيس الامر لاتك اهل له»

فوقت تلك الكلمات في أذنيها وقوع الساعة ولكنها اطربت وجملت اجمل صرًا  
وطلب الى الله ان يشجعها ويأخذ يدها ل تستطيع اتجاه من هذه التجارب واحتشد  
تلك الصلاة اتها في حزز حزز لا خوف عليها كان لها جندًا من الملائكة يحرسها  
اما سائر الركب فانهم ترجلوا وساروا قدتهم امامهم الى تلك القبة بعياب الظيبة الكبيرة  
ولما اقتربوا منها فتح بابها وأطل منه كافن بلباس مزخرف على رأسه شبه الناج من  
الريش وعلى كتفه شملة مطرزة وحول وسطه حزام من جلد الحجر بالزسرد والياقوت  
تحته قباء من القاطمي الايض ويدمه سولجان من خشب الابوس في اعلاه شبه رأس  
القرس من الذهب وحالما فتحت الحبيبة تصاعدت رائحة البخور ولما اطل الكافن على  
الناس سجدوا جيماً وكانت ديمانة ورائهم تسيرهم في الشيء الى جهة القبة فلما رأيهم  
يسجدون وقفت ولم تطمها نفسها على السجود ولم يتبه لها الكافن ثم دخلوا القبة وفي  
صدرها تمثال من عجائب لده ماخوذ من اصنام المصريين القدماء قد اقاموه على دكة من  
الحجر وزينوه بالللي فتحول الكافن نحوه وسجد له سجدوا جيماً خلقه تم تمام قليلاً  
وتمموا وديمانة واقفة تستقر الله على هذه الشاهدة

وبعد الفراغ من الصلاة اشار الكافن الى الوقف فخرجا جيماً وخرجت ديمانة  
ورفيتها وما معطر قنان جاء للمرأة حافظاً بين أولئك البدو ثم تقدم الترجان فاستوقفها  
فوقت ووقف الكافن بباب القبة ثم دخلها مستدرجاً واقتلاها ورائهم وأشار القائد الى  
ديمانة وساحبها ان تقبا وافترين وبعد قليل سمعت جرساً يدق في القبة ثم رأتها  
باب فتح وخرج الكافن عارياً وظهرت الصور الملونة على صدره وذراعيه وقد تغيرت  
ساخته وتحولت عيناه فلا يشک الناظر اليه انه عنزون او مسروع فاجفلت ديمانة عند  
رؤيتها وغطت وجهها يكتفيها وكانت تصيح من الحigel

ولكنها تجلدت وادا هي تسمع الكاهن يتكلم بصوت عال مع اختناق كانت شفها آخر يتكلم في جوفه وم يعتقدون ان اما يتكلم عنه ولا اتم كلامه ايجابه بكلمتين كاتبهم يوم منون على اقواله وما عاد الى القبة اشار القائد الى الترجمان ان يكلم ديميانة بنا الله ان الكاهن فوجه كلامه اليها قائلاً «اعلمي يا حميلة ان الكاهن قد استخار الالله بك فاشارت ان تكوني من نساء ابي حرملة اميرنا الاكبر وهذا قائدنا يهنىك بهذه النعمة» والثنت الى عليا وقال لها «وانت نصيبي هذا القائد الباسل» و اشار اليها وكانت ديميانة وم يصرلن لا لمتهم تصل لامها وتوسل اليه ان يشجعها وبقويه فلا سمعت ما تلاه عليها الترجمان لم يخففها وان كان قد وقع عليها وقعاً شديداً ولكن الايان الصحيح يقوى القلوب وهو اكبر تزية لبني الانان في الشدائدين العظام وفي الحال بعد ان قال الترجمان ما قاله ذهب ثم عاد وعده رجل نوبي<sup>٤</sup> حملما وقع نظرها عليه استفتحت روحه ولم تدرك سبب ذلك لاإول وعلة الواقع انها استأنست به لانه يتبع خادمها زكريا فتقدمن و اشار اليها ان تبيه الى خيمة الامير . وذهب الترجمان الآخر مع عليا الى خيمة القائد ولم يكن الامر عظيماً على عليا ولا غريباً عددها لانها تعودت الباردة واعملها

### الفصل الثالث والخمسون

ابو حرملة

اما ديميانة فشت في اثر ذلك النبوي وهي تقدم قدمان وتؤخر أخرى وتشعيب الله ومرى العذراء والقديسين على ما تخلله هناك . وسمعوا النبوي تذكر مريم العذراء على سبيل الاستفانة نشر بالمنظاف نخوها لانه ربي تربية نصرانية في بلاده والتوبة يومئذ كلهم مسيحيون فتباطأ في مشيه حتى حاذها وقال لها «يظهر انك نصرانية فهل انت قبطية؟» فلما سمعت استفهامه استبشرت وقالت «نعم اني قبطية ووالله من وجها القبط» قال «يظهر عليك ذلك .. فلا ينبغي ان تازعيجي .. هل انت متزوجة هناك؟» فظهور المخجل في وجهها وسكتت ودل سكتتها على أنها عذراء فقال لها «اذا كنت غير متزوجة فلا اجد سبباً لاضطرابك فانك مسوقة الى خيمة امير الجنة او هو اكبر امراة هم

واشجع قوادم ومن حسن حظك انك وقعت في ناصيحة من الغيبة وسيكون لك مقام رفع هذه لاني لا اعرف بين ناته واحدة في مثل ما انت فيه في الجمال والكمامة وهو هم الله القبطية نوعاً فالافضل ان تسلمي امرك الى الله وتكتفي بهذا النصيб وكان قد اترى من باب الخيمة فتقدما التوبي وأشار الى حاجب بالباب ان يبنيه الامير بقدومه فدخل الحاجب وعاد وقد اذن في الدخول فدخل التوبي ودميانته في اثر وقد صبغ وجهها الحياه وتولاها المظروف واصطك ركبناها فرأى التوبي حملًا دخل اخرني كانه يُسجد لا يقونة . ووقع نظرها على امير جالس في صدر النسطاط خفيف العضل خفيف الشعر اسود اللون حاد العينين تظهر الامارة بلباسه وهيئته وقد جلس الاربعاء على سطامن السجاد الشعين فوق مقعد سوداني (عنقربي) وارتدى يكاه من الحرير اللون وعلّ رأسه عمامه شبه الناج وبين يديه سيف قبضته من الذهب وحول عنقه عقد من الحجارة الكريمة ينهاقطر من الذهب بصورة قاتل صغيره بعض الالمه وفي اصحابه الخواتم سلم التوبي علي الي حرمته بلسان البعثة فاجابه به ولم تفهم دميانته شيئاً ولا هي استطاعت ان تُسجد له كما فعل الترجان لكنها سمعت ابا حرمته ينادي التوبي « سمعان » وهو اسم نصراني فاملأن بما لا اعتقادها الله نصراني مثلاها . وجامعة الدين من اشد الروابط علاقة بالقلب لانها تشرك بالوجودان وهي امن في العامة من جامعة الوطن وغيرها

ووجه ابو حرمته نظره الى دميانته وترس فيها فاطرقت ثم سمعته يخاطب سمعان وتتحول سمعان نحوها يترجم كلام الامير فقال « ان مولانا الامير قد اعجب بما شاهد ، فيك من الجمال والمهيبة ويقول لك انه سيذل جهده في ما يرضيك فلا يبني لك ان تعيدي تسك سبية او غريبة فانه يعدك من افضل نساء »

فلتحب ولتكنها زادت اضطراباً لانها أصبحت داخل العرين ولا يليث الاسدات ينشب اثاره فيها فاستعادت باهه وخللت ساكته . فاشار ابو حرمته الى سمعان ومخاطبه فتحول الى دميانته وقال لها « تفضلي معي يا جليلة الى الخباء فقد اوصاني الامير ان اعد لك خيمة خصوصية نقيمين فيها على الرحب والسعه »

قال ذلك وخرج فخرجت في اثره وهي تمشي باذى الماء فلما صارت خارج الخيمة احيت ان تستغيث بسمعان فقالت « يظهر لي يا سمعان انك نصراني مثلني فاستغلتك بالسيد المسيح ان تتشلى من هذه المفرة »

فابتسم سمعان وخطبها وهو ينظر في الارض لثلاً يلاحظ احد انه يكلمها خوفاً من

الامير وقال « ان لم أكن نصراياً كما ظننت فقد ولدت في بلد التمارى فسموني باسم من اسماهم وانا اعرف كثريين منهم في مصر والصعيد والتوبة وقد رأيتك شديدة الخوف وانا اوشك لك انك ستكونين معززة مكرمة . فاصرفي خوفك وثقني بي فتاً اكون لك احنا ابذل جهدي في راحتكم ... »

فاستأنست بوعده وقالت « اذا كنت تهدئي اخنا لك فارجو ان تساعدني على اخلاصك .. هذا غاية ما ارجوه منك .. واذا اقتننتك كان لك فعل كبير لا يضيع عندي ولا عند اهل »

قال « يا حبذا ولكن الخلاص على هذه الصورة لا يستطيع وعهن بين رجال كالاغوار يختطفون بسرورهم الابصار فاصبري . ولا رب عندي انك تكونين مسرورة بعد قليل » وكان معهان يقول ذلك عن اخلاصه وهو لا يدرك ما في خاطر ديميانة وما الذي يشقى على طبعها من تلك الحسبة . فقد كانت فضلاً عن شركها بالغة وحرمتها على صيانة نفسها عالة القلب بعيد وكل من السبيلين يكتفي لدى المطران بعتقدى بالحياة . فلا بشرت ديميانة من نصرة ميمان وتحقققت وقوعها في النجاح عملت انها لم يبق لها خرج الا بما وراء الطبيعة فعادت الى الاعيان وأخذت تراجع في ذعنها مواعيد الكتاب لمؤمنين في ايام الشدة وسكتت وهي مأشية وسعان لا يتكلم قبوزاً فساطيط الرجال حق اشرفوا على الاخيبة وقد دنت الشمس من التزوب . وكانت الاخيبة عديدة بينها خباء تحيي توجه معهان نحوه وأشار الى ديميانة ان تتباهي تباهتها حتى اطل على باب المطير . فنادى فخرجت له عجوز طربولة القامة شديدة العضل وملائهما اقرب الى الرجال مما الى النساء عليها الدمالج والاساور والعقود وقد فاحت منها رائحة الطيب وابرق عينيها واحمررتا فاثر منظرها في ديميانة أكثر من تأثير منظر ابي حرمدة ووقفت مبهوتة وابتدرها معهان قالاً « عنن الان عند خباء الامير وهذه قبرمانة ينته ويهي التي ربته من صفره وتهدئ نفسها والدة له وقد عهد اليها المعاية بتسائه وكافي بك قد خفت منظرها فلا تخافي وانا اوصيها بك خيراً » ثم التفت الى القبرمانة وكلها بلغة البجة كلاماً بهذا المعنى . فنظرت الى ديميانة وابتسمت ايسامة فلما استأنست ديميانة بها لكنها لم تجد بدءاً من السكت وشارت القبرمانة اليها ان تدخل فدخلت وهي تنظر الى معهان والدمع ملء عينيهما كلها تستفيث به وقد أثر منظرها فيه لكنه كان يعتقد انها لا تلبث ان تُنكث بقصة ايام مع الامير حتى تعتاده وتألف اليقان معه

# الفصل الرابع والخمسون

## الصلوة تزية

دخلت دميانة باب الظباء فاستقرت منه الى عدة غرف من الجلد في كل منها امرأة او نساء وبيتهم التويبة والنجاوبة والبلدية والتقطية بين سريره وخادمة وجارية والكل بالفن احتراماً للهداة حق وصلت بها الى غرفة ليس فيها احد في بعض جوانبها يساط من قبل ووسادة من جلد مخصوص بالفشل وبجانب البساط وعاء كالجراب مفتوح وفيه آنية (التوالت) السواك والمشط وحق الطيب . وقد تعاقب يحدار الغرفة ركرة من جلد وبجانبها قربة مملوكة ما . فلا صارت دميانة في وسط الغرفة والهداة معها شعرت بالقلاص شديد لم تعد تلك معه نفسها تجبيها فلم تعد دميانة ذلك فالنت نفسها على الوسادة واخذت بالبكاء بصوت عال كالاطفال ونفيت موقعها

فاستغربت الهداة بكلها بفترة واخذت تأسلاً مما تريده فقالت « هل تحتاجين الى شيء »  
فلم تجبيها

قالت « هل انت خائنة ؟ لا تخافي بابني ان الامير يحبك كثيراً وبعد قليل ياتي اليك .. قومي اصلحي تأتك .. هذه الاطياب وهذا المسواك وهذا المشط وانا اساعدك »  
ف ذات ذلك ومدت يدها الى الجراب وهي تنظر الى دميانة فاذما هي تزداد بكاء ولا تنتبه لقولها فعادت الى نظيرها خاطرها وملاظتها وما زالت بها وهي تارة تلاعيبها وطوراً تمازحها وآونة تهددها او تذريها او تطمئنها حتى سكن روعها ولم يطعنها باها ولكنها تجدلت واظهرت انها تزيد الاترداد فتركها الهداة ومضت وقد خيم الغلام ذاردات دميانة اقباطاً ووحشة وكانت تستانس بدار موقدة بين يدي الظباء اثارت الظباء نوراً ضعيفاً . فلا خلت بمنها ركبت على ذلك البساط ركرة مؤمن صادق الاعيان وبسيط يديها غلو النها ورفعت بصرها الى العلي واخذت تعلق كأنها تخاطب شخصاً تراه بعينيها وثيق انه يحب طلباً وجعلت تتضرع الى الله وتستجير بالسجع ورمي العذراء وسائر القديسين تطلب اخلاص من هذه

القبرية التي اوشكت الوقوع فيها . وكانت تصلب بمحارة ودموها تسلط على خديها وهي تلوك الصلاة بصوت خافت تتخاله نبرات عند التسلل والالاحاج في الرجاد . وقد حلت شعرها وكشفت عن صدرها واستغرقت في تصرعاتها ومناجاتها حتى نسبت موقعها فصارت تطلب وتضرع بصوت عال تترفعه غمة او بحة وتقرع صدرها وتأيد الطلب والدعاء كأنها تجردت مما يحيط بها

وكان القبرمانة قد تركتها ولم تعد عن غرفتها فسمحت صلاتها فاسترقت اغسلن اليها حتى وقت يزاب الباب بحيث ترى موقف ديمانة وتسمع تصرعاتها ومع غلط قلبها لم تجدها هذه رؤية دموعها المتساقطة وصاع صوتها المخنوقة من الانعطاف اليها لكن غاب عليها الاستغراب وكانت على موعد من قدومني الي حرملة بذلك الساعة وعليها ان ترى "العروض" وتصلح من شانها قبل قدومني فسمحت ان تدخل وتنقها عن الصلاة واذا هي تسمع خطوات عرفت انها خطوات الامير تحولت نفروه وأشارت اليه باصبعها ان يمشي المقربنا ليرى حال ديمانة بيئته ارادت بذلك ان تستلطف استغرابه

فشي حتى اطل على الفتاة بحيث يراها ولا تراه فرأها جائحة وشعرها مخلول وقد انتفس واسترسل حتى فطن كتفيها واعلى صدرها ووضع نظره على جانب وجهها فرأى الاحرار قد جعلوا والدموع يذريها نحو الباب تارة وتقرب بها صدرها تارة اخرى فنظر ابو حرملة الى القبرمانة نظر الاستغراب وهي نظرت مثل نظره ولكنكه حمل ذلك من ديمانة محمل الاستيعاش ليعدها عن اهلها وعزم على اكرامها حتى تستأنس به وقد زاده منظرها في تلك الساعة رغبة فيها فتراجع وارمى القبرمانة ان تلطف في تعطيبها واعدادها له " وانه عائد بعذيل ومنفي

اما ديمانة فقد طالت صلاتها ولم تلوكها شعرت بعد حين يتعجب يديها فلقيت نفسها واذا هي قد سري عنها وذهب ما كان قد احذق بها من المسموم والخافر وشعرت بشجاعة واملئدان وتحققت ان لا خوف عليها من جحائل الشيطان وهي لفاز الوقوف دخلت القبرمانة شاحكة وهبت بديمانة فقبلتها فاشتمت ديمانة منها رائحة خصوصية كانت تشتتها من ذلك المسكر على الاجال ولكنها أحسست بها انبوبة من وجه القبرمانة وهي رائحة بعض الاطياب الخاصة باهل البادية . اما القبرمانة فاسكت ديمانة يدها واجلسها على الوسادة يهانها وقالت لها " لقد آن لك ان تطهيني لقاعدتي يشك وهذه شمسة قد اخصتك بنورها وكان قد حفظها لاعز اوقاته وامرني ان اخبيها في هذه الغرة ليرى

وجهك الجليل بها .. و يجب ان تعبيري بذلك اكراماً خصوصياً فانه لم ينبع منه مع سواك من ناته .. قال ذلك واستخرجت تقبيل شمع غليظاً مفروماً في شبه القاعدة واستخرجت التداحة وولدت النور بواسطة الزفاذ واصوات الشمعة ووضعتها على منضدة او كرمي صغير في بعض جوانب الترفة .. وناولت الجراب واستخرجت الشط والساواك وحقوق الاطياب واخذت تشتعل باصلاح شعرها وتنسيطها وتطيبها ودميانته ساكتة لانك لم لا قائم وقلبياً مطمئن هادى:

## مِعْنَى

# العقل الخامس والخمسون

## موقف هائل

ولما غرغرت من تنسيطها وتطيبها انها بشوب من الحرير الملون كان ابو حمراء قد بعث اليها مبالغة في اكرامها ثلبيه وهي ساكتة فظلتها التبريرمانة راضية مسرورة خرجت الى الى حمراء فاستقدمته فاق و كان قد خطف ملابسها و اثنج بشوب من الحرير يشبه ذلك وقطيب .. ولما دخل الترفة اثار الى التبريرمانة فخرجت ثم عادت ويدعها ركرة من جلد وقدح من خشب وضعتها بين يديه وخرجت وبقي هو ودميانته ليس في الترفة سواهما .. فلا شعرت دميانته بذلك الا ان اصراد اختجاج قلبياً في صدرها رغم استسلامها واتكلما بعد الصلاة واستأنت الاستفانة في سرها

اما هو فقد على البساط وتناول الركرة فصب منها في القدح وقدمه الى دميانته وهو يقول بلغة قبطية مكسرة « اشربي يا هروسة .. اشربي من هذه المربيه فانها تعش القلب وتدفع الحزن .. »

فظلت ساكتة مطرقة لا تعلم ماذا تقول فقال لها « انا اشرب هذا القدح عليك » اشربي ولبس « قدح آخر وقدمه لها وقال « خذني اشربي .. » وادق القدح من فيها فنفرت منه وظهر الاختزان في وجهها فقال « ينظرك انك لم تتعودي هذا الشراب » ووضع القدح من يده وسعن على البساط حتى دنا منها ووضع يده على ركبتيها فاقشعر بدتها ولم تناولك عن النهوض بعنته وقررت فاختذ يضاحكها فقال « ما بالك .. ماذا تخذلين مني وانا احبك كثيراً » و مد يده ليمسك يدها ويجذبها اليه تباعدت فتطاول حتى أمسك بدها فاذا

في باردة كالثلج وشعر بخار كبر باية زادته رغبة فيها . وأما في فلامس نف شعرها وكاد الدم يجمد في عروقها . ولم تجد فائدة من التهور فاطاعتني وفقدت وهي تحجب ان تلمسه وعامتبيه والسمع في حينها قائلة « اتوسل اليك يا سيدتي ان تتركي وشافي » قال « ولماذا .. الا ترضين ان تكوني من نفاني »

فلا سمعت صواليه خافت ان تحببها « لا » فينثب فقالت « افي جاريه سخيرة لا استحق هذا الاكرام وانت في غنى عن هذك من النساء الكثيرات فالخذلي جاريه الخدم في مطبتك او ارمي الماشية او اي شيء آخر »

قال « لا .. لا .. بيل انت افضل النساء عندي وسأجعل لك المقام الاول فلا تغوري فانا وحش وان لم اكون من اهل المدن نظيرك »

قالت « يظير لي من كلامك ومن هلو منزلك انك طيب السريرة اذ لا يمكن ان يبلغ مقام الامارة اسفل الناس .. فالآن قدمن اليك ان تسمع كلام اولوا لك .. هل انول ؟ » قال « قولي »

قالت « انا اعلم ان حظوي عندك من اسباب الشرف العظيم الذي يتناه كثيرون ولكنني احب ان تعلمي من تلك الحظوة .. وانا اسيرة عندك استخدمني بماشاء فاني اكون خادمة او راعية او جاريه الطبع او القتل او الهرث او اي شيء غير الزواج .. اصح لي اعني .. استخلفك مين تصد او مين تحب ان تتركي وشافي »

قال « كيف اتركك وشافنك وقد وقعت لي من النوبة بعد استغارة الآلة ورأيت فيك جالاً لم اشاهده في سواك .. فانا اصح لك ان ترجعي عن خطأك وتأتي راعية اولى من ان تأتي مكرمة .. وانت تعلمين انت ابا حرمة صاحب هذه النوبة لا يحيزه ما يريد منه »

فشرعت يتقل شهيد ، وهي تعلم انه اذا عزم على اسر لا يردهه رادع فاطرقت واعملت فكرتها ولم تحيب .. فاستبطأ جوابها فقال « هل رجمت عن غيرك باتفاقية .. هل شرعت اني ادعوك الى المساعدة ؟ »

فرفعت بضرها اليه وقد تكريت اهدابهـا من اليـكـاءـ وذيلـاـ من الحـرـنـ والنـبـرـ وـقـالتـ « قـلتـ لكـ انـ كـثـيرـاتـ مـنـ اـمـاتـيـ يـمـدـيـنـ الـحـصـولـ عـلـيـ هـذـهـ السـعـادـ وـمـعـ ذـلـكـ فـانـيـ اـسـتـعـيـدـكـ مـنـهاـ .. وـاـطـلـبـ مـنـيـ ماـشـتـ غـيرـ ذـلـكـ .. قـلتـ لكـ اـفـيـ اـكـوـنـ خـادـمـةـ جـارـيـهـ رـاعـيـهـ اـكـونـ ايـ شـيـءـ ثـرـيـدـهـ غـيرـ الزـوـاجـ »

فقطع كلامها فائلاً « راعية خادمة ؟ ان الخدم كثيرات فانا نبيع الارقاء بالثبات »

# الفصل السادس والخمسون

الدهان السري

فأتبهت دميانة لذكر طرق ذهنها بغاءً وحالا خطر لها بأن البشر في وجهها ففالت والهد  
بادر في حيامها وقد ذهب خوفها « انت امير كبير وأكثر اشتغالك بالمرور »  
قال « نعم »

قالت « واثلك تخسر كثيرين من رجالك في اثناء القتال »  
قال « كثيرين »

قالت « وانت طبعاً لا تكون في مأمن على نفسك ابداً »  
قال « اني لا اخاف الموت »

قالت « لم اقل انك تخاف الموت ولكن الا تكون معرضاً للقتل »

قال « طبعاً .. ولكن ما معنى هذا الكلام وما دخله في ما يعنين فيه ؟ »

قالت « تمهل ايهما الامر وستنعم النتيجة .. الاتعلم من الجهة الاخرى يا في مصر  
من العلوم السرية التي ورثناها عن اجدادنا الفراعنة »

قال « اسمع بشيء كثير .. وماذا يهبني من العلم »

قالت « الا يهمك ان تنجو انت ورجالك من القتل ولو تسقطت عليكم المطراب  
كالامطار او وقعت عليكم السيف كالجلبادل ؟ »

فضحك حق بانت اسنانة اليقاه وهز رأسه وقال « على يهبني ولكن هل في علم  
المصريين ما يمنع الموت ؟ »

قالت « نعم ايهما الامر .. وذلك سر لا يعلم به الا قليلون »

فشخص يصره اليها شخوص المستغرب وقال « وهل تعرفينه انت »

قالت « اعرفه »

قال « اغا تحالين في البحاجة »

قالت « اسمع لي .. انا لا انقول جزاماً ولا اعطيك منك التسليم بدون تجربة .. ان سر  
هذا الدواء محصور في بعض الادبار بمصر ولقد تعلمت منه وعرفته »

قال « وما هو ؟ »

قالت « هو دهن اسطمعه واقرأ عليه اذا دهن الرجل جلدك به امن الموت اذا لا يقطع فيه سيف ولا رمح ولا نصال »

قال « دعينا من الكلام المفراً ان هذه الاكاذيب لات تعالى على »

قالت « انها ليست اكاذيب يا سيدى انه سر في يدي لا أريح به لك الا بشرط ان تعاودني على كثافاته وتقسم بما قبده انك تفي لي . . . . . »

قال والجلد يتجلّي في جبهته وعيشه « القولين الحق ؟ »

قالت « نعم »

قال « اذا صدقتك وكان عدوك مثل هذا الدهان فاني اعطيك ما تطلبيه »

قالت « لا اطلب شيئاً غير اطلاق مراحى وايمالى الى يدي واهلى وان لا تطالبي بالزجاج او غيره »

قال « لك ذلك .. واقسم بالله الذي مير بشمسي ولكن كيف تعرف صحة هذا الدواه ؟ »

قالت نغيره على رجل ندعه جسمه به ونقرب عنقه فاذا قطع كان الدواه كاذباً . . . . .

واما ذهبت الفصيرة في اغا ولم يصب الرجل بسوء الا تصدق اولى وثني لي ؟ »

قال « بلى .. ولكن من يرجعني ان نغير ذلك عليه ويعرض نفسه لهذا النظر ؟ »

قالت « اذا لم تجد احداً انا اجربه بنفسي »

فاطرق ابو حرمدة ولقد دعث لهذا الكلام وقال « طيب .. ومتى تصطحبين هذا الدهان ؟ ومتى تغيره ؟ »

قالت « غداً .. ان شاء الله .. »

فنهض وهو لا يصدق ما يسمعه وقال « لصبرن الى الغد » ثم وقف وقال لها « اني منصرف الساعة فاعندي المثار وفي الغد نغيره » فاذا صح فاعل ما تريدين »

قالت « لا اريد غير الخلاء سبلي وارجاعي الى اهلي »

قال « حسناً » وخرج وقد توشه الدهنة وسار توكا الى فسطاطه

اما دميةانة فلما خرج من عيدها تنفس الصعداء واخذت في اعداد الدهان فرجنته من الاعطاب التي بين يديها واضافت اليها اشياء اخرى غير معروفة حق صار بقואم الشحم

وجعلته في القذح الذي عدتها وباتت تلك الليلة مضطربة لفول الامر الذي في مقدمة عليه ولكن اياتها كان قوية

وفي اليوم التالي جاءتها القهرمانة فرأتها مشغولة بالصلادة فانتها بالطعام فاكلت فليلاً

ثم جاء مسمان التوبي المترجم يطلب ديميانة من القبرمانة فلتها اليه . فلما رأته ارتاحت الى روئيه وابتسمت ابتسامة سر بن ياثس فثار منظرها في نفسه ولكنها قالت لها « ارجوان تكوفي قد غيرت رأيك في اميرنا »

فنهضت ولرسلت دعمنين الخدرة على خديها وهي ساكتة تمشي في ازره حتى بلقت الى خيمة الامير وقد خابت تدح الدمعان في جيبيها فامر ابو حرمدة بادخالها عليه ودخلها فدخلت واراد مسمان ان يدخل معها فاشار اليه الماجب ان يبقى خارجاً فذك وهو يصغي من تلك الخلوة مع حاجة الامير الى مترجم

## الفصل السابع والخمسون

اما ديميانة فدخلت السلطاط وقد خلوا على اعمدته اسلحة وادراجاً وجلس ابو حرمدة على عقر به متكتئاً وقد مد رجله وقدماه حاتيانت وليس على رأسه الا عامة صغيرة لا كيا بلا نظام ويده خيزرانة يتلاقي بها . فشت ديميانة الى وسط السلطاط ووقفت فاشار اليها ان تتقدم فتقدمت حتى اقتربت منه فقاوماً اليها ان تتمدد فتقدمت فقال لها « ذهبت امس الى خبانك فاطمئنك ذاك في » وبصت على نفورك فاردت انت استقدمك الى سلطاطي لملك تفيري بن عزمك الا تزالين خائفة ؟ »

قالت « لست خائفة يا سيدى ولكننا اتفقنا ما » امس على شيء هل نبيه ؟ قال متجاهلاً « وما هو »

قالت « لم تهدني بالطلاق سبلي اذا استحضرت ذلك الدمعان الذي يمنع القتل ؟ » فضحك وقال لها « لا احبك ققوانين الجد .. دعينا من الادهار وارجعي الى رشكك »

قالت « اما اقول الجد ووعد الامير مقدس »

فاعتذر في مجلسه وقال « تصعنين دهانين يمنع القتل ؟ ما هو ؟

قالت « نعم يا مولاي » ومدت يدها الى جيبيها واستخرجت القدح ودفعته اليه فتناوله ونظر في ذلك الدمعان فإذا هو خثير كالثجم وله رائحة الطيب فقال « هذا الدمعان يقي من

القتل ؟

قالت «نعم اذا دهنت به عنق الرجل لا يقطع فيه سيف ولا خنجر»  
فهز راسه وهو يتأمل بما في القدح تارة وينظر اليها تارة اخرى وهي مطرقة تستثار امره  
قال «يبني لانا غريب ذلك»

قالت «جربه»

قال بلحن التهديد «اجربه يك انت»

قال «جربه يا سيدى يمن شئت فانا على يقين من صدقته»  
فرد القدح اليها وقال «خذني ادعني المكان الذي تربدينه وانا اجرب شربه بسيفي  
هذا» ووضع يده على سيف الى جانبها

فتحتاولت القدح من يده وهي تقول «جرب سيفك» ورفعت شعرها الى اعلى راسها  
وكلشت عن عنقها واخللت بعض الشعر برأس سبابتها وجعلت ترمح عنقها واعلى  
صدرها، فلما فرغت من العمل جشت بين يديه وقالت «اطلاق حسامك جرب قوتك ..  
فتهض واستهل حسامه وقال «أغرب»

قالات وهي مطرقة وقد كثفت عن قفا عنقها «أغرب»

فرفع نظرة على ياضن جلدتها ورأى انكارها فابت نفسه ان يوشها لانه لم يطلق  
حسامه على عنق الا براها بري التلم قرایع وقال «راجعي نسرك اني لا اخليك الامتندة»  
قال «لا تخلي .. اغرب .. ان يدك ستزند خالية ..

فأخذته القبض وقال «ترتد خالية ؟» ورفع يده وهم بالقرب واذا بصوت يناديه من  
الخارج «لا تفعل يا مولاي» وسمع خطوا فالتفت فرأى سمعان داخلاً مسرعاً حتى  
حال ينته وين دعيانة فقال ابو حرمطة «ما بالك ؟ ..

قال «ماذا تفعل يا مولاي ؟

قال «اجرب دهاراً اصطنعته هذه القبطية تقول انه يعن القتل واكدت لي ذلك  
حق ارادت ان اجربه على عنقها

قال «وهل صدقتك توطا ؟

قال «لم اصدقها ولذلك اردت ان اجرب ذلك فيها»

قال «انك قتلاها

قال «هي تقول ان الدواه عريب لا ريب في صدقه .. ولولا ذلك لم تعرض نفسها

لقتل فقد رأيتها تستحثني على القرب بكل قوتي «  
فلا سمع الترجمان قوله ابضم وادار وجهه حتى استقبل دميانة بوجهها وهي لا تزال  
جائحة مطردة وشناها تذكر كان كأنها تصلي فلما انتر بمعان منها رفت بصرها اليه  
وعيناها تزل لأن بالسمع فقال لها «اصدقين فعل هذا الدوا»

قالت «كيف لا وعا اني اطلب تغييره في نصي دعه يضربي ثم يرى ما يكون»  
فحشك معان وقال «ذلك لا يجوز علي يا ديميانة .. . فقد عرفت قصدك» وتحول نحو  
الامير وقال «لا تصدقها يا صديقي ولا تطلق حسامك الا اذا كنت تrepid قتلها وهي تعلم  
يقينا ان الدوا لافائدة منه وان الفرية من بذلك تقفي عليها»  
فقال والدهشة ظاهرة في عينيه «تعرف ذلك وتعرض نفسها للقتل؟ .. لا لا هدا  
لا يمكن .. دعني أجريب»  
فصاحت ديميانة «دعه يجريب وسترى صدق قوله فاستريح من هذا الامر لانه سيدفعني  
إلى اهل ..»

قال «لانتفعل بيسيدني اتها تrepid الموت ..»  
قال «كيف تسمى بنفسها الى القتل؟»  
قال «تفعل ذلك فراراً من امر يجرمه دينها عليها وأنت تطلب منها ظلاماً تجد وسيلة  
لنجاة بالحسنى فضل الموت على الرضا به»  
يُجمل ابو حرمدة ينتقل بنظره من معان الى ديميانة ومن ديميانة الى معان كأنه يتضمن  
ما يضرهان ثم قال «وكيف عرفت ذلك؟»  
قال «عرفته لانه حدث قبل هذه المرة بصعيد مصر منذ اكتوبر من مئة سنة في دير  
من ديارات الراهبات وقد سمعته اثناء مروري هناك»  
هذا سمعت ديميانة قوله نظرت اليه نظرة عذاب ولسان حالمها يقول «لندوقت في سيل  
خجافي من العار»  
فقال ابو حرمدة «وكيف ذلك؟»

قال «اما قام العباسيون على بني امية وارسلوا جيوش خراسان لحاربهم هرب كبير بين  
آمية مروان الى مصر ويحمل باسم اديار الراهبات والرهبان فانتقم ان رجاله وجدوا في بعض  
الدياريات قناع جحيلة الصورة فاحضروا اليه فاعطوه جمالها فارادها لنفسه وهي تأب ذلك لأن  
النصارى يتفاخرون في الحافظة على العرض ولا سما الراهبات قان الفتاة منهن تستكشف ان

شـ عـقـتهاـ بـشـيـ وـقـنـتـدـيـ عـقـتهاـ بـنـسـهاـ .ـ فـلـاـ اـرـادـهـ الـامـيرـ وـعـاتـ اـنـهـ غـيـرـ تـارـكـاـ اـحـالتـ عـلـيـهـ وـزـعـمـ مـثـلـ زـعـمـ صـاحـبـتـاـ هـذـهـ اـنـ عـنـدـهـ دـوـاءـ اـذـاـ دـهـرـ .ـ بـهـ جـسـمـ اـرـتـدـتـ عـنـهـ السـيـوـفـ التـواـطـعـ وـاـنـهـ اـذـاـ وـعـدـهـ باـطـلـاقـ مـرـاحـاـ دـلـهـ عـلـىـ ذـكـرـ الدـهـنـ فـرـضـيـ يـقـولـاـ وـاشـتـرـطـ اـنـ يـجـربـ ذـكـرـ ذـيـهـ فـرـضـتـ وـدـهـتـ عـقـتهاـ وـاـمـرـ الـجـلـادـ فـضـرـبـهـ فـاطـلـاـ رـأـسـهاـ عـنـ بـدـنـهـ فـعـلـ اـنـهـ فـعـلـ ذـكـرـ تـقـضـيـاـ الـمـوـتـ عـلـىـ اـنـ شـعـقـتهاـ<sup>(١)</sup> .ـ وـتـحـدـثـ اـهـلـ مـصـرـ بـهـذـاـ اـلـاـدـثـ الـحـيـبـ زـمـنـاـ طـوـبـاـ »

## الفصل الثامن والخمسون

### سلطة الفضيلة

فـلـاـ سـمـ اـبـوـ حـرـمـةـ قـوـلـهـ ردـ سـيـفـهـ إـلـىـ غـمـدـهـ وـهـوـ مـطـرـقـ ثـمـ رـىـ الـيـفـ عـلـىـ الـبـاطـ وـتـقـدـمـ إـلـىـ دـمـيـانـةـ وـقـالـ لـهـ قـوـمـيـ يـاـ أـخـيـهـ ..ـ قـوـمـيـ ..ـ هـلـ اـنـ تـرـيـدـنـ الـمـوـتـ ؟ـ فـصـاحـتـ وـفـيـ وـاقـفـةـ وـقـوـفـ الـمـسـطـفـ وـالـدـمـعـ يـنـلـالـاـ فـيـ عـيـنـيـاـ «ـ نـمـ اـنـدـلـ المـوـتـ عـلـىـ مـاـ تـطـلـبـهـ مـيـ ..ـ اـذـاـ كـنـتـ لـاـ تـرـوـالـ عـلـىـ عـزـمـكـ الـاـولـ فـاقـتـلـنـيـ حـالـاـ»ـ فـاظـهـرـ الغـنـبـ وـقـالـ «ـ تـقـضـلـنـ الـمـوـتـ عـلـىـ اـنـ تـكـوـنـ عـنـديـ ؟ـ »ـ قـالـتـ «ـ كـلـاـ يـاسـيـدـيـ لـاـ اـشـكـوـنـ خـصـكـ فـانـتـ اـمـيرـ كـرـيمـ الـاخـلـاقـ وـلـكـنـيـ اـتـجـبـ شـيـئـاـ آـخـرـ ..ـ وـاـهـرـتـ حـيـاـ »ـ فـتـصـدـىـ سـمـانـ بـلـكـلامـ وـقـالـ «ـ اـنـهـاـ تـرـيـدـ الـمـوـاـفـظـةـ عـلـىـ عـقـتهاـ حـبـ اـعـتـقـادـهـاـ وـلـيـسـ بـالـنـظرـ إـلـىـ رـجـلـ مـعـينـ »ـ

فـاحـسـ اـبـوـ حـرـمـةـ كـانـهـ غـلـبـ عـلـىـ اـمـرـهـ وـشـعـرـ بـقـوـةـ فـيـ تـالـكـ الـثـانـيـةـ السـيـبـيـةـ لـمـ يـكـنـ يـشـعـرـ بـعـثـلـهـ فـيـ كـبـارـ الـرـجـالـ .ـ وـسـرـ فـوـتـهـ اـحـتـارـهـ هـذـهـ الـحـيـاةـ وـعـاـنـظـتـهـ عـلـىـ عـفـافـهـ وـثـيـانـهـ فـيـ الـمـبـدـأـ الـذـيـ شـبـتـ عـلـيـهـ وـلـمـ يـعـمـهاـ خـطـرـ الـمـوـتـ عـنـ الـبـقاءـ فـيـهـ .ـ وـالـتـكـ بـالـغـافـ وـغـرـوـهـ مـنـ الـفـضـائـلـ يـكـسـبـ اـسـحـابـهـ قـوـةـ وـهـمـاـيـةـ حـقـ فيـ الـأـمـ الـتـوـحـثـةـ فـلـمـ يـقـاتـلـ اـبـوـ حـرـمـةـ عـنـ النـظـارـ إـلـىـ دـمـيـانـ نـظـرـ الـاحـتـرامـ وـقـالـ لـهـ «ـ كـيـفـ تـقـضـلـنـ الـمـوـتـ ..ـ »ـ

(١) الخريدة الثانية ج ٢

قالت « افضله لانه ينبعي من ارتكاب ما اعتقد ، عالقاً اراده الله و تعاليم السيد المسيح »  
فالتفت ابو حرملاة الى سمعان وقال « فهي اذَا نصرانية على مذهب سيدك صاحب  
الثوبية ... »

قال « نعم يا مولاي والنصارى يهدون الحافظة على العفة من اكبر الفحائل »  
قال « فذلك الثوبية اذَا اولى بها هنا وانا اكراماً لهذا الديات قد عفت عنها .. لكنني  
لا انكلاف ارجاعها الى مصر وعفن بعد ايام فائمون الى الثوبية فقللها الى ملوكها ... »  
فلا سمعت ديميانة كلامه اشرق وجهها وذهب القياضها وتأثرت دموع الفرح من  
صينها وهمت يد الامير لتقبلا فزاده هذا الشعور شفقة عليها واعجاها بها لانه لم يكن يتصور  
انه يوجد في الدنيا امرأة تأتي ان تكون زوجة له تكيف انه رأها فضل الموت على التفريط  
معها فقال لها « قد تركتك وشأنك وعفن فائمون بعد ايام الى الثوبية فتكون على متربة  
من دفلة عاصمة ذلك الملك فادعك اليه .. هل يرضيك ذلك ؟ »

فشارت برأسها وعينيها اهبا شكره على هذه الملة وهي لا تلتعرف كم تبعد دفلة عن ذلك  
المكان ولكنها كانت تود النية ان من تلك الشرك باية وسيلة كانت اما سمعان فيعرف  
البلدين وما ينتهي من البعد فقال « اذا كان الامير يريد ثلثة يقاتلاها في مسكنه وانا نزوي  
وقد اشتقت الى يلادي قلياذن لي بالانصراف اليها فأخذ الشابة مني واوصلها الى الثوبية »  
فحشك الامير وقال « لند طلما لاحتت وغيتك في فراحتنا وقد سخت تلك فرحة فائمه  
واهد سلامي الى ملك الثوبية وقل له اتنا باللون على البعد .. وقل لفلامي اذ هي؟ »  
لكن الكاتب اللازمه و مدروا خادماً او ماشتم « والتفت الى ديميانة وقال لها « اسبلي ذيل المعندة  
على ما احدثك من التعب يا جليلة واذكري بما عند اهلك باخيرة مق بانت الى بلدك »  
فتدذكرة رفيقها عليها فأرادت ان تسأل عنها لعلها تصفعها بها ونكتتها على جميل  
والدها فقالت « اشكرك ايتها الامير ومسائر في الملا مالقيته من بمحنةك وكرم اخلاقك ..  
ولتكن لي رفيقة كانت معي منذ اخذتنا من حلوان .. »

فنظر ابو حرملاة الى سمعان كأنه يستنهى فقال « اذنك تعنين عليا فهذه قد تزوجها اذا  
الامير وهي راضية لانها تخففت بوت والدها وساتر اهلها وهي من بنات الباردة »  
فقالت « لعلها تحب ان ترافقني »

قال « وقاد سافرت في هذا الصباح مع زوجها .. »  
فسكت ديميانة وخرجت مع سمعان وانكلبت عليه في اعداد ما يلزم السفر .. وحدتها

قصها ان تطأط اليه ان يحصلها الى مصر بدل «lad التوبة فتصل الى اهلها». فلما خرجا نظرت اليه وهي لا تصدق انها غفت من تلك المبالغ بعد ان كانت قتلت وشعرت ان له الفضل في ذلك اما هو فلم يك كأن اكثرا سرورا منها لانه اقتضى من الموت . فلما رأها نظر اليه شحذك وقال لها « هل انت مسرونة يا سيدتي ؟ »

قالت « النضل لك يا معمان في حياتي ... »

قال « لا نضل في فاني فمات الواجب وقد شعرت من اول لحظة رأيتكم فيها ان علي» فرشأ واجباً خروك «

فقالت « وانا حلا وفع بصرى عليك شعرت بارتياح لرؤيتك ثم تحقق ظني بما آتته من طيب هنرك كانك مسيحي مثل »

ففحذك وقال « وانا كذلك .. اني ربيت تربية مسيحية ولذلك رأيتني عرفت حر كأنك »

وكانا يعيشان واهل المسكر يتظرون اليهما وقد يلتهم الخبر ان الامير عنا عن تلك المرأة وامر بتسرعها . فظل سمعان ماشيا حتى أتى خيمته وامر الخادم ان يهيي الاحمال ودعا دميةة الى الجلوس وامر لها بطعم يعرف انها تأبه فاختت باستئصال كثير ولا سمعته يأمر باعداد الاحمال قالت « الى اين عن ذاهبون »

قال « الى دقلة يا سيدتي » وفتح شحذك

قالت « واين هي من هنا »

قال « تبعد بضعة عشر يوماً على المجال »

قالت « هل هي من جهة مصر ؟ فإذا وصلنا اليها نقرب من السلطاط »

ففحذك وقال « ان مصر الى يميننا ودقهلة الى يسارنا فإذا كنا الان بعيدين عشرين يوماً من مصر فنفي صرنا في دقلة نصيري على مسافة اربعين يوماً عنها »

فيحدثت واقبضت نفسها واطرقت فايشرها سمعان فائلاً « لا تخزي اتنا لا نذهب الى دقلة واقفاً عن ذاهبون الى اسوان وهي على يوم وبهض اليوم من هنا » وخفق صوته

وقال « لاني عرفت من بعض المارين بما ان ملك التوبة قدم الى جرار اسوان متذكرًا ومقصرنا هناك لا تكون بعيدين عن مصر كثيراً »

فأذرق وجهها وقالت « بورك فيك . فانقدم اليك بعد وصولنا اسوان ان ترافقني الى مصر لا كائنك على منيك »

قال «ساكون في خدمتك حق تصلني مامتك»  
 فشكرنو وسمعت اذا هو رافقها الى مصر ان تكاثر احسن مكانة . وفي الحال  
 نذكرت ما كان من امرها في القساطط وكيف اضطهدتها ابوها ولا تعرف ما يكون مصيرها  
 لانها لم تعلم بما دار بين زكرياء وسعيد وكان زكرى ياقد تركها في حلوان وذهب لاستجلاب  
 الا-عطاؤة والتي سعيد او كلامه والماقى ليخبرها بما حدث وجدوها قد اختفت . فلم تكن دينانة  
 تعرف شيئاً من حال اهل مصر ولكنها كانت تتوقع ان تكتشف الحقيقة وتوصت في سمعان  
 الرغبة في خدمتها فارادت ان يصحبها الى مصر لاستخدامه في التنبيش عن زكرياء او سعيد  
 واختفت تناهيل الرحيل الى اسوان

## الفصل التاسع والخمسون

اسوان

وكانت اسوان آخر حدود مصر من جهة الجنوب وتبتدئ ببعدها بلاد التوبه وهي مدينة  
 آهلة فيها تجارة واسعة لما يتبادل من السلع والحاصلات بين مصر والسودان يجتمع فيها  
 التجار على اختلاف الملل . وكثيراً ما كان التوبه يسطرون عليها ليضمونها الى بلدهم فيحاربهم  
 المسلمين ويردونهم . وفيها مدارس التعليم الخصبة وعندها يتتدى الشلال الاول من النيل  
 وهي جنادرل تعرض عبرى الماء فيسمى لها دري وخرير ويصر سلوكه بالفن فيخروفها  
 بالبانجر او يحملونها حملأ حتى تنجذب تلك المضائق . وعدد اسوان كثير من آثار الفراعنة  
 اهمها هيكل انس الوجود المشهور . وكان في عهد روايتنا دير نجاه اسوان في البر الغربي يقيم  
 فيه بعض الراهب لا تزال آثاره باقية الى الان . وناعيك بالجبل الجاور لاسوان من جهة  
 الصحراء وفيه المناجم الـواقبة التي كانوا يقطعونـ منها الاجبار الاسوانية وترها الى  
 الان باقية وفيها الاستجوار المقطرة والخمر المقورة

وكان ملك التوبه يومئذ يسمى فيرقى ( او قيرقى ) وكان طالماً بذلك مصر وخارجها  
 من ايدي المسلمين واعادتها الى ملك الروم . فكانت الخبرات جارية بينهما مرتاً بواسطة  
 اسقف مقديم في اسوان ذاته رسول الروم فيبيت بالكتب او بالرسل الى ملك التوبه . واحب  
 ملك التوبه في ذلك العام ان يأتي بنفسه للخبرة شفاعة مع الاسقف . فتذكر وتزل في سلحة

على حدود التوبه وراء اسوان ولا يعرف به غير قبر من خاصته . ويبلغ ذلك الى سمعان من جماعة كانوا مع قاتلة الملك عند خروجهما من دقلة وتركها قاعدين مناصم الورد فلقي سمعان رجل منهم يعرفه فقص له عليه اخبار مصر<sup>٢</sup> .  
وبعد يومين اعدت الركاب لدميانت وسمعان ومعهما خادم وجبل يحمل موئذنهم والمسافة الى اسوان قصيرة واشرفوا عليها في الاميل فقال سمعان «انا على مقربة من اسوان وهذا جبلها المشهور الذي يقطعون منه الايجار ويفتحون القائيل فيبني لنا ان تجاذب اسوان عن الجلوب »

قالت « ولذا لا تنزل فيها فقد يلتقي ان فيها ديرًا ذات كرامة احب ان ازوره »  
قال « ان الدير على البر الآخر لا تصل اليه الا بعد ان تقطع النيل ولا بد من ذهابا اليه اما الان فعلينا ان نقابل الملك »  
قالت « واي ملك ؟ »

قال « ملكنا .. ملك التوبه »

قالت « ليس هو في اسوان ؟ »

قال « كلامك لا ينزل اسوان لانها ليست داخلة في مملكته ولكنها ينزل في مسلحة وراء الشلال فيها حامية من رجاله »  
ففتحت وسكت وظهر من ملاعها انها نكم امرًا تحب اظهاره فقال « اغلق تتجاذب السفر الى مصر »  
فضحكت وقالت « هل تلومني على ذلك ؟ وقد فارقت اهلي يكون على فراقى وربما يشروا من وجودي »

قال « لا الومك يا سيدتي .. نكتنا بسفرنا الى مصر لا نستنقى عن بخدة الملك وزد على ذلك انني مكلف برسالة من ابي حرمة اليه لا بد من تبليغها »

قالت « افضل ما يداركك »  
وكان اركبين على الحال وقد اشرقا على النيل عن بعد فرأيا سطحه يلمع كفرنود السيد وتحده الجبال من الصخرين ويتخل ذلك انقض المياكل الفرعونية فيها الجدران والاساطيل وما انتربوا من اسوان سمعوا مدبر الماء عند الشلال من تراجمه في سيره بين الجداول - مر على وادي النيل دول شرق وتوالت عليه احوال مختلفة من هز وذل ونزل ذلك البلد ملوك وقاد من عهد القراءة العظام الى اليوقان فالروماني فالسلطان وهديه ذلك

الله واحد وعبراه على وتبة واحدة لا يبل من الجلي و لا يبل جاره من السع  
مرؤوا بالقرب من الجيل وقد كانت الشمس تدرك المغيب فقال سمعان « لا نزال  
بعيدين عن المساحة فاري ان تبيت هنا الالية هل تريدين ؟ »  
قالت « لا رأي لي يا عاصه -- افضل ما تشاء »

فشار الى الخادم ان ينصب الخيمة وهي صنيرة كالمطلة تبيت ديمانة تحتها ويص  
سمعان خارجاً والخادم ينقل الجمال وينام بيتها فقال الخادم « اين انصبها »  
قال « انصبها في سفح هذا الجبل في مكان عهد » قال ذلك وترجل ونزل ديمانة عن  
الجبل وقد تبعت واخذ يمدثا ليشتملا عن النبع والتقت اظفارها الى ما هناك من الشاعد  
الطبيعي وهي لا ترى شيئاً لأنها حاماً وقع نظرها على البيل تقسم راشنة القساطط  
وتنذكرت حبيبها ونافت نفسها الى اللقاء لترى ما يكون من امرها  
وبعد قليل جاء الخادم واباها ينصب الخيمة على مصطبة من الصخر في سفح ذلك  
الجبل فقال له سمعان « امك انت هنا مع الجمال الى الصباح وكن متيقظاً لثلاثة يسطو  
عليك الاصحون »

قال « حسناً » ومضى

وصعد سمعان وديمان للبيت تحت تلك المطلة وهي لا ترى بأي من الاقراد بسمعان  
لأنها كانت تعلمه مثل خادتها ذكر يا وقد آتت فيه لطفاً وخصوصاً لأنها عرفته وهي في  
اشد القصق وتوكست فيه طيب المنصر وانه نصراقي مثلها والذين من اهل اسياق التقارب  
حمل سمعان معه بعض الزاد وجلس تحت المطلة فتناولوا شيئاً من الطعام ثم غلب عليهما  
الناس خامت ديمانة على ساط فرشة هامسها تحت المطلة وتوسد هوارضاً رملية على بضمها  
اذرع منها وجعل راسه على ذراعه . وهو يوشك ان ينام سمع دوي فالقصق اذنه بالارض  
جيداً وتدشت قاذفاً هو يسمع وقع خطوات قريبة فرق راسه وقد خرم الظلام واصبح بسمعه  
فسمع لططاً بعيداً فنهض وتنشى حافياً نحو الصوت وهو يتأمس طريقه حتى اطلاع من وراء  
الجبل على خيام منصوبة وقار مشبوحة وتقرس فإذا هي خيام نوبية الشكل فلم يشك في أنها  
مخارب الملك فحدثه نفسه ان يسير اليها لانه يلاق في فيها اكراماً وحفاوة ويلعن رسالته  
ولكته خاف ان يدرك ديمانة متفردة فلزم ان يسير بها في الصباح الى هناك وعاد الى متوجه  
وم يكن ينام حتى سمع دويآ فربما نهض فرأى ثلاثة فرسان يسوقون اثوابهم في طريق  
يؤدي الى ذلك المقرب فتحتت وتفرس بالمارين فلم ير فهم لا لهم متذرون فعاد الى منامه

وقيل النجر جاءه الخادم فماله هل شاءد أحداً مارأته ذلك الليل فقال  
« شاءدت ثلاثة رجال ومرأة بي خادمهم فلأنه اذا كان منهم حروف عليكم فقال  
« كلا . لا حروف منهم .. لأنهم اسقف المدينة والاثنين من رجاله » وبالواقع قد رجعوا في  
آخر الليل ولم تشعر بهم »

فلا سمع سمعان قوله « اطرق هنديه يذكر ثم ابسم وأشار اشاره معناها » عرفت  
السر ثم الفت وقال له « اشك هنا بالجال والثياب حق نعود اليك » وقال السيمانية  
« هل تريدين مراجعي الى هذه الاختيام وراء هذا الجبل فانها مغارب ملك النوبة فنقايله  
ونستاذنه في السفر ثم نعود »

قالت « اذا كنت ترى فائدة من ذهابي اذهب »

قال « الافضل ان تأتي معي واظنك تخرين شاهدة على النوبة فان الناس يشقون  
رؤيه » وأشار اليها ان تبعه فشيئاً فشيئاً حتى تجاوزوا الجبل الى بقعة منخفقة فيها بقعة خيام  
احداها كبيرة تقدما حتى اقتربا من الطيبة الكبيرة فتصدى لها رجل ثوري ظليط البدن  
قوي العضل حافي القدمين قد اخفى شملة لف بعضا حول حقوقية وارسل باتها من جهة  
صدره الى كتبه فظهره وقد علق سكريبا في كوعه وشك سهاما في شعره الشديد وعلق قوسا  
في كتفه . ولا رأى القادمين تصدى لها فتقدما سمعان اليه وكلمه بلسانه فيفت الرجل عند  
رؤيه وتركه الدعثة وصالح « سمعان » وهو به فضمه الى صدره وصالحه بشيء وتلذث بين  
المصالحة والتي تلتها يقبل كل منهما يده على عادة النوبة في التسلم . فأخذ سمعان يخاطبه  
بالنوبية اشياء لم تفهمها ديميانة ومشيا وها متصلحان وكم سمعان الرجل وهو يشير الى  
ديمانة فاسرع اليها ودعاعها ان تبعه فاستشارت سمعان بنظره فاما اليها ان تبع الرجل  
فذهب بها الى خيمة فيها نساء استقبلها احدن استقبال

## الفصل السادسون

ملك النوبة

اما سمعان فسار الى الطيبة الكبيرة فاستأذن له رفيقه في الدخول فاذن له فدخل  
واذا هناك ثيوقجي ملك النوبة وكان يديها كبير الماء عليه لباس مزخرف وعند رأسه

زعيماً يحملان صرائح من دين العام يروحان له وهو جالس على جلد اسد لا يزال رأس الاسد معلقاً فيه وقد عولج حتى يظهر المرأفي كأنه اسد راضي . ولم يكن فوري في لياس الملك لانه جاء متكرراً ولكن وضع على رأسه قبعة بشكل الناج وعلق في صدره ملبياً من التعب المرضع واثنث عشر طرف من الخرز عليه صور ملونة اكثراها صور القديسين وخصوصاً صورة القديس جاورجيوس لابن الظفر . وقد جلس الملك الاربعاء ووضع اليف في سجرة واصلح من شأنه فاكتحل وتطيب وزرع الن تعال من رجله . وكان في اواخر الكهولة وقد شاب شعره مع خفته ولكنه كان محيي الدين مشرقاً الوجه . وقد احاط تصره بمنطقة من الخزف يهدى مثلها في تلك بلاده . فلما رأى سمعان داخل أرحب به وقال « من حجاً بخادمنا الامين سمعان »

فأكب سمعان وهو جاث حتى قبل ركبة الملك فأشار اليه ان يهض ودعاه للجلوس فجلس بين يديه على حصيرة من سعف الغل جبيل وتأدب فقال الملك « من ابن انت قادم؟ »

قال « من المهمة التي اتفقني سيدي الملك بها »

قال « من بلاد البجة؟ - من هو صاحبها الآن وكيف وجدته؟ »

قال « هو ابو حرمدة و ... »

قطع الملك كلامه قائلاً « ابو حرمدة؟ التوبي؟ »

قال « كلاً يا سيدي ان صاحب البجة تسي بهذا الامر تقليداً لذلك القائد العظيم ... »

قال « وكيف وجدت ميائته؟ هل هو معنا؟ »

قال « لم يكن معنا في بادي الرأي ولكنني جعلته بصير ثوياً اكثراً من التوبة ... لان اولئك القوم اذا همهم لهم النهب فاذ علمنا محاربنا المسلمين تغيير له النهب جاء معنا ... »

« هل افصحته؟ الفرض الاصلی من معاونة المسلمين؟ »

قال « ان هو لا لا يتهمون معنى الانفصال الى الروم لانهم لا يدينون بالنصرانية ... وانما قلت لهم اذا قاتل حرب ينتصرا وبين المسلمين كانت هو مجانينا ... ورأيت منه انطاماً »

ففتحوك وقال « ان البجة اصدقه التوبة من مهد اسلامها واذكر اني في هد الي الملك الجليل ارسلت في مهمته كان رفيقي بها رئيس البجة غير هذا فذهبنا الى بغداد كرمي المسلمين الشكوى من سوء معاملة المسلمين في القضاء الجزية والبطق - و كنت غلاماً فلقيت من

خليلهم يومئذ كل رعاية واهداها المدايا والتحف ووهي التصور والبالغ في أكراها وقد شاهدنا  
من خبرات العراق ما لا يشيل له هنا ولا رجعنا اعداني فرساً وسرجاً وبلاهـ وسيناً محلي هنا  
مو وثوابـ ثيناً وعامة من الخز لـ اليها وهي هذه (واشار الى المنطقة حول خصره) غيرـ ما  
اعطى الى سائر حاشيتها من المدايا وام من كل ذلك ان الخليفة نظر الى شركاناً فوجد عاملهـ  
بضرـ يأخذـ منها فوقـ ما يحبـ قاسمـ ان يختلقـ (٤) وبالجملـ فقدـ لقيـناـ من ذلكـ الخليفةـ خلـاـ  
عـظـلـاـ واصـلـ الحالـ في عـهـدـ ثمـ تغيرـتـ الاحـوالـ باـنـقـلـ اـطلـالـةـ الى سـوـاهـ فـعـادـ عـاـمـ مصرـ  
منـاـوـانـاـ وـحـقـ العـذرـ، انـ مـلـكـ الرـومـ خـيرـناـ مـنـ هـوـلـاـ السـلـيـنـ فـانـهمـ عـلـىـ دـينـ غـيرـ دـينـاـ  
وـلـاـ يـنـخـرـونـ وـسـمـاـ فـيـ سـيـلـ قـبـضـ اـموـالـاـ وـاسـتـرـاقـ رـجـالـاـ .ـ وـلـاـ اـظـافـيـ فـيـ حـاجـةـ الـ  
زيـادةـ التـفصـيلـ بـاـ سـمـانـ »

فـاحـنـيـ سـمـانـ رـأـسـهـ مـوـنـاـ عـلـىـ قولـ المـلـكـ ثـمـ قالـ «ـ فـالـيـجـهـ مـعـنـاـ الـآنـ وـقـدـ آـتـيـتـ مـنـ  
رـئـيـسـهـ كـلـ مـيـلـ الـذـاكـ وـهـوـلـاـ يـعـلـمـ أـنـ جـشـتـ لـأـنـجـسـ اـحـوالـهـ وـاـنـ اـخـذـنـيـ مـتـرـجـمـاـ لـهـ وـقـدـ  
اـخـتـلـتـ فـرـصـةـ سـخـتـ وـالـتـسـتـ مـنـهـ السـفـرـ الـإـلـىـ دـلـقـلـةـ وـاـعـلـمـ اـنـ مـوـلـاـيـ المـلـكـ هـنـاـ»  
فـقـالـ المـلـكـ «ـ نـعـمـ لـأـنـيـ اـيـتـ مـتـنـكـرـاـ لـشـافـيـ اـسـقـ اـسـوـانـ فـقـدـ كـانـ وـسـيـلـهـ يـاتـيـناـ  
وـبـيـنـ مـلـكـ الرـومـ فـيـ الـخـارـجـ كـاـتـلـمـ وـقـدـ جـاءـ فـيـ مـاـءـ الـامـسـ وـتـدـاـولـاـ مـلـيـاـ فـرـأـيـتـ مـنـهـ سـعـيـاـ  
جـيدـاـ .ـ بـقـيـ اـنـ الـبـطـرـيرـكـ عـنـائـيلـ فـيـ مـصـرـ»ـ قـالـ ذـاكـ وـتـهـدـ  
فـقـالـ سـمـانـ «ـ اـمـ عـنـارـوـهـ بـعـدـ؟ـ»  
فـقـالـ «ـ قـدـ خـلـرـنـاهـ مـرـارـاـ وـلـمـ يـأـتـنـاـ مـنـهـ»ـ جـوابـ لـتـعـلـمـ هـلـ هـوـ مـنـاـ اـمـ لاـ .ـ .ـ .ـ

فـقطـعـ المـلـكـ كـلامـهـ وـقـالـ «ـ لـاـ تـقـلـ طـبـيـاـ .ـ لـوـ كـانـ مـعـنـاـ لـاجـابـنـاـ عـلـىـ كـبـيـتـاـ إـلـيـهـ .ـ .ـ .ـ»  
فـقـالـ «ـ رـجـاـ ضـاعـتـ الـكـتـبـ فـيـ ذـهـابـهـ اـلـيـهـ اـرـشـاعـ الـجـلـوبـ فـيـ جـيـهـ إـلـيـهـ .ـ .ـ .ـ»  
فـاطـرـقـ المـلـكـ جـيـنـاـ وـهـوـ يـحـكـ عـشـونـهـ الشـائـبـ بـيـاـبـدـوـ ثـمـ رـلـعـ بـهـرـهـ اـلـيـهـ وـقـالـ «ـ مـدـاتـ  
اـنـ الـكـثـبـ قـدـ تـفـيـعـ فـيـ الطـرـيقـ فـهـلـ تـكـونـ وـسـوـلـيـ اـلـيـ الـبـطـرـيرـكـ عـنـائـيلـ بـلـهـ الـأـمـرـ شـفـاهـاـ  
وـقـاتـيـنـيـ بـالـجـلـوبـ الـهـنـيـ وـلـكـ اـنـ تـسـتـخـدـمـ مـهـارـنـكـ فـيـ اـنـيـاعـهـ .ـ هـلـ تـعـلـمـ؟ـ»ـ

فـاحـنـيـ سـمـانـ رـأـسـهـ مـلـيـمـاـ وـقـالـ «ـ اـقـلـ ذـاكـ يـاـسـيـديـ»ـ

فـقـالـ «ـ اـتـلـمـ مـقـرـ الـبـطـرـيرـكـ عـنـائـيلـ؟ـ»ـ

فـقـالـ «ـ اـنـكـ الـآنـ فـيـ دـيرـ اـيـ مـقـارـ فـيـ بـادـيـةـ النـطـرـونـ»ـ

قال «هل تعرف الدبیر وهل انت واثق من وجود البطريرك هناك»  
 قال «اعرف الدبیر . . . اذا لم يكن البطريرك فيه اذهب اليه حيثما يكون . . . كي  
 معاشرتني؟ وانما وازرها بالدعاء»  
 فابتسم وقال «الله عز وجل صادق ومتکانك احسن مكانة . . . اذا ظفرنا بما نومناه  
 كان لك بجزء حسن»

فوقف سمعان وانهى اخذه الشكر وقال «اني لا اتعس على خدمتي اجرًا وانما الفعل  
 ذلك حبًا بولاي الملك وتأييدًا للدين»  
 قال «اي متى تسافر؟»

قال «متى امر الملك . . . ولكنني ارفع الى مقامه ان معي فتاة من قبط مصر وفدت  
 سبية عند البعثة وعددي ان اعيدها الى اهلها فاحب ان اصطحبها ويكون مغرتا في فاتحة  
 بالبر الغربي اذ يكون مارينا نوًى الى وادي النطرون»

قال «اصطحب من شئت ومهما استحبت اليه في سبيل ذلك خذه ومن امر صاحب  
 بيت ما شئت ان يدفع اليك مائريده من المال او الركائب»

قال «لا حاجة يامولي الى الركائب فان العاريق الذي ذكرته لا يخلو من فواضل  
 البخار مارة باجمال الريش والصين والماج الى مصر فنراونق واحدة منها بغيرة ان يعرف القوم  
 غرضنا واجعل نفسك خادم الفتنة التي ذكرتها»

قال «احسنت . . . ومن في هذه الفتنة؟»

قال «ذكرت لولاي انها سبية غنمها البعثة من حلوان بجوار النيل اطلق واتوا بها الى  
 اميرهم فارادها لنفسه فابتسموا بالكتوي حق فضلت الموت على عباراته» وقص عليه  
 حديتها الى آخره

فانجب الملك بما سمعه من تمسكها بالنصرانية واثق على عنفتها ونقاوها وقال له «هل  
 هي معك هنا؟»

قال «نعم هي في الطيبة الأخرى . . .

فصفق الملك فدخل غلامه فاصره ان يستحضر الفتاة القبطية وقال لسمعان  
 ساجعل سفك الى مصر في خدمتها اكراما لها . ثم عاد الغلام وقال «ان الفتاة بالباب  
 فنهض سمعان فاستقبلها تشجعها في ملاقاة الملك فدخلت وهي مطرفة فابتدرها الملك  
 قائلاً «مرحب بالفتاة الطاهرة النقية . . . لقد سمعنا بصدق تدبك وعنة تمسك فاجبها

ان نراك ونمنشك حنظلك السيد المسيح وجعلك من خفاريه «  
 فلما طافت وأمها حياءً واحتراماً فقال لها « قد أوصيت عباداً سمعان ان يذهب  
 معك حتى يوصلك الى مأمالك » قال ذلك باللغة القبطية لانه كان يعرفها  
 فاستأنست ديانة وفرح قلبها لاعظام ملك التوبية باسمها وشكرت نزاره وخرجت  
 ومعها سمعان الى مبيتها بالامس فاستقرها هناك حتى اتيت لها تهدية النيل الى البر الآخر  
 فنزلت ديرًا هناك اقاما فيه اياماً ينتظران مرور فاتحة ذاهبة الى مصر يصلحجانها . وكانت  
 سمعان في اثناء ذلك يشتغل باعداد ما يلزم الطريق وصرف الخادم الذي جاء معه من عند  
 الجهة واوصاء اشياء يقولها لابي حرمطة وامر خادماً آخر من اهل بلده اعد لها جليلين خنيفين  
 احدهما لا والآخر لدميالة وكانت قد تعودت ركوب الجمال

## الفصل الخامس والستون

### الى الفساطط

وخفف ملك التوبية تاجر المهمة التي كلف سمعان بها فاعده فاقلة خصوصية سير فيها  
 جماعة من رجاله يحملون بعض اصناف التجارة الى الفساطط وامر ان يسيراوا في طريق  
 البداية على البر الترابي للنيل حتى يأتوا الجبنة ثم جاء الفساطط ومنها يعبرون النيل الى الفساطط  
 يبيعون تلك البضاعة في اسواقها ويوصل ديانة الى حيث ترید ثم يبحث عن مكان البطريرك  
 مخائيل ويزودي اليه مهمته . فلما اخذت الناقلة سار سمعان وماريا معها وكل منها على جمله بما  
 يلزم من اسباب الراحة . وفي هذا الطريق محطات توقف القافلة عندها الطعام او الراحة او  
 الماء ولم تعرف ديانة احداً من ذلك الركب الا سمعان . وكانت تزداد استئناساً به كل يوم  
 عاقيله وهو لا يفتر عن القيام بما يلزم لراحتها وموانتها بالاحاديث المختلفة وهي تقص  
 عليه ما تعرفه اوما مرّ بها وتطرق طبعاً الى سرد حكايتها وسبب خروجها من بيت ابيها  
 وبالغت في الناء على زكر ياماً اذخره من الغيرة عاليها حتى تناهى في مصلحتها وكيف انه  
 تركها المرة الاخيرة في حلوان فسباعاً الجهة ولم تعد زراء ولا تعلم اين هو  
 فلما سمع حدثها منه امرها فقال « والى اين تریدين العذاب الآن؟ »  
 قالت « لا ادري ولكننا اذا اقربنا من الفساطط نسأل عن سعيد المندس في القطاع

بين رجال ابن طولون فإذا عثرنا عليه عثينا منه ما يقى

قال «إذا لم تفف عليه»

قالت «تبعد عن زكريا» ونذكرت مصايبها بعد ان شغلت عنها بالطوارىء الفي  
دائمها فاقبضت نفسها وتهدت

وكان الجلأن سائرين متزايدين وراء التافلة على الرمال لا يسمع خذانعها وقع . وادا  
الفت الراكب الى يساره لا يرى الا رمالاً وصحراءً واما الى اليمين فيقع البصر حينما يمد  
عين على المزارع عند شفة النيل وقد يرى الليل جارياً والعارضة على ضفته اكثيرها قرى  
صغيرة الا بعض المدن اهمها اسيوط والفيوم وغيرها

ولا يصل بخيالها الى ما تقدم كانا قد اقتربا من الجينة ولقيا في طريقها المرم  
المدرج . واشرقا على اهوار الجينة وقع نظرها في اليمين وراء النيل على ضفة اليمين على  
حلوان وذخيرها المقطم وعليه ثبة المواه وتحتها قطائع ابن طولون فاذكرها ذلك يوم الاختفال  
الذي اخذ فيه سعيد فهاجت اشجارها وظلت عليها الكوت وبان الاقتراض في وجهها  
وقلا لا الدمع في عينيها ولاحظ سمعان ذلك منها فشاركتها في احساسها واخذ في التغيب  
عنها وكان قد عرف انها بنت وجهه فني واعيته انتهت وعزة نفسها فقال لها «لا باس  
عليك يا سيدتي اشكري السيد المسيح على نجاتك من الاسر والمار»

فقالت «اشكره كثيراً . وهو الذي سخر لاقاذه وهذا من نعمه الكبيرة .. غير انني  
ما اذكر شفائي وتعافي وكيف اني طربدة لا اخ لي ولا اخت ولا ام وقد عادت الي  
واضطربت في اقرب الناس الي .. ما اذكر ذلك تفاصي .. ولكن .. (وتهدت)  
ولكن .. آه .. » وسكتت وظلت في وجهها ملاحة المجل وبال AIS ما لامها اذ ذكرت  
سعيداً او ارادت ان تذكره وترجو لقاءه فقلب عليها الحياة ولاحظ سمعان ذلك فيها فاحبب  
ان يختلف عنها وقد تذكر مصايبه وكان قد تأساها مع الزمان فقال «ان الانسان يا سيدتي  
عرضة للصاباب والمجيبي الحقيقي يتشبه بالسيد المسيح الذين نالم وصلب من اجلنا واحتدم  
كل ذلك بالصبر فينبغي لنا ان نغير»

فلا سمعت احتجاجه بالدين افتشت واحست براحة ولكنها ازالت محبوسة العرواض  
ونود ان نقول شيئاً عن سعيد والحياة ينبعها  
فقال سمعان «ولا يحيى علي انك تُخبرين امراً يعلمك الحياة من التصرع به .. ان  
سعيداً هو مرجع امالك وادا لقيته نسبت كل شفاء اليك كذلك ..»

فاجابت وقد غلت على امرها «نعم صدقت» هل الاقيه؟ اين هو ياترى .. أني  
السجين ام طلاق سراحه؟ ام اصيـب بشيء آخر؟ .. سعيد سعيد .. حبيـي سعيد» واطلقت  
نفسها عنـان البكاء. ثمـافـعـمان ان يسمع احدـمن الركب صوتها فأخذـيـباـطاـ في سيره  
وهي تـجـارـبهـ حقـيـتهاـ القـافـةـ مـاسـافـةـ بـيـدةـ وـصـارـتـ دـلـيـلـةـ منـقـبةـ منـهـرـةـ وـكـانـاـ نـدـ  
اـشـرـفـاـ عـلـيـهاـ وـعـلـىـ اـلـمـوـلـ عنـ بـدـ وـاسـبـشـراـ بـقـرـبـ الـمـوـلـ  
اماـدـيـاـنـقـرـفـتـ الـكـكـنـةـ يـنـهـاـوـ بـيـنـ سـعـمـانـ وـلـخـذـنـهـ عـوـنـاـ لـماـ كـانـتـ تـعـاـمـلـ زـكـرـيـاـزـادـهـاـ  
تـعـلـقـاـبـهـ مـشـاهـيـهـ مـلـاحـمـهـ وـاخـلـاقـهـ فـقـالـ «هلـ نـظـيـقـ اـنـيـ هـذـهـ المـاـعـبـ يـاـ سـعـمـانـ؟ـ؟ـ»ـ  
قـالـ «اـرـجـوـ ذـالـكـ مـنـ اللهـ .. وـاـعـلـيـ اـنـيـ غـيـرـ قـارـكـ حقـيـ اـبـلـكـ مـأـمـنـكـ وـيـطـمـنـ بـالـيـ  
عـلـيـكـ ..»ـ قـالـ ذـالـكـ وـتـهـدـ وـقـدـ تـغـيـرـتـ سـجـنـهـ وـسـكـتـ فـاحـظـتـ فـيـ ذـالـكـ فـسـأـلـهـ عـاـ طـراـ  
عـلـيـهـ فـقـالـ «اـنـيـ لـاـ اـمـرـ مـنـ هـذـاـ الطـرـيقـ وـاـنـظـرـ اـلـىـ النـسـطـاطـ الـاـ وـتـقـبـضـ تـسـيـ وـتـرـبـعـ  
اـشـجـانـ ..»ـ حـادـثـ اـنـذـكـرـهـ مـعـ رـغـبـيـ فـيـ نـيـانـهـ .. فـلـاـ تـهـنـيـ بـهـذـاـ الـامـرـ .. عـودـيـ الـىـ  
حـدـيـثـاـ عـنـ سـعـيدـ الـمـهـدـيـ «قـالـ ذـالـكـ وـعـوـيـاـزـهـاـ لـاـذـعـابـ مـاـخـلـرـهـاـ مـنـ الـاـقـبـاـشـ  
فـضـحـكـ وـلـكـنـهاـ زـادـتـ مـيـلاـاـ مـلـىـ مـعـرـفـةـ حـدـيـثـهـ وـحـسـبـ اـلـاحـاجـهـ عـلـيـهـ يـكـشـفـهـ يـعـدـ  
مـنـ قـيـلـ الرـغـبـهـ فـيـ التـقـيـيفـ عـنـهـ فـقـالـ «لـقـدـ شـفـتـ خـاطـرـيـ يـاـ ظـهـرـ عـلـيـكـ مـنـ الـاـتـبـاـشـ  
فـلـلـكـ حـدـيـثـاـ غـرـيـاـ»ـ

قـالـ «حـدـيـثـيـ غـرـبـ وـلـكـنـهـ قـدـيـ وـقـدـ كـدـتـ اـنـاءـ»ـ  
قـالـ «أـلـاـ تـقـصـهـ عـلـيـ»ـ تـقـطـعـ بـهـ بـعـضـ الـطـرـيقـ؟ـ»ـ

## الفصل الثاني والستون

### المجموع

قـالـ «اـنـهـ عـلـيـكـ اـذـاـ كـانـ فـيـ قـصـهـ مـاـيـسـلـيـكـ وـخـلـامـتـهـ اـنـيـ ثـأـتـ فـيـ مـغـرـيـ معـ اـخـ  
لـيـ اـسـفـرـيـ فـيـ بـلـاطـ مـلـكـ التـوـبـةـ جـدـ هـذـاـ الـذـيـ رـأـيـتـ يـاـ اـلـاسـ وـكـانـ فـيـ رـغـدـ وـرـاحـةـ لـاـمـ  
لـاـ غـيـرـ الـاـكـلـ وـالـشـرـبـ وـالـأـعـبـ وـقـدـ جـلـنـاـ مـنـ خـاصـيـاتـ خـصـيـانـهـ .. وـاـنـفـقـ وـغـنـ غـلـامـانـ اـنـ خـلـيـفـةـ  
الـسـلـدـنـ الـذـيـ يـسـمـونـهـ سـعـيدـ اللهـ اـنـمـونـ اـنـ اـلـىـ هـذـهـ الـبـلـادـ لـاـمـ اـنـفـقـ ذـالـكـ وـبـوـدـلتـ  
الـمـكـابـيـةـ يـهـ وـبـيـنـ مـلـكـنـاـ وـكـانـ مـلـكـنـاـ يـشـكـوـنـ مـنـ سـوـهـ مـعـاـمـلـةـ صـاحـبـ مـصـرـ فـيـ تـحـصـيلـ

الخارج فلختهم بجيء اخليفة وترتب اليه بالمدايا من العاج والريش والرقيق وارسلني انا  
واني في جملة المدينة ثمبيء، بما الى هذه المدينة (القسطاط) فقبل المأمورات المدينة وفرق  
بعضها في رجاله واطلق بعض الارقاء وانا في جلتهم وكانت احبه يطلق اخي معي او  
يأخذنا جيئاً لاني كنت شديد التعليق ياخني لكنه لم يدخل فيكبت كثيراً وبعد قليل علت  
بسفر المأمور الى الاريات وانه اخذني معه ثم علت انه سافر الى بنداد شرق علي ذلك  
ورجعت الى الملك وافت في خدمته ولا ازال .. وما زلت منه اتيت القسطاط لا اسمع  
اعيها الا اتيتني فكيف اذا رأيتها .. »

قالت « يهك لك الاسف يا عمه على شياع اخيك .. » ثم انتهت لامر خطر لها  
قالت « وما هو اسم اخيك؟ » قال « اسمه ابراهيم .. »  
وهمت ان تُسْرِّيَهُ ايضاحاً فاذَا هو بنظر غلو الاهرام نظر للغرس وقد تغيرت صحته  
فالنفت فرأى الفاقلة قد تبصّرت واحتاط بها شردة من الترسان علت من البستهم لهم  
من الجند فقالت « وللاه ان الجن سطوا على الفاقلة »

قال سمعان « قبهم الله قد سطوا عليها وسلموها .. ان الجن وضع حياة السائلة  
وليس لقطعها : الى ارام يسوقون الرجال والاحمال جميعاً .. الافضل لنا ان نتعجب الى  
مكان مختفي فيه ثلاثة يصعبك سوء ولو كنت وحدك ما رأيت التحالف عن الرفاق ولكنني  
اعل ذلك رغبة في ميائتك »

قال ذلك وتحول وهي تنبه الى اقتراض بناء قديم من بقايا الفراعنة وهي كثيرة هناك  
فتركلا وأدخلوا الجنين الى غبار وجلسا على بعض الاجمار ودميانته ترتعد من المؤقوف سمعان  
يختلف عنها ويتجهها الى ان قال « لا تخافي ان الجن لا يأتون هذا المكان وهم لم يروا ولا  
اظنهم يريدون التبعض على اي كان .. وبعد قليل تزرب الشمس وبينم الظلام فخرج  
خلسة فتر من وراء الاهرام حتى تنزل الجينة فثبتت في خالت هناك وتصبح في اللذ  
النقطاط »

قالت « اخاف ان يلقينا احد من هؤلاء »

قال « لا تخافي .. قبل ذهابنا نجحنا الطريق ونشوف فاذا رأينا احداً اختبأنا »  
قعدا في تلك الظربة وفيها الاصاطين والثائق ممهلة مبعثرة وكان الجنين هالما المنظر  
فتحيرا ماذا في الجمير سمعان يسكنها ثلاثة يتم جمعها على المكان .. فوضع لها العلب  
يشتملها به ولم يمض يسرا حتى مالت الشمس نحو الافق فاختفت الاظلال تسلطيل حق

اذا توارت الشمس اختلطت الاختلال وصارت ظلاماً فامثلت الوحشة على تلك الظرائب  
 فلنجأ ديمانة الى الصلاة تستجير بالماضي ورمي المذراه واخذ سمعان يتم بالانقال من  
 ذلك المكان لوحشته وانفراوه وهو لا يخلو من الحشرات السامة فضلاً عما يعتقدونه من  
 وجود الجن او المغارب فيه ولو لا الايان والصلاه لما اطافوا المكرث هناك لحظه فضلاً عما  
 قاموا من العطش فان قرب الماء كانت بحيرة مع النافقة واخذت منها  
 فلما تكامل الظلام قال سمعان «يا نركب في غور الاهرام اني لا ارى شجر ولا اسمع  
 صوتاً ولا روب ان القوم رجعوا الى الفسطاط»  
 فنهضت ديمانة فاركها جملها وركب جمله وربط زمام جملها برجل جمله بحيث تقع  
 في اثره

سارا على تلك الصورة مدة لا يتكلان وقد تهيبا لـ سكرت النام المشول على تلك الاماكن  
 وما يجاورها من المغارس فاذا التقى الناظر الى إسراه رأى الانق تفترضه التلال الرملية  
 والصخرية أو الى يمينه فيرى البستانين الى النيل ووراءه المقطم وفي منعجه القطائع والفسطاط  
 وعلى شفتي البيل شجر التخييل ينامح السحاب . ولم تكن تلك الصور واضحة لغاب الظلام  
 فكانت الناظر اذا ارسل بصره الى الاغراس والأشجار والشازل لم يرَ واضحاً منها  
 الا اعمالها

### ـ ـ ـ

## الفصل الثالث والستون

### شبح غريب

وكان سمعان وهو على جمله يتطاول بعنقه ويشخص يعمره ويتuros في ما بين يديه  
 عفانة ان يكون هناك متريص من الاصوص او الجند فكان يرى ابا المول والمربيين الكبيرين  
 تقترب اليه وتتجلي صورها بالدرج و هو يصيح بصعده فلا يسمع الا صوت وتم خفاف الجل  
 على الاماكن و صوت شخيره او نفسه . حتى اذا اقتربا من ابا المول امسك سمعان بزمام  
 جمله حتى يسير المويينا . ولم يكدر يتجاوز ابا المول ويشرف على المرم الكبير حتى رأى شبعا  
 يسلق المرم تسلق المتصعن الاختالف وظهر له من قيادته انه من العامة ولم يرو وجهه ليتبين  
 سمعته . فلما رأاه يتلمس عن اوقف جمله فرأى الرجل توقف هنيبة ثم عاد الى المسعود فرأى كد

سمعان انه لا يخشى منه . فساق الجل نحو الممر المذكور حتى استقبل الماجد الذي رأى الرجل يسلكه فرأه قد عقول نحورها ونزل الى اسفل الممر ووقف . فخطر لسمعان ان يسأله عن للاء ليطرق من ذلك الى التهم عن احوال اخري فقال له باللغة القبطية « من الرجل ؟ »  
فأجاب « من اهل القرى وبن انت ؟ »

قال سمعان « فرباه نطلب ما هل تعرف مكاناً فيه ما، بهذا الجوار ؟ »  
فتقدم ذلك الشبح وهو يقول « ان في هذا الجوار بيتاً فيها ما، كثير تماليقاً فادلها علىها »  
وكانت ديميانة معمقة وهي تختلف ان يكون الرجل من طلائع الجند فلا سممت صوته  
خفق قلبه واجتلت لانه يشبه صوت زكرياء . فلما رأته مشياً وتبعد سمعان صبرت لسمع  
كلامه ثانية . فعاد سمعان الى سواه عن اقرب الطرق الى الفسطاط فقال « تحدوون من  
هذه الاكمة بين هذه المقارس الى اللقنة قبوران هناك جسرًا من السن المخاذية لقططان  
عليه الى بجزرة الروفة ومنها على جسر آخر الى الفسطاط »

وكانت ديميانة تسمع كلام الرجل وقليلها يزداد خفقة اذ لاحص صوت زكرياء يمينه وتفرست  
في مشيته عن بعد فتحققت انه هو فلم تتم اعلم ماذا تقول من الدهشة والفرح فتمددت وقالت  
« هل تريد ان ترافقنا في هذا الطريق يا عاصم ؟ » فاتت ذلك بصوت مختلف من شدة النأثر  
تشجع سمعان من تصديها ومن اختناق صوتها اما الرجل فلما سمع الصوت وقف  
والتفت الى ديميانة والظلام يمول ينبعها وكانت هي قد استعدت التبرس فيه فلم يبق عندها  
ربيب من أمره . واما هو فاختناق الصوت شوش عليه حركة لكنه اشتبه فقال « اني في  
خدمتكم الى حيث تشارون فلنذهب توا الاآن » واضغط ليسمع الجواب  
فقالت « نشرب او لا ثم نسير الى دير الملة »

فلما سمع فوطا دير الملة اشعر بدنه وترابجم حتى امسك بزمام الجل وسمعان يستقرئ  
ربوجوه . اما هو فاسك الزمام وقال « من النسر .. مولاتي .. ديميانة .. ديميانة ؟ »  
فاصاحت في « زكرياء .. عاص .. عاص .. زكرياء .. » وكادت اليه تهلكها ان تقع عن الجل فلا سممتها  
سمعان تذكر زكرياء بهذه اللغة ادرك انه خادمه الذي كانت تخدشه عنه تحقول عن الجمل  
وانداخ جلها وساعدها على النزول فاكب زكرياء على يدها يقبلاً وكاد لولا الحياة ان يضحيها  
الله فقد كان يتلف لرؤيتها ويعم ذلك فانه حسب نفسه في حلم اذ لم يخطر له وهو يمسحها  
اسيرة في ارض الجنة انت يلاقيها في تلك الساعة المترجمة بجوار الاهرام . فاعاد السؤال  
والاستئهام وفي ايفاً فقال « ميدتي ديميانة .. انت هنا اشكر السبع على سلامتك كيف

جئت؟ من اتقذك؟ ..

قالت « لا تقل سيدتي فاذاك عمي وهذا عالم آخر اتقذني من بلاد البعثة ونكافل المشقة في ايصالى الى هذا المكان »

فصاحه ذكر يا وسلم عليه واثنى على فضله لكنه لم يتبينه لشدة الظلام ولم يكن معهان اقل دعشه هذه الصدقة فقال « الحمد لله قد اتفقت مهني على اهون سبيل فاعثركما بهذا اللقاء »

قال ذكر يا « امكنا عند قاعدة المرم واما آتيكما بالماء نشر بان ثم تسير الى الفسطاط مما » قال ذلك ويفى ثم عاد اليهما بالماء فشربا ودميانة تود ان تعرف ما تم اسید والمياه يعنها عن السؤال فقالت « اين كان غيابك كل هذه المدة — وكيف حالك »

فادرك غرضاها فقال « ان حدبي طوبى ساقمه عليك اما حالى فإنه على غاية ما هرموا والحمد لله وسيدي سعيد ينتظر عبيتك وهو على مثل اجله واهنك بما ناله من الحظوى في عيني صاحب مصر فهو صاحب الكلمة الشافية والثبات الربيع .. .

وكان ذكر يا يتكلهم وقلب دميانته برقص فرحاً ولا فرغ من كلامه بسطت يدها نحو السماء وقالت « اتدرك الله لا لك حرسته وحذفته وقد حق علي وفاة النذور »

قال سمعان « لا اقدر اصف لكما مقدار صروري بهذا اللقاء فان ظلي يكاد يطير فرحاً فاعثركما بذلك واستأذنكما في المسير بطربيقي »

فاعترضت دميانته قائلة « كلا ياعاه اي لا استمع بذها بك على هذه الصورة .. . ينفي لي ان اكاذبك على تعبك الجزيل .. . »

قال « لا استحق المكافأة على شيء ياسيدتي وانا ذاهب الان في مهمة لا بد لي من فضائها وساعدك بدعها اليك »

قال ذكر يا « ان مهمتك ياخي لم تفرغ بعد وما انا مطلق السراح لا تكون في خدمتها »

قالت دميانته « وكيف ذلك؟ »

قال « افي محبين ياسيدتي »

قالت « محبين! اني اراك حرباً مطلقاً .. . »

قال « ولكن اتيت من السجن ولا بد لي من الرجوع اليه »

قالت « ترجع اليه من ثقافه نفسك؟ تكون حرباً وتقييد نفسك؟ »

قال « خرجت من السجن بضمانته رجل على ان اتي هذا المرم آخذ منه شيئاً اودعته

فيه واعود الى السجن ولا بد لي من التباهي بالوعد

قالت « حدقت ان وعد المحردين .. ولكن كيف جئت وماذا لم افهم ما تقول »

قال « حدبي طوبيل ساقمه عليك في اثناء الطريق واستأذنناك الان في المصعد الى

باب هذا المرم ثم اعود »

فاذدنا له فبعد ثم عاد وقال « هنا بنا الى اسفل هذه الاكلة ان حمارا لي ربته هناك

فاركبه ونميرها »

فنزلوا حتى درك حماره ومشى بين الجبلين واخذني يقعن مابرى له بعد فراق ديميانة

في حلوان وكيف ذهب الى بيت ابيها اشد منه الاسطوانة حتى ذهب الى دير ابي مقار

ومقابلة البطريريك خائيل وكتابه الى ملك النوبة وكيف انه وضعه في الكيس مع الاسطوانة

وكيف خانه ذلك اليهودي واتى بالجند قبضوا عليه غافلا الكيس بباب المرم وحصل الى

السجن . وبعد قيامه في السجن حينما توصل الى خاتمة سعيد وآخرين عن الكيس وانه يريد

ان يأتي به فتوسط له عدد السجان بالغروج على ان يعود الى السجن في تلك الليلة — الى

ان قال « فابت خلسة لاستخراج الكيس من باب المرم فرأبتكا وخفت ان تكوننا عينا على

وغيري ماتمدهنه . ثم ذهب الى باب المرم وابت بالكيس وهو معلق بمني تحت الثوابي ...

وانت كيف خلصت من الاسر ؟ »

لتفصل عليه حديثها الى آخره واطبعت بمحارم اخلق المم مهدا . وكانت هذه

لما سمع حديث زكي يا وما يقلله من كلام البطريريك خائيل عن عفافته ملك النوبة في اخراج

مصر من حكم المسلمين الى حكم الروم قد قررت هاته عن الشعاب عليه ولكنه اراد زيادة

الاستهتمام فقال « بالحقيقة انك قاتلت كثيرا في ذهابك الى دير ابي مقار . هل

البطريريك هناك الى الان ؟ »

قال « صحت انه قادم الى القسطنطينية مقابلة صاحب مصر ابن طولون »

قال « وابن كعباته الى ملك النوبة .. ألا يزال ملك ؟ »

قال « هو في هذه الحقيقة (الكيس) مع الاسطوانة »

قالت « ديميانة اراك كثير العناية بهذه الاسطوانة حتى عرضت نفسك للخطر من

اجليا .. فما الثالثة منها ؟ »

قال « ستعلين ذلك بعد حين »

وكانوا يقدثن والرکاب ماشية حتى وصلوا الى جسر الجوزة نددوا عليه الى الروضة

ومنها الى شاجية الفسطاط عند بابون قرب دير العانة . هنا صار واحدك فار زكرييا « لا بد لي من الدعاب الى السجن الا ان فارن تمسك ان ريتا زري ميكيو . »

قالت دميانة « اذا افضل التزول في هذا الدبر »

قطعلم كلامها فاتلا « لا يوافق ذلك لان اهله يغرونك فاخاف ان يتلوا خبرك الى الاستف المعبود او والدك او الى اسطفانوس فيسعون في غربنا والفضل ان تسألني في كنيسة بابلون بهذه الحلة باعتبار انك من بعض اهل القرى وعمك خادمك هذا ريتا آتيك »  
فاستحسن رايه فمضى بها الى دير بابلون وادخلها فيه وامض الى السجن

## الفصل الرابع والستون

سعيد

وكان زكرييا قد خرج من ذلك السجن خلسة بآيماز سعيد الى السجن والسبب في هذا التوسط ان زكرييا صي نافبي يوم سجنه في الوصول الى سعيد وقد علم انه صار من اهل الفوز بعد ان اخذ في بناء الجامع ما فقد سببه اليه فبعث يس عليه عن امره فتواعدوا على المقابلة بجانب السجن والسجن لا يرى يأساً في ذلك اكراماً لسعيد . فاخالمه على ما جرى له وانه بعد ان اتي بكتاب التوصية الى ملك التوبه خيراً الكتاب والاسطوانة في مدخل الهرم الكبير .  
وقص عليه اهمية الاسطوانة بانتظار الى مصلحة دميانة . فأخذ سعيد يبحث مع زكرييا عن السبيل المؤدي الى القاذ دميانة من البوة اما رأساً وهو امر شاق لا وجه له واما على يد ملك التوبه واتفقا آخرًا على ان يذهب زكرييا لاستجلاب الاسطوانة وتوصية ملك التوبه بحملها عند سعيد ريتا يس في الافراج عنه فينفذ في هذه الهمة الى ملك التوبه .  
فاستثنى السجن في خروجه في اصل ذلك اليوم على ان يعود نحو العشاء . وتوعدا ان يأتى زكرييا اولاً الى منزل سعيد في قصر له باطراف القطاع فيضع تلك الامانة عنده ثم يذهب الى السجن

فلا راجع بعد مفارقة دميانة وسعیدان في ذلك الليل سار يلتمس منزل سعيد اولاً كما تواعدا فوصله فوجد الباب مفتوحاً فدخله على غير ريبة ولم يعترضه احد حتى اتى الغرفة التي يقيم فيها سعيد وكان مشتفلاً ببعض الرسم يهدّها الهندسة الجامع وقد استبطأ زكرييا « الم يهود بوصوله خف لاستقباله وسألته عن سبب غيابه فلم يدر زكرييا كيف يeda الحدث امرط

ملته وكلن السرور باديا في حر كاته وسكناته وقد ذهبت السويداء التي كانت قد تغلبت عليه . فلم يعه سعيد ان قدم فايدره فاتلا « لقد ابطة عن الموعد وأنت نعلم انني متحملا السجن رجوبك عند العنا . وغبن الان في منتصف الاليل ولا يخفى عليك ان الكوكولا والظفرن محبيطة بنا من كل فاجية ٠٠٠ »

وكان زكري يا يسمع قوله ويضحك كانه لا يالي يا يحدق به من انظر فاستغرب سعيد اختفائه بالامر فقال « ما بالك تستخف يا اقول الفل تلك الاسطوانة اسكتنك من الفرح ٠٠٠ »

قال « كلام ليس الاسطوانة بل ديميانة ٠٠٠ »

فأقبل وصاح فيه « ديميانة ١ ديميانة ٠٠٠ ماذانقي ٠٠٠ ما بالما ٠٠٠ اين في ؟ »

قال « ديميانة ٠ هنا »

فلم ينالك ان وقف ثانية وصرخ « ديميانة هنا ٠ اين في ٠٠٠ اين في ٠٠٠ » وهم بالطبع من القرفة وهو يحسب ديميانة في الدار فاستوقفه زكري يا وقال « طول بالك ٠٠٠ ليست في هذا المنزل وانما في في هذا البلد ٠٠٠ هي قرية جداً من هذا المكان دعانا منها الآن » فنظر اليه وهو يتعرس في ملائمه وقد حسيء يازح وقال « قل الصحيح يازكي يا اين ديميانة ٠٠٠ ٠٠٠ »

قال « قلت لك انها قرية من هذا المكان ولكن لا سبيل اليها الان وستأتي عند الاقضاء وفي الوقت المناسب »

قال « الان ٠٠٠ اين في ؟ »

فنظر فيه نظر الجد وقال « تربص يا سيدى حق تخلص من السجن وعند ذلك اجمعك بديميانة وهذه هي الاسطوانة » واستخرج الجراب او الكيس من تحت ابطه واستخرج منه الاسطوانة والكتاب وقال « هذه الاسطوانة التي اخبرتك عنها وهذا هو كتاب البطريريك عنايائل الى ملك التوبه احتفظ بهما هنذك حين الحاجة »

فتتناول سعيد الاسطوانة واخذ يقللها يمسده وهي مفتوحة وتتناول الكتاب . وبينما هو يقلله يسمع ديدنة في صحن منزله وقد علا صباح الخدم يستغيثون فخرج ليرى السبب فرأى شرذمة من الجن دخلوا المنزل وفي مقدمة هم رجل يقول « هنا هو الصن اقبقو علىه » وأشار الى زكري يا واكب على الاسطوانة واراد احتفاظها من يد سعيد وهو يتاول « وهذه هي الاوراق السروقة » فتبين سعيد على الاسطوانة وجذبها نحوه وعرف ان الرجل الذي

يكلمه اسطفانوس فاتته ره قاتلاً «اذهب في سيرك يا غلام ولا تطمع نفسك بشيء» من ذلك «فصاح احد الاجداد قاتلاً قد اتيتنا بأمر الوالي لا يخش على هذا السجين الماشرب وما معه وهذه الاسطوانة وهذا الكتاب كانا معه فينبغي ان تأخذها وتأخذه الى السجن وفي صباح اللد ينظر الوالي في امره»

فقال سعيد «خذوا الرجل الى سجنه واما هذه الاشياء فانها محفوظة عندي لحين الحاجة اقدمها بين يدي الوالي او القاضي» .

فصاح اسطفانوس «بل تأخذها الان وان ایت ان تعطيها اياماً فن هذا الجند يأخذك انت ايضاً الى السجن لانك واطأت السارق على الخروج من السجن وساعدته على اخفاء السرقة » .

و قبل ان يتم كلامه رفع سعيد يربجه فالقاء في الخارج وصاح برجال قصره ان يخرجوه من المنزل والتفت الى عريف الجندي وقال له «لایزرنك كلام هذا الغلام الجاحد بل اضع الي ما اقوله لك» . كدت عازماً ان اسلك السجين تأخذونه الى سجنه وقد رأيت الان ان احتفظ به هنا عندي الى حين الطلب فن كان له عليه طلب يطلبه مني «فلا يسمع العريف الكلام الجد من سعيد تهيب وخرج ومعه اسطفانوس يصيح ويهدد وبتوعد ولما صار خارج البيت قال للعريف «اشهدوا انت اللص والسرقة عدد صاحب هذا القصر» .

وكان مرقس قد كشف اسطفانوس بسرقة الاسطوانة واقيمه «انها اذا وقفت بيد ديميانة قفت على ثروته وستقبله ووعده خيراً اذا اقدر ان يحصل عليها» . فأخذ اسطفانوس برفاق حركات الذين حوله فعلم بجيبي سعيد وتخاطبه وبالاذن في خواجه لكنه لم يره ساعة الطروج وانما علم انه ليس في السجن وانه يعود اليه بعد ان يمر بيت سعيد فاصعدم امن والده بغير علمه باعداد شرذمة من الجندي تربط قرب بيت سعيد فاذا دخل زكي بالمنزل فبعضوا عليه واتحروا سعيداً بالاشتراك معه وصار هو معهم لمله يقدرون ان يختطف الاسطوانة ويختفيها ثم هو لا يفهم شيء وقد اخرج هذا التدبير الى حيز الفعل لكنه لم ينجح في القبض على الاسطوانة ولا على السجين ورجم عذولاً يики من غيطه وسار توكاً الى مرقس تهن عليه ما جرى واصفه على الشكي من سعيد لانه خالف القوانين بالخارج اللص من السجين ثم هو ابن اسليمه الى الجندي . وفرق ذلك انه مواطي ، البطريريك تخفيث على مساعدة ملك التوبه لاخراج مصر من ايدي المسلمين وارجاعها الى ملك الرقوق وان كتاب البطريريك الى

ملك الثوبية موجود مع الاسطوانة عند سعيد وذلك يعني الحكومة عن اقامة الرابطة يتبعون  
على التوالي الآتية من التوبة لهم يمرون فيها على مكابية كما فعلوا باتفاقية الامم  
وفي صباح اليوم التالي ركب مرقس حاره الى القطائع وطلب الدخول على العمل حا  
كاتب المادوري والد استفانوس فلم عليه ثم لعن عليه امره وطلب اليه ان يساعده في  
حمل الولى على مقامة سعيد بجوارته وتهدى له سعاده السارق على اخفاء السرقة  
ولم يكن العمل حا يجهل اسباب تلك المخاصمات ولكنها كان في شاغل عنها يتبعه  
والعالم يمكن ابنه استفانوس يمسح على عذاباته بشأن من الشؤون وقد رأيت ما لكانه ان  
ينقلب ديانة له انه كان اول من زعد اباعا به ثم اعم شكري مرقس قال له « هذا القضاء  
موجود لرفع شكوكك الى الثاني وهو ينظر فيها ولا ينفع حلقك »  
فتقال « ولكن ربنا ايجار القاضي الى سعيد لانه حائز على رضى الولى اليوم فلم يصغنا »  
قال « القاضي غير متهم فإذا كانت دعواك حقاً نلت حقك منها » قال ذلك وحول  
وجهه يظهور بالاهتمام بأمور أخرى

فتقال مرقس « يظهر اثلكم ثم هم بهذا الامر فربما كان من قبل المسائل المخصوصة ولكن  
سعيداً وزكيها متعللاً بعمره ضد دولة المسلمين فهم يساعدون البطريريك خاتم في  
ابصال كتبه الى ملك الثوبية لطلب دولة المسلمين واعادة البلاد الى ملك الروم وقد قبض  
الجند على كتاب عندهما من البطريريك المذكور الى ملك الثوبية . واراد الجندي ان يأخذنه  
مهما فابن سعيد تسليه ولكنها قال ان الكتاب عنده مع الاسطوانة يتقدمها عند الحاجة »  
فقل « العمل هنا من هذا الحديث وقد ساءه سعي مرقس في هذه الوشایات لكنه  
استكشف ان يقول له ذلك في وجهه فلتفظ وقال « اذا كان كذلك مثل هذه البيانات  
فاطلب الرجل فيقع تحت طائلة العصافير »

خرج مرقس خجلاً واقعه استفانوس خارجاً فاسفياً من الاعتراف بان الله من اجل  
للاستخفاف الملجم هنا ياتواه فقال « ان والدك اشار علي باقامة الدهور »  
فتقال « معلوم .. وما الذي ذاعب لاشتكى » وكان استفانوس مسموع الحكومة عند  
ارباب الناس اكراماً لوالده فرفع المسألة الى القاضي باسم مرقس بمحنة ان اخادم ذكرها  
الذي كان قد سجن بتهمة سرقة يت سعيده خرج من السجن خلسة بمساعدة سعيد المهندس  
الفرغاني ولا ذهب الجند للقبض عليه طردم سعيد واهله ولم يسلم السارق  
فلا طلب من القاضي النظر في هذه القضية استدعى المتهمين خلاء سعيد وقال « اني

اطلب ان تنظر دعوانا بين يدي الوالي نفسه لان المسألة ذات شأن »

### حصص

## الفصل الخامس والستون

### المحاكمة

فلم يسع القاضي الا ابجابة الطلب فرفع الامر الى ابن طولون بنوع خصوصي فطلب ابن طولون حضور الجلـع في غرفة خاصة من قصره فحضر مرقس وذكرها وسمـع فـارس طـمـن ابن طـولـون بالجلـوس وهو يـثـرسـ في وجـهمـ فـذـكـرـ انهـ شـاهـدـ زـكـرـهاـ مـرـةـ قـبـلـ هـذـهـ قـالـ ابنـ طـولـونـ «ـ بـايـ لـانـ تـنـدـاهـونـ »ـ قـالـ «ـ فـيـ الـعـرـيـةـ فـانـتـقـبـهاـ جـيـبـاـ »ـ قـالـ «ـ مـنـكـمـ المـدـعـيـ »ـ فـوـقـ مـرـقـسـ وـقـالـ «ـ اـنـاـ يـاـ مـوـلـاـيـ »ـ قـالـ «ـ وـمـاـ دـعـواـكـ ؟ـ »ـ

قال « لي دعوى خصوصية على هذا الخادم التولى وقد اطلـتـ على دسـاسـ ذـيـمةـ سـيـ فـيهـ شـدـ ولـيـ اـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ مـوـلـانـاـ الـامـيرـ وـسـاعـدهـ عـلـىـ ذـاكـ الـهـنـدـسـ الـفـرـاغـيـ »ـ فـالـفـتـ اـبـنـ طـولـونـ الـىـ سـعـيدـ وـنـفـرسـ فـيـهـ تـفـوسـ عـثـابـ فـرـآـءـ مـطـمـثـنـ الـبـالـ لـمـ يـتـغـيـرـ مـطـلـقاـ وـكـانـ بـيـنـ يـدـيـ اـبـنـ طـولـونـ كـاتـبـ اـمـرـ وـانـ يـدـونـ دـعـوىـ الـحـلـ مـرـقـسـ ثـمـ قـالـ لهـ «ـ قـلـ لـهـ اـلـوـلـاـ مـاـ يـيـ دـعـواـكـ اـلـظـبـوـرـيـ عـلـىـ هـذـاـ الرـجـلـ »ـ

قال « انه كان خادماً في منزلني فتفاني في الشاء غيابي عن طهه النيل وسرق كثيراً من تقددي وأورافي وفي جلتها اسطوانة فيها اوراق خصوصية مختومة لا يجوز فتحها »ـ فـالـفـتـ اـبـنـ طـولـونـ الـىـ زـكـرـهاـ فـرـآـءـ مـطـرـقـاـ مـثـادـاـ قـالـ «ـ مـاـ تـقـولـ يـارـجـلـ ؟ـ »ـ قال « اـنـاـ اـعـرـفـ يـاـ مـوـلـاـيـ الـيـ سـرـقـتـ مـنـ مـنـزـلـهـ هـذـهـ الـاسـطـوـانـةـ (ـ وـاخـرجـهاـ مـنـ جـيـبـهـ )ـ وـلـمـ اـسـرـقـ شـيـئـاـ أـخـرـ وـلـاـ اـخـلـهـ يـسـطـعـ اـنـيـاتـ السـرـقةـ عـلـىـ »ـ

فـلاـ رـايـ مـرـقـسـ الـاسـطـوـانـةـ فـيـ يـدـ زـكـرـهاـ مـدـ يـدـهـ لـيـ أـخـذـهـ مـنـهـ فـامـتـعـ عـنـ تـسـلـيـمـهاـ اـيـادـ وـدـفـعـهاـ الـىـ اـبـنـ طـولـونـ وـقـالـ «ـ اـنـ هـذـهـ الـاسـطـوـانـةـ حـدـيـاـ مـتـحـلـلـ اـلـيـهـ فـيـ اـشـاءـ الدـفـاعـ فـتـبـقـيـ معـ مـوـلـانـاـ الـامـيرـ »ـ

فـرـجـعـ مـرـقـسـ مـقـبـورـاـ وـزـادـ خـبـيـاـ لـنـفـسـهـ قـالـ اـبـنـ طـولـونـ «ـ وـمـاـ الـذـيـ اـمـلـتـ عـلـيـهـ مـنـ دـمـائـ هـذـاـ التـوـبـيـ عـلـيـنـاـ »ـ

قال « لما سرق هذه الاسطوانة وغيرها من منزله في الى ديرالي مقاير فارسلت في اثره رجالاً تعقبه فلم انه حل كما من البطريرك خاتم الـ ملك الـ توبـة جوابـة على كتاب جاء من ذلك يحرضـه فيه على السـيـ في الخـرـاج مـصرـ من حـكـمـ السـلـيـنـ وـارـجـاعـها الى مـلـكـ الرـومـ »

فلا يسمع ابن طولون هذه الشـكـوى اعتـقـدـ صـدقـها لـانـهـ سـمعـ بـذـاكـ منـ قـبـلـ وـارـادـ انـ يكونـ الجـبـثـ فيهاـ يـحـضـورـ البـطـرـيرـكـ فـسـهـ قـتـالـ « وـقـدـ عـلـتـ اـنـ البـطـرـيرـكـ خـاتـمـ الـ تـوبـةـ الشـطـاطـ باـالـاسـ وـالـاـوـلـ بـاـاحـسـارـ لـيـكـونـ الـكـلـامـ فـيـ حـضـورـهـ » وـصـنـقـ خـيـاءـ غـلامـ اـمـرـهـ انـ يـدـعـوـ الـبـطـرـيرـكـ خـاتـمـ فـيـ نـاـلـكـ السـاعـةـ الـىـ اـيـلـلـةـ لـأـدـيـةـ شـاهـةـ فـتـقـدـمـ زـكـرـيـاـ بـعـدـ ذـاكـ وـقـالـ « لـاـيـزـالـ بـعـضـ المـدـعـىـ عـلـيـهـ غـابـينـ فـاـذـاـ اـسـقـنـ مـوـلـاـنـاـ اـنـ نـسـقـدـ الـبـاقـينـ قـدـلـ »

قال « ومن ايـضاـ؟ »

قال « اـبـةـ الـحـلـ مـرـقـسـ هـنـاـ فـانـهـ شـرـيـكـ سـيـ فـيـ سـرـقةـ هـذـهـ اـسـطـوـانـةـ »

فـقـالـ « مـنـ يـحـضـرـهـ؟ »

قال « اـنـ اـخـسـرـهـ؟ »

وـكـانـ هـذـاـ الـكـلـامـ وـقـعـ السـهـامـ فـيـ قـلـبـ مـرـقـسـ فـارـادـ المـارـشـةـ فـيـ اـحـسـارـهـ فـقـالـ « لاـ يـاـ سـيـديـ اـذـاـ ذـعـبـ لـاـ يـرـجـعـ فـانـهـ سـرـيعـ الـرـبـ »

فـقـالـ زـكـرـيـاـ « يـرـسـلـ مـوـلـاـيـ مـنـ شـاءـ مـنـ الـظـفـرـ يـمـرـسـونـيـ حـتـىـ اـعـوـدـ فـانـ الـثـنـاءـ عـلـيـ مـقـرـبـةـ مـنـ هـذـاـ الـمـكـانـ »

فـاـمـرـ ابنـ طـولـونـ بـعـضـ الـطـرسـ بـرـاقـونـهـ وـبـاتـونـ بـهـ وـبـكـثـ الـامـيرـ وـسـعـيدـ وـمـرـقـسـ فـيـ اـنـظـارـ عـيـيـ الـبـطـرـيرـكـ وـدـيـانـةـ .ـ وـابـنـ طـولـونـ فـيـ اـثـاءـ ذـاكـ يـرـددـ فـيـ خـاطـرـهـ مـاـ سـمـعـهـ مـشارـكـةـ سـعـيدـ فـيـ الدـسـائـسـ عـلـىـ الـدـوـلـةـ فـتـنـاـتـهـ وـقـالـ « سـعـيدـ .ـ الـمـزـاجـ قـدـرـكـ وـيـخـيلـكـ مـنـ خـاتـمـناـ؟ »

قال « ومن يـتـكـرـ ذـاكـ؟ اـنـيـ غـارـقـ فـيـ نـعـمـ مـوـلـاـيـ الـامـيرـ وـحـاشـاـهـ اـنـ اـسـمـيـ فـيـ غـيرـ خـدمـتـهـ؟ »

قال « فـالـلـمـ مـرـقـسـ كـاذـبـ فـيـ مـاـ يـقـولـ؟ »

قال « مـيـظـهـرـ ذـاكـ قـرـيـباـ يـاـ سـيـديـ .ـ وـهـذـاـ هـوـ الـكـتـابـ الـذـيـ يـزـعـمـ الـمـلـمـ اـنـ زـكـرـيـاـ جـهـلـهـ مـنـ الـبـطـرـيرـكـ خـاتـمـ الـمـلـكـ الـمـلـكـ الـتـوبـةـ »

قال ذلك ودفع الكتاب مختوماً إلى ابن طولون فرضمه بين يديه بباب الأسطوانة  
واراد فضه فأجل ذلك إلى حضور البطريرك  
وبعد قليل جاء الغلام إن البطريرك بالباب فامر بدخوله فدخل وعليه لباس الرسم  
وقد بدت البقة في وجهه فرتفع له الحشود وإن طولون أيضاً دعاه إلى الملوس على كرمي  
بياناته فجلس وأول شيء وقع بصره عليه كتابه إلى ملك التوبة بين يدي ابن طولون واستغرب  
ذلك والفت فوجده ملهم مرقى وكان يعرف قصة ابنه مع اسطفانوس وكذلك سعيد

## الفصل السادس والستون

### كشف السر

ولم يكدر يستقر البطريرك في مجلسه حتى دخل الغلام بيبي ومجبي زكيبا ودميانة  
فذخرا وفي أثرها سمعان التوفي وافت في بعض اطراف القاهرة . فلما وقع نظر البطريرك على  
زكيبا ودميانة ادرك بعض الفرض من حضوره . فأول من تكلم ابن طولون فوجده كالامه  
إلى البطريرك لأن مسألته اعظم اهمية عنده من سواها فتناول كتابه بيده ووجهه نحوه  
وقال «ليس هذا الكتاب منك ؟»

فنظر البطريرك في الكتاب وقال «بلى»

قال «ليس خاتمك عليه ؟»

قال «بلى ياسيدني»

قال «هو إلى ملك التوبة تجاري فيه بشان اخراج هذه البلاد من حوزة المسلمين ؟»

قال «نعم ياسيدني»

قال «المذى أخذت بلغ من أمرك ان توافق «عدوتنا علينا ؟»

فبسم البطريرك وقال «إن الامير يطالبني بما سمعه من الوشاية . . . و لم تسو الحظ  
من ابني وريعي . . . وقد قالوا أبي خائن وأبي أخابر وادس الدسائس . وقد قضاوا على  
كتابي هذا على غير علم . فما على الامير الا ان يقضه ويأمر بثلاونه وعند ذلك يعرف  
الحقيقة فاما ان اكون خائناً استحق ما شربته ذلي «من الاموال التي اقتلت كتملي او اكون  
بريناً والا مر بعد ذلك للامير» قال ذلك وقد بدا التأثر في عينيه وشفتيه وصارت لحيته  
نرقعن في صدره

فرأى ابن طولون يقول الحق ويطلب العدل فقال « محدث .. » وأشار الى الكتاب بين يديه وقال « انت تقرأ القبطية » **فوقف الكتاب وقال « نعم يا مسيدي »**  
فدفع اليه الكتاب ففده واخذني رأه ويتوجه والكل ما كثون يسمون وهذا لغوه :  
**« ولدنا بالروح فربنا ملك التربة »**

« ولدنا منك عذرة كتب تدعونا فيها الى خلق طاعة حكامنا المسلمين والرجوع الى سلطة الروم . ولو كان الروم خيراً لنا من سواهم ما خرجنا من طاعتهم وردضينا ان يحكمنا اي كان غيرهم . وهو لا اه المرب قد تعودنا ونم خيراً لنا من اولئك . لا انكر عليك ان يعطى الولاة المسلمين كانوا اهل ظلم وشدة ساءوا ابناءنا الابساط انواع العذاب ولكنهم على الاجال اهل عدل ووفق وخصوصاً اميرنا الحالي احمد ابن طولون فانه ما افلاك متذوق مصر وهو يرفع المظالم ويکف الاذى عن طائفتنا .. على انك لو تذيرت ما حلتنا من الاذى في عهد هؤلاء العرب لو جدت الحق علينا غنى لقاد يانا واقسامنا فيها يتنا نفهم بعضنا بعضاً ويشي بعضنا بعض لفستان في الصدور . واقرب شاهد وقع معنا ان بعض الاساقفة لغير في واجله الكتبية غرمته فلكي يتنفس لنفسه وشي الى الوالي التي صاحب اموال وأشار عليه ان يطالبي بالاموال الالازمة للدولة فنربوا على شرائب يعلم السيد المسيح الذي عاجز عن نفسها وربها ولكن الوالي لا يصدق قوله .. هذا مثل ضربه لك فاعتبر به ورأي ان تفتح بالضرخ حكمانا هؤلاء لهم خيراً لنا من سواهم واذا وجدنا في بعضهم عيباً فقد كان في ولاية الروم قبلهم ما هو اشر وادعي . وفي الخاتمة اهديك البركة والدعاء ونطلب الى المولى ان يصلح يانا ويجعل قلوبنا تحسن معاونة حكامنا لنا والسلام »

كان الكتاب يترا وينترجم والحضور يسمون والبطريرك مطرقب ينتظر النتيجة . وابن طولون بعد ان كان منقبض الوجه لم يأت الكتاب عن آخر الكتاب حتى ابسط وجهه والتفت الى البطريرك وقال « لقد امنا عشرتك وسمينا الوشاية فيك .. والله لو كانت كل ابناء طائفتك على رأيك كانوا اسعد حالاً وانتم بالآ فوجب علينا التقييف هناك وقد انت هذه الشكوى لك لا عليك »

قال « هذه اراده الراب »

فالتفت ابن طولون الى مرقس وقال « هذه دعوى يامعلم قد مستطعت فلين في الآخرى »  
فوقع مرقس في حيرة لكنه اراد التخلص وتحويل الموضوع فقال « ان ايانا البطريرك

لقد ثبّر أبا بنعيم كتابه ولكن حامل الكتاب حمله وهو لا يعلم خواه وكان ينفي له أن يابي  
قاله ولكنّه نوبي يخدم مصلحة ملكه ولو علم أن الكتاب بهذا المعنى لم يحمله»  
فقال ابن طولون « الواقع أن الكتاب بهذا المعنى وقد حمله وليس في حمله إلا خدمة  
حكومة المسلمين جزاء الله هنا خيراً . . . وبعد ذلك ترجع إلى مالك الخصوصية ولا  
يأس من فصلها بحضور البطريرك »

فقال زكريا « بل حضور غبطته ضروري لها »

تغريب سمعة مرسى وبدا الاستطراح عليه وتلائم لسانه والمحظوظون لسماع دعوته  
ومما ابطاً ولم يتكلّم تقدم زكريا فقال « استاذن سيدى الامير ان اوب عن المعلم  
مرسى بالكلام »

قطع مرسى كلامه قائلاً « من افياك عن ؟ اما اتكلّم عن نفسى »

سكت زكريا وترافق وديعاته واقفة وقليلها يتحقق شفقة على ابيها وطال سكت مرسى  
فقال زكريا « للعلم مرسى شريك في الدعوى اذا امر الامير باحضاره »  
قال « من هو ؟ »

قال « اسطفانوس بن الجلم حنا كاتب المراج »

فامر ابن طولون باحضاره وما عتم ان حضر فأوققوه بجانب المعلم مرسى . وهذا لم ينتفع  
عليه بالكلام واعتذر اخيراً بالمشابه فتحمه من التكلم . فامر ابن طولون باجلاسه والتفت  
إلى زكريا وقال « قل يا امير ما تعرف من امر هذه القضية ؟ »

فتقدم زكريا وتناول الاسطوانة يده وقال « ان اذنكم كله على ما في هذه الاسطوانة .  
وما فيها غير رق مكتوب في مصلحة هذه المدرسة ، الطاهرة وهي يا سيدى اية العلم مرسى ذات  
والشها وهي حلقة وكان لها عرابة بثابة الوالدة وكانت غنية عن فاحتها واظنكم تعرفونها  
اعني ماريا النبطية صاحبة قرية طاء النسل التي مر بها الخليفة المأمون عند زيارته مصر  
و شأنها وبالتفتي في اكرامه . وكان المأمون لما شافها اعدها إليها بعض الجواري والخصيان  
وفي جلتها انا فقد كنت خصياً حملت اليه هدية من ملك التويرة مع خصيان آخرين . . .  
ورويت في منزلها وكان اسبي ابراهيم مستقي زكريا . فلما وليت امرأة العلم مرسى هذه  
الثانية سمعتها ديمعنة على اسم القديسة ديمعنة وكانت ماريـة نـجـع اللـه روـحـها تـرـفـ اـسـرافـ  
هـذـا الـمـلـم فـارـادـتـ انـ تـضـمـنـ مـسـتـقـلـلـاـ فـوـهـبـتـهاـ قـرـيـةـ طـاءـ النـسـلـ هـذـهـ وـقـرـيـةـ اـخـرـىـ فيـ  
هـذـكـ الـجـوارـ وـكـيـتـ بـذـكـ حـكـماـ .ـ جـلـاـ حـنـظـلـهـ فيـ هـذـهـ الـاسـطـوـانـةـ ةـلـ ذـكـ وـاسـتـاذـنـ

ابن طولون ينفع الختم فاذن له 'فتنه' واستخرج رفاه مكتوبًا بالقبطية دفعه إلى الكاتب  
وطلب إليه أن يدل على خلامة بالجريدة فقال :

« ان ماريا القبطية وهبت ابنته بالروح ديميانة بنت المعلم مرقس قربتها طاها النسل  
كلها وما يلحقها من المدارس . وتبقي هذه القرى تحت مناقذة ابيها ولا يتحقق له ان يبيع منها  
شيئا . فإذا بلنت ابنته رشدها وتزوجت صارت هذه القرى لما ملكا خاصا ليس لابيها  
شيء منها .. ابلغ »

وكان الحضور يسمعون ما يناله الكاتب وهيوفهم على مرقس وهو مطرق والمرق ينقطع  
من وجهه . وصادره يملأ ويحيط من التنفس التقليل الذي اعتراه فلما فرغ الكاتب من  
القراءة قال ابن طولون « ليس ثبت من ثبود ؟ »

قال الكاتب « نعم يا سيدى اني افرأ اسمي خاتيل ومنتريوس »

قال الباربريك « ان مخائيل اسمي وكانت لا ازال استفنا نعم اشهد ان ماريا القبطية  
وهبت هذه الفتاة هذه القرية . واما منيروس فإنه قيس طاها النسل وهو حي هناك »  
قال ابن طولون « نكتفي بشهادتك » والفت الى زكريا وقال « هل فرغت من  
حديثك يا اسرئير ؟ »

قال « كلا يا سيدى .. لا ازال في اول الحديث هل انته ؟ »

وكان ابن طولون قد نوم الصدق في طبعته فاصبع مستعداً لتصديق كل ما يقوله  
قال له « اتيه »

قال « ونظرًا لرغبتها في رعاية هذه الفتاة جعلتني في جملة المبة وامررتني ان ابقى في  
خدمة ديميانة حتى تشب وتنتزوج وبالفت في الوصية فاعظمتها ولازمت الفت من طلوليتها  
ولا ازال الى الان وسابق ما بقيت حيا .. فنشأت الفتاة على تربية حسنة غرسها فيها  
والدتها حرباً الله فانها كانت نقية طيبة المنصر فشتات ابنته مثلها تحب الصلاة والبادية وفيها  
مبل الى البر والاحسان وبللت هذا السن ( وأشار اليها ) ولم تعلم بما في هذه الامساطة  
لان والدها كان يبالغ في اختفائها عنها وانا صابر لها يحسن معاملتها . فرأيته بعد ان ماتت  
زوجته الاولى والدة ديميانة عكفت على التسرى واقتضاء الجلواري وتعاطي المسكر والانفاس  
في التصف وازعو والبنت تذكر ذلك فيه وهو لا يائنت اليها . واخيراً اراد انت زوجها  
 بشاب على شاكلته هو هذا ( وأشار الى اسطوانوس ) ثوركاً يتصب والده منع ان والده  
 يتبرأ منه ولكن تواطأ معه على اختفاء امر الوصية والتخلي بالاموال معاً كلها سكر وعيان »

فلا وصل الى هنا نفس الصدّاء لستريح ثم تحول نحو سعيد فامسكه يده واتم حديثه  
 قائلاً « واما الفتنة تعرفت هذا الشهم ولا ازيدكم تعرضاً بنا فيه وكان مقبساً عند جاره الي  
 الحسن البغدادي وتواهدا على الاقتران وكان هو مشتملاً بمحضر العين بالمخافر . فما باسطفانوس  
 بذلك وخاف اذا تبعج سعيد بمحضر العين ان يعلم في عيقي الامير ويأخذ ديماته كرهاً بحکاد  
 له كيداً لا يرتكبه اعظم الاشرار .. او معي بعض رجاله ان يضم قصرية الميلو في المكان  
 الذي يعلمه الامير حق حدث ماحدث من اجفال جواده ووقوعه وظن يومئذ مولاي ازدلاك  
 من سعيد فامر بضرره وسجنه ثم اطلق سراحه لاجل بناء الجامع . وهل يتذكر الامير ان  
 ذكرت له اسم سعيد وانه اندر من يبني له الجامع كا يربده؟ » ثني ابن طولون رأسه ايجاباً  
 فما زكر يا الى الكلام قائلاً « وبعد ان اوقوا سعيداً في النخ ارادوا اكرام الفتنة  
 على الزواج باسطفانوس ولم يتحقق ضميري على ذلك واما عالم بالحقيقة فقررت بها فجئتها  
 في حلوان وذهبت فسرقت هذه الاسطوانة لاطالب بمحض الفتنة . ولما رجمت الى حلوان  
 وأبي الفتنة قد اخذها البجة سية فرأيت ان اوسط اباً البطريرك في استجداد ملك  
 التوبة على البجة فسرت اليه في دير ابي مقار فحملاني هذا الكتاب وفي ذيده وصيته لي  
 بيساعدي . فحملتها ورافقتني جاسوس ارسله هذا الملوك في اوري كا قال ولما وصلت الى  
 الاهرام استجد درجلاً للتبغض على قلما تخففت وقوعي في قبضهم اخفيت الاسطوانة  
 والكتاب في مدخل الاهرام . وقبضوا علي وسجوني ثم احتلت في الخروج بواسطة  
 مولاي سعيد المهندي لاستجلاب الكيس فسررت بالصدقة على مولائي ديماته وممها هذا  
 النبوي ( وانتار اليه ) وهو الذي اخذها من بلاد البجة . وعلم هؤلاء بخبره فاختلوا  
 بالتبغض على الاسطوانة فلم يفلحو وارادوا الشر فعاد عليهم . واما لا غرض لي في كل ما  
 تقدم الا القيام بالمهمة التي عهدت الي فقد تمهدت ان اخدم هذه الفتنة واراهي مصلحتها  
 وقد يذلت جهدي في ذلك والاص لولاماً ، قال ذلك وتراجع ووقف والطبع سكت  
 كان على رؤوسهم الطير يتظرون ما يبذلو من الحكم  
 فاذابن طولون يقول « ان حديثك بالسر مع طوله لا يعل لندرك شفت عن خناباً  
 كثيرة » والنفت الى مرقس واستطوانوس وقال « هل تداععن عن قضيتكما ؟ »  
 وكان مرقس معلقاً يكاد يذوب خجلاً وقد ارجح عليه اما استطوانوس فمعظم عليه  
 السكت فقال « ان النبمة التي وجهاها الي هذا النبوي لا دليل على صحتها . كيف يتأتى لي  
 ان ادس قصرية الحير ؟ »

فتقديم ذكرها و قال « ألا لا انقول ألي شاهدتك فعل ذلك ولكنني استدل من فرائين  
كثيرة ألا أنت الفاعل »

قطع ابن طولون كلامه قائلاً « ألا إيماناً أؤيد هذا القول بدليل تذكره ٠٠٠  
فقد كررت الآن بعض الناس من إبناء طائفتك ولهم من أهلك كانوا يقيرون عمل هنا  
المهندس الذي وبفضله ألي بكل وسيلة زاد اسم أقوالهم بالخلاص فلما كذا جواودي في  
قصصية الجير جملوا أن سعيداً فعل ذلك عمداً ليقتفي نصائحهم وأسألت معاشرة هنا العادق  
( وأشار إلى سيد ) وهو أولى بالكلافية وانت اشكر ذكرها لآلامه كان وسيلة لآخر أوجه من  
السجن وبإرشادي إلى مقدره في قرن المئذنة ٠٠٠ بارك الله فيك والله درك من خادم  
أمين نصوح ٠٠٠ »

وكان البطريرك مصطفياً فلما سمع قوله ابن طولون هز رأسه متوجهاً وهو ينشط لبيه  
بأممه وقال « سبحان الله ٠٠٠ إن الفرج لا يأتينا إلا منا ٠٠٠ يعني بعثنا يبعث وفده  
بعثنا أعمال بعض ٠٠٠ »

فصاح أسطفانوس « إن هذا الشاب ( وأشار إلى سيد ) لطيف و دمالي في صحن  
الكنيسة ليلاً الاختبال بعيد الشهيد فأغضبت عنه ولم أرد اذنيه تكيف أسر شده ؟ ٠٠٠  
فقال زكيها « أغضبت عن عبز ولو استطعت قتله ما تأخرت ولكنك حيان خبيث »

فسرخ أسطفانوس « تهيني في حضرة الامير وانت خصم فرمي ٠٠٠  
فأشار ابن طولون فكتأ فقال هو « لاحاجة إلى المدافعة فإن أدعاهاك أن سعيداً  
شريك مع ما ظهر من مخلوقك يؤكّد لنا ألاك تستدّت أذاء بوضع قصصية الجير »

## الفصل السابع والستون

وكان سرقس يسمع ما يقولون ويتنظر فرصة يتخلص بها إلى الكلام ليجعل خبطه فلما  
رأى التهمة ثبتت على أسطفانوس وجه كلامه إليه وقال « أشك يا أسطفانوس بالحقيقة  
ألاك لبيه الطبع فقد خدعتي كما خدعت سواي فإذا أشهدتك تعمدت الأذى لجارنا وولدنا  
سيد - أردت بذلك أن تخلعن منه بقى ديمانة لك ٠٠٠ هذا هو الصحيح »

فَلَمَّا سِعَ اسْطُقَانُوسْ هَذِهِ الشَّاهَدَةَ ضَدَهُ مِنْ زَمِيلِهِ وَصَدِيقِهِ وَغَرِيْبِهِ بِكُلِّ سِبْتَهِ حَيْ غَبَّهُ وَقَالَ لَهُ « أَزْعُمْ ذَلِكَ وَأَنَّ الَّذِي أَغْرَيْتَنِي عَلَيْهِ وَمَمْ حَيْتَ إِلَى الزَّوْجِ بِإِنْتِكَ وَأَنَا أَقُولُ لَكَ أَنَّهَا لَا تَعْبُقُ فَإِنْتَ إِلَّا أَنْ أَزْوِجُهَا ». لَا لَبِيبٍ غَيْرِ طَعْكَ بِإِنْهَا » قَالَ مَرْقُسْ « هَذَا غَيْرُ حَقِيقَهُ » وَضَحَّكَ شَحَّكَةً اسْتَخْفَافًا وَقَالَ « طَعْمًا بِإِنْهَا » أَلِيسْ مَالَهَا وَمَالِي سَوَاءً » قَالَ « أَوْ تَضَعُكَ إِيْنَهَا ؟ وَتَقُولُ أَنَّ مَالَكَ وَمَالَهَا سَوَاءً ؟ لَمْ يُخْبِرْنِي بِهَذِهِ الرَّوْسِيَّةِ وَتَشَرَّطَ عَلَيْهِ أَنْ أَزْوِجَ النَّاتَةَ تَكُونَ شَرِكَاهُ بِالْوَرْثَةِ وَهِيَ لَا تَعْلِمُ بِهَا ؟ أَنَّ أَغْرَيْتَنِي وَغَشَّيْتَنِي » وَاطْبَعْتَنِي بِإِنْتِكَ وَمَا كَانَ اغْنَانِي عَنْهَا فَاتَ وَحْدَكَ سَبَبَ هَذَا الشَّقَاءَ » لَتَسْتَعِنَّ بِالْمُلْكَاتِ وَالشَّهْوَاتِ ؛ قَالَ ذَلِكَ وَقَدْ يَعْصِي مَوْتَهُ وَخَرَجَ مِنْ طَوْرِ الْمَقْلَلِ لِشَدَّةِ الْحَضْبِ فَأَنْتَهُرَهُ أَبْنَ طَوْلُونَ فَائِلًا » يَكْنِي قَدْ عَرَفْنَا كَمَا جَيْمًا . وَعَرَفْنَا فَضْلَ مَهْنَدِسِنَا الْحَكْمَ وَسَنْرُونَعَ مِنْزَلَتَهُ وَنَمْوَضَ عَلَيْهِ مَا حَلَّهُ مِنَ الْأَذَى بِسَبَبِ نَالَكَ الْوَشَابَاتِ وَسَنْزَفَ إِلَيْهِ عَرَوْسَهُ عَلَى نَفْقَتِنَا بِالْخَفَالِ يَسْهِيْمَا مَا فَاسِيَهُ وَيَتَوَلِّ عَقْدَ الْأَكْلِيلِ غَبْطَةَ الْبَطَرِيرِكَ الْجَلِيلَ » قَالَ ذَلِكَ وَنَظَرَ إِلَى دِيمَاتَهُ وَكَانَتْ جَالَةً عَلَى مَقْعِدِهِ بِالْقُرْبِ مِنْ زَكْرِيَا تُسْعِمَ مَا يَدُورُ مِنْهُ إِلَاحَادِيَّتُهُ وَلَا تَهْمِمُ إِلَّا تَهْمَمُ قَلِيلًا جَلِيلًا الْفَتَّةَ الْمُرْيَةَ فَكَانَ زَكْرِيَا يَتَوَمَّ لَمَّا بَاخْتَصَارَ . عَلَى إِنْ اشْتَهَالِ قَلِيلًا بِسَعِيدِ وَتَجْبِيْهَا حَرَكَاتَهُ وَسَكَنَاتَهُ كَانَتْ يَشْغَلُنَا عَنْ مَيَاجِعِ كُلِّ شَيْءٍ . فَقَدْ مَضَتْ عَلَيْهَا مَدَةٌ وَهِيَ لَمْ تَرِهِ وَأَنْتَقَ إِنْهَا رَأَيْهَا لَرَةَ الْأَوَّلِيَّ فِي تِلْكَ الْجَلْسَةِ فَاضْطَرَرَتْ إِنْ تَفَالَبَ عَوَاطِفَهَا وَتَصْبِرَ قَسْهَا إِلَى آخِرِ الْجَلْسَةِ . وَلَدَّهَا مِنَ الْجَهَةِ الْأُخْرَى الْإِطْلَاعُ عَلَى مَا كَانَ مُحْدِقًا بِهَا مِنَ الْأَسْرَارِ وَلَا مِنْهَا مَأْلَهَ الْأَسْطُوْنَةِ وَمَا فِيهَا فَلَمَّا اطْلَمَتْ عَلَى خَوَاهَ طَارَ قَلِيلًا مِنَ الْفَرَحِ وَازْدَادَتْ فَرَحَاهُ لَمَّا سَمِعَ مَا قَالَهُ أَبْنَ طَوْلُونَ خَطِيبَهَا وَكَيْفَ أَنْ سِرْفَعَ قَدْرَهُ وَيَنْقُقَ عَلَى الْعَرْسِ مِنْ مَالِهِ . فَانَّ ذَلِكَ فَوْقَ مَا كَانَتْ تُفَهَّمَةً عَلَى إِنْ سَقْوَطِ وَالْدَّهَا تَحْتِ غَضْبِ أَبْنِ طَوْلُونَ تَقْعِنُ عَيْشَاهَا وَكَدْرَاهَا . وَزَادَهَا حَزَنًا وَاسْفًا مَا شَاهَدَتْهُ فِي إِبِيَهَا مِنَ الْأَنْكَارَ وَالثَّدَلَلِ بَعْدِ طَهُورِ الْحَقِّ عَلَيْهِ . وَنَسِيَتْ مَا فَاسَهَهُ مِنَ اسْبَدَادَهُ وَهَنَّهُ وَمَا ارَادَهُ مِنْ ضَيَاعِ حَقِيقَاهَا . فَلَمَّا قَالَ أَبْنَ طَوْلُونَ مَا قَالَهُ وَوَجَهَ خَطَابَهُ إِلَيْهَا بَقَتْ وَهِيَ تَحْدِثُ قَسْهَا بِتِلْكَ الْأَمْرِ وَالتَّفَثَتْ إِلَى وَالْدَّهَا فَرَأَتْهُ يَنْتَظِرُهَا بَيْنِ الْمَزَرِينَ الْأَذْلِيلِ فَنَهَضَتْ وَتَقْدَمَتْ خَطْلَوْنَ حَقِيقَهُ وَقَفَتْ كَلَامَاهَا إِلَى الْأَمْرِ وَتَكَلَّمَتْ بِالْقَبْطِيَّةِ فَأَلَّهَ « أَنِي لَا أَسْتَطِعُ التَّبَرِيرَ مِنَ الْكَارِيِّ بِالْمُرْيَةِ فَاقْوِلُهَا بِالْقَبْطِيَّةِ وَاتَّقْدَمْ إِلَى إِيْنَا الْبَطَرِيرِكَ إِنْ يَقْلُلُهَا إِلَيْكَ بِالْمُرْيَةِ . قَدْ غَرَرَتْ إِيْنَا الْأَمْرِ بِنَفْلَكَ وَإِنَّا شَاهَدَتْ الْعَصَيِّ تَسَاقَطَ عَلَى

سيد ( وأشارت اليه ) شاعرها بيبي لم يغطري ان اضع الحق عليك وقد علت من ذلك اليوم لها دسية .. انك اهلا الامير اتيت نسمة بلادنا كافال ابوتا البطريرك واحد الله لانه اظهر الحق على بدالم زكريافان لهذا الم طيب الثلب فضلاً كبيراً في كشف هذه الاسرار وقد فعل ذلك لا لطبع غير القائم يومه ونصرة الحق ..

ثم بللت ريهما وظهرت دمعتان في عينيها وأشارت يدهما غوايتها وقالت « نعم ان الذي قد اساء التصرف معي ولا ادرى كان ذلك من تلقاً قصه او بغراه من سوء فعل كل حال فاني اتقدم الى مولاي الامير ان يعنونه فاني لا اكون سعيدة ما لم يكن والذي ايضاً سعيداً »

فترجم البطريرك كلامها بالختصار . اما والدها فلما سمع قولها غلب عليه البكاء ، التزم ندمه وقال لها « لقد جمت ناراً على رامي .. فاني قد اسات اليك من كل وجه ولا شك ان عصرك اطيب من عصري فقد كنت اربد ان اكون سعيداً ولو شقيرت انت اما انت فتقولين انك لا تسعدين ان لم يكن ابوك سعيداً .. فاصنعي عن زلاتي واستشهد الامير وسائر الحاضرين التي ساربع عن كل ما يسوكم من طرق المعيشة في يبني واكون طوع ارادتك لانك اقرب مني الى الرشاد وادق الى الصواب »

فلا راي اسطفانوس ما جرى صاح « وانا يادميانه واذا ؟ »

قالت « اتي اترك امرك الى سعيد فانه صاح الثأن معك »

لتقدم سعيد وقال « اذا جاز لي يا مولاي الامير ان انكلام فاني اتقدم اليه ان يصفع عن اسطفانوس فانه فعل ما فعله متذمماً بضعف الانسان ولا يهدبني ان اراه يندوق العذاب لا سبباً وقد ظهر انه ندم »

فقال اسطفانوس « نعم ندمت .. ومن يرى هذه الاخلاق العالية وهذه الصدور الرحيبة ولا يدمن .. اني احب ان اكون من احتر اصدقائك »

قال « دعنا من الصدقة فقد منحت عماني والسلام »

فشار ابن طولون اشارة سكت لها الجميع واصنعوا لما يقوله فقال « يسرني انكم تصالختم وساويد هذا الصلح باحتفال المرس الذي ساقيمه بعد قليل بمحضور الاب البطريرك »

## الفصل الثالث والستون

بالرفاه والبين

وفهم الحضور انه يريد الانصراف فنهضوا وادا بصوت خرج من طرف القاعة فالقلت الجمیع فروا سمعان النبی وكان واقفاً يسمع ما يدور وكان ما اسم ما ذله زکریا عن اصله وانه كان في جملة هدية ملك التوبه للأمون علم انه اخوه الصانع واحد ان يصدقى الكلام فلم يسعفه المقام فظل صابراً حتى فرغ القوم من المحاكمة فتقدما وقال «ياذن لي الامير بحكمة : انی رسول ملك التوبه الى هذا البطريرك لا كمه ما كنه به سوای من قبل اما بعد ان شاهدت من عدالك وعظم خلقك فاني ارى غير رايه وانا اند الى ملکي اثیه عن عزمه واعید العلائق بينه وبين المسلمين ان شاء الله»

قال ابن طولون يغير اکثراث «لک ذلك» وتحول وخرج من باب خاص في تلك القاعة وبقي الحضور ينماخرون وبصالحون والبطريرك يباركهم ويختلف عنهم فقبلت ديمانة بد والدها قبلاها هو وبكي ووجهها ان يخرج ما في منزله من السراري والجواري وان يعيش الله وطا و يكون طوع ارادتها، وقد اسطفانوس الى سعيد يستغره ويدعوه فقال له «ليس في تنسی شيء عليك وقد صفت هما نمائیة لكتني لا امیل الى مصادفك لأن من كان لا يغضب لنفسه ولا يحفظ كرامتها لا يليق بالصداقة» فـذا سمع اسطفانوس قوله كاد يذوب من المجل وتحول وخرج وهو يبكي فاشقق سعيد عليه فناداه وقال له «اذا شئت انت تصادق فاخص لما يقوله والدك فإنه من اطيب الناس قلبًا واحسنهم خلقاً فإذا عملت برأيه كنت من اصدقائنا»

واما سمعان فلم يصدق انه اطلق بعد خروج ابن طولون حتى اكب على زکریا وجعل يقبله ويقول له « أخي ابراهيم ! أخي ابراهيم !»

فبعث زکریا والقلت الى سمعان وتفرس فيه وقال « أخي سمعان .. أخي حقيقة .. ونتائقاً .. واجعل منظراً بين اولئك الجمتعين اجتماع سعيد بدیمانة فقد تخططا وتشاکیا طويلاً بلسان لا يفهمه سواها اعني لسان اليون فضلاً عن الكلام وطال وقوفاً وفرغ الآخرون من احاديثهم وما غارقان في المشاکاه وقضى الاحاديث فتقدما زکریا احیراً وقال «هل تريد مولاً في ان تخرج والي ابن ؟»

فأنيت لنها وسألت سعيداً فقال « هل تأتون إلى مصرى هنا »  
 ثم بعثت ديمات من هذه الدهرة وادرك زكي يا جعلها فقال « نذهب الآن إلى دير  
 العلة لأن سيدني تحب الأديار وأهل أنا البطريريك نازلاً هناك » فاشارة البطريريك ان  
 قم فقال « فنحن ذاهبون إلى هناك للتبرك به ربيانا ياسير الأمير بالأكليل فجتمع وتقى  
 في قصر المندس الفراغي »

فصاح أبوها « بل تقى في قريتها طاء النمل تامر وتهوى »  
 ففرحت بصرى إليها على هذه الصورة ومشت في وزكي يا والبطريريك إلى دير العلة  
 وبهم سمعان وذهب سعيد إلى قصره ومقهى استطوانوس كاسف البال إلى أى يه يستقره  
 ويروج عنده . وبقي مرسى فقال لأبنته « الا تأتيني إن أرا لفلك إلى الدير »  
 فضحك وقال « إن لهذا الدير فضلاً على فقد بدأ متاعفي فيه ولكن ... قد مفى  
 ما مفى تفضل أنت والدبي وسيدي » فتشى بهم إلى هناك واحتفلت رئيسة الدين بقدومهم  
 وبعد أيام امر ابن طولون بإعداد معدات المرس لفاف ديمات إلى سعيد فبعث سعيد  
 إلى مرعيه إلى الحسن البشدادي ناقى وقد فرح يا جبرى وبعثت ديمات إلى الاب متريوس  
 قيس قريتها ليفرح بها ناقى . فزيروا القطايع كلها بالأنوار والزيارات وكان احتفالاً  
 مثل احتفالات الملوك وظل فعل السلطان يخديجن به أهواه . وسكنت ديمات مع سعيد  
 في قصره أيامَ ثم انتقلوا إلى حياء النمل وسكنوا في قصر أبيها أو هو قصر مارية التطبيقية وكان  
 قد اخلأه أبوها من السرارى والجلوارى وجمله لأنها بذريتك المروسين الطاهررين  
 وقضى مرسى بيته عمره يبذل ما في وسعه لرعايا ابنه وزوجها . وكان أبو الحسن من  
 أعظمهم مروداً بذلك وعاش زكرييا بيته عمره معززاً مكرماً وأاما آخره سمعان قاله  
 سائر إلى بلاد التربية يعني ملوكها عن مشاركة المسلمين فالفتح وعاد وأقام في طاء النمل . وأما  
 الاب متريوس قيس تلك التربية ... فقد فرح بظهور الحق لأنه كان في جملة الذين  
 شهدوا وصية مارية <sup>(١)</sup>

« انتهت الرواية »

(١) اختلاف المؤرخون في مصير ابن كاتب الفراغي فقال بعضهم أن ابن طولون غدر  
 به وهو يبني الجامع وقال آخرون أنه قضى بيته حياته بهناد وراحة وليس هنا محل تحقيق ذلك